

الرياء في شعر الشريف الرضي :

" دراسة موضوعية وفنية "

إعداد

محمد تركي أمين طرادات

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد حور

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في

اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الجامعة الهاشمية

أيار ٢٠٠٢

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٩/٥/١٥.....

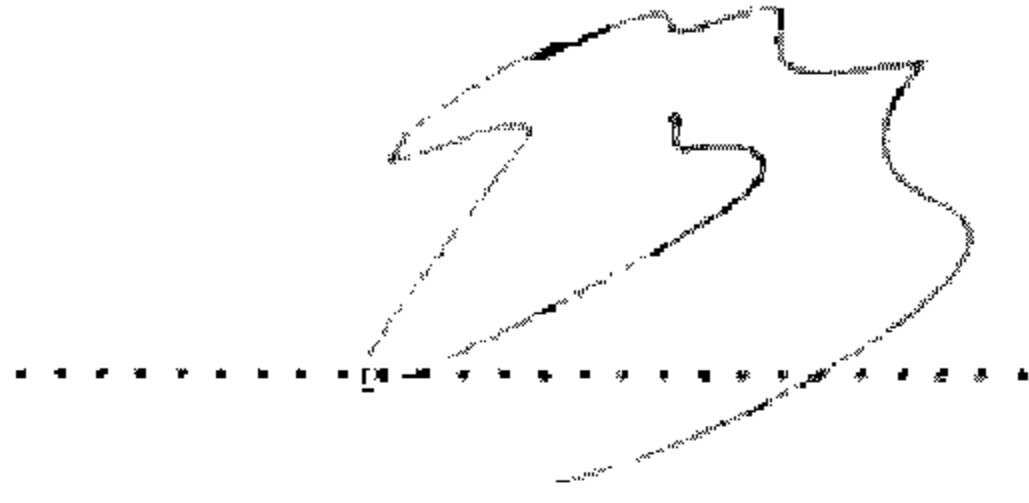
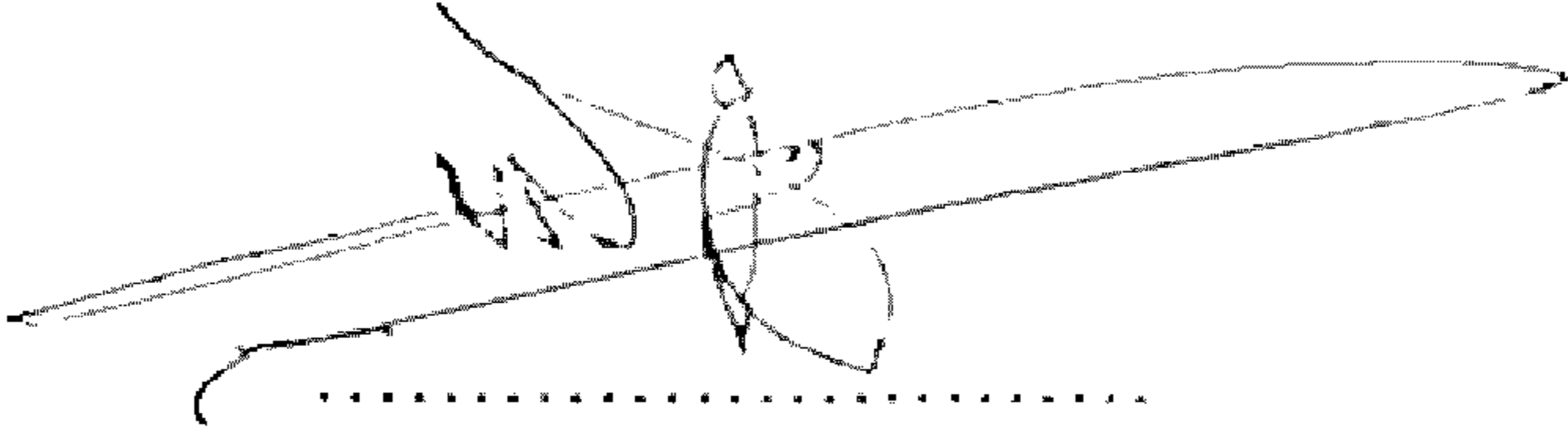
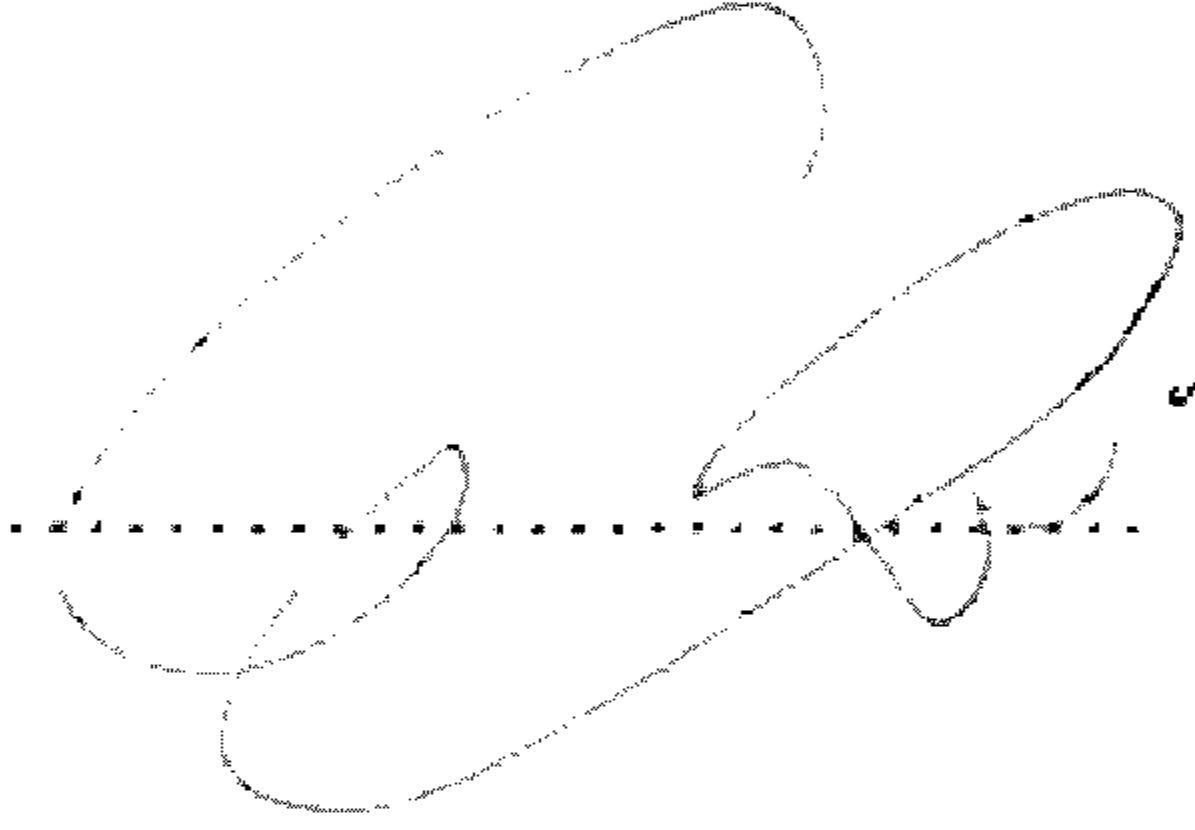
أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور محمد حور، رئيساً
أستاذ الأدب العربي

الدكتور محمود أبو الخير، عضواً
أستاذ مشارك الأدب العباسي

الدكتور زياد الزعبي، عضواً
أستاذ مشارك النقد العربي القديم

التوقيع

.....

ج

الإهداء

إلى والديَّ اللّذين علّمانني الصبر في الحياة

إلى زوجتي وأطفالي رمز الأمل والحب والحياة

إلى إخواني وأخواتي

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

بعد أن تم بعون الله تعالى إنجاز هذا البحث، لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى أستاذي، الأستاذ الدكتور محمد حور الذي تعهد البحث والباحث بالرعاية والاهتمام والتشجيع ، والذي عرفت فيه خلق العالم في جدية البحث ، والصبر في معالجة الأمور ، والتأني في إصدار الأحكام ، فله مني خالص المحبة والتقدير .

كما أتوجه بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الدكتور محمود أبو الخير ، والدكتور زياد الزعبي ، على تقبلهما قراءة البحث وإثرائه بالملاحظات التي سنفيد منها . كما وأشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة في إنجاز هذا العمل ، وأخص بالذكر منهم صديقي الباحث علي مصطفى البوريني ومدير مدرستي الأستاذ ماجد ربابعة .

والله ولي التوفيق

المحتويات

قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
المحتويات	هـ
فهرس الجداول	ح
الملخص باللغة العربية	ط
المقدمة	ث
تمهيد	أ
١. ملامح الرثاء في العصر العباسي حتى بداية القرن الخامس الهجري	١
٢. حياة الشريف الرضي	٩
اسمه ونسبه	٩
ولادته ووفاته	١١
علمه وصفاته	١١
شعره وشاعريته	١٢
(الفصل الأول : الرثاء الاجتماعي)	١٧
رثاء الأقارب والأصدقاء	١٩
١. رثاء الأقارب	١٩
٢. رثاء الأصدقاء	٣٧
أ. الوفاء	٤٥

ب. رثاء النفس	٥٤
ج. تعزية الأصدقاء والتأسي بأن الموت حق	٥٧
رثاء النساء	٦٢
الرثاء العام	٨٢
(الفصل الثاني : الرثاء السياسي)	٩٤
رثاء العباسيين	٩٦
رثاء البويهيين	١٠٦
رثاء الحسين بن علي	١٢١
رثاء الأمراء والمتغلبين على السلطة خارج بغداد	١٣٢
١. رثاء الحمدانيين	١٣٣
٢. رثاء العقيليين	١٤٢
٣. رثاء أبي العوام بن لیلی	١٤٦
رثاء المجد الغابر	١٥٤
(الفصل الثالث : الدراسة الفنية)	١٥٨
بناء القصيدة	١٥٩
١. المطلع والتخلص والخاتمة	١٥٩
٢. الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية	١٧٣

الموسيقى	١٨٣
الصورة الشعرية	١٨٩
١ . صورة الفقيد	١٩٠
٢ . صورة الراثي	١٩٦
٣ . صورة المنية	٢٠١
هل من عناصر فنية أخرى	٢٠٥
اللغة والمعجم الشعري	٢٠٧
الخاتمة	٢١٦
المصادر والمراجع	٢١٨
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٣١

فهرس الجداول

رقم الجدول	العنوان	الصفحة
١	النسب المنوية للأوزان في مراثي الشريف الرضي	١٨٤
٢	النسب المنوية للقافية في مراثي الشريف الرضي	١٨٨

الملخص

الرثاء في شعر الشريف الرضي :

" دراسة موضوعية وفنية "

إعداد

محمد تركي أمين طرادات

المشرف

أ . د محمد حور

تناولت هذه الدراسة موضوع الرثاء في شعر الشريف الرضي، هذا الموضوع الأدبي الذي يقوم في بنيته الأساس على الحزن على الميت، حيث يصوغ الشاعر مشاعره كلمات وأهات حرّى تبرز قدرته الفنية الفائقة، والتخيلية النادرة . وقد نبعت أهمية هذه الدراسة من قلّة الأبحاث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع وتحدثت عنه بعمق . واقتضت أن تكون في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، عرضت المقدمة أهمية الموضوع ومصادره ودوافعه ومنهجه، أمّا التمهيد ففيه حديث عن ملامح الرثاء في الشعر العباسي إلى بداية القرن الخامس الهجري، كما يحوي حديثاً عن مولد الشاعر ونشأته ووفاته وشعره وشاعريته .

وقد اختصّ الفصل الأول بالرثاء الاجتماعي وشمل رثاء الأقارب والأصدقاء من الذكور، ورثاء النساء، والرثاء العام الذي قصدنا به رثاء الوجوه الاجتماعية البارزة في المجتمع في ذلك الوقت، كالعلماء والشعراء والفقهاء . أمّا الفصل الثاني فقد اختصّ بالرثاء السياسي، وشمل رثاء الشخصيات السياسية في عصره من العباسيين والبويهيين والمتغلبين

على السلطنة خارج بغداد، ورثاء مجد الأمة الغابر من خلال رثاء مدينة الحيرة : وعرض الفصل الأخير دراسة فنية لشعر الرثاء عند الشريف الرضي من حيث بناء القصيدة والصور الشعرية والأوزان والقوافي واللغة والمعجم الشعري .

أمّا الخاتمة ففيها خلاص الدراسة ونتائجها، حيث خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها : أن مرثي الرضي جاءت غالباً على سنن قصيدة الرثاء عند سابقيه، وقد مثلت نظرة الرضي للموت، فلم تقتصر على الندب والبكاء، بل امتدت لتكشف حقيقة الموت والحياة، وقد تمثل ذلك في قصائد العزاء التي تحوي كثيراً من الحكم عن حتمية الموت . وقد أثبتت الدراسة العلاقة القوية بين الموقف الشعري الرثائي وصدق التجربة الشعرية ، حيث اتسم رثاء الأقارب بعاطفة صادقة لا تتأثرها تلك العاطفة في الرثاء السياسي . كما أثبتت الدراسة العلاقة القوية بين الموضوع الشعري واللغة المستخدمة حيث طابق الشاعر بين اللفظ والمعنى، وانتقى الألفاظ انتقاءً ، فكانت مرثيه صورة صادقة لشخصية المرثي . وقد اختار الشاعر أوزانه بما يحقق لها الموسيقى الداخلية والخارجية، وصاغ شعره على جميع القوافي صعبها وذلولها . وخلصت الدراسة كذلك إلى أن قصائد الرثاء عند الشريف الرضي في معظمها تؤلف كل قصيدة منها وحدة موضوعية، إذ لم يتحدث الشاعر عن موضوعات أخرى خارج نطاق الرثاء، واهتم بجمال المطلع وحسن التخلص، وختم قصائده ببراعة فائقة . كما امتاز كثير من هذه المرثي بالوحدة النفسية والشعرية التي تقترب من الوحدة العضوية في شعرنا الحديث، والتي تعدّ مقوماً أساسياً من مقومات القصيدة الناجحة .

كنت في حيرة من أمري وأنا أبحث عن موضوع لرسالة الماجستير إلى أن أشار علي أستاذي ، الأستاذ الدكتور محمد حور ، أن أكتب حول الرثاء في شعر الشريف الرضي نظراً لتمييزه في هذا الجانب ، ونظراً لقلة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع وتحدثت عنه بعمق . وقد انشرح صدري للقيام بهذه الدراسة لأمرين ، أولهما : إعجابي بشعر الشريف الرضي وشعوري بتمييزه في عصره ، خاصة وأن النقاد والمؤرخين قد أشاروا لطول باعه في الشعر وتميزه بالمراثي بشكل خاص ، حيث كان يحمل بين جوانحه روح الشاعر الوجداني الذي تفرد بمشاعره وأحاسيسه التي صبغت شعره بشكل عام بطابع الحزن والبكاء .

بالإضافة إلى أن هذا الشاعر رغم تميزه لم ينل حقه من الاهتمام قديماً وحديثاً ، ولعل ذلك عائد إلى موقفه المناهض للسياسة في عصره ، ورفضه للسلطتين القائمتين ؛ سلطة البويهيين الفعلية ، وسلطة العباسيين الاسمية . وثاني هذين الأمرين أن موضوع الرثاء من الموضوعات الشعرية المتعلقة بالقلوب الشاحذة للوجدان ، والمعبرة عن العواطف الحزينة ، وأن الشريف الرضي كان بارعاً في هذا النوع من الشعر وكان مكثرًا مجيداً إجادته فائقة ، وأن مراثيه على جانب كبير من طول النفس ، وقد جاءت صدى لحزن صادق وانفعال أكيد لا رياء فيه ولا افتعال ، وهي فياضة بالأسى واللوعة ؛ خاشعة أمام رهبة الموت .

أما المنهج الذي اتبعه الباحث في هذه الرسالة فهو تصنيف قصائد الرثاء في الديوان ، وتناولها حسب الأفكار التي عرض لها الشاعر . وقد كانت هذه الأفكار متشابهة إلى حد كبير ، فالحزن والبكاء واحد في كل عصر ، كما أن تعداد المناقب واحد في معظم القصائد . وقد اعتمد الباحث المنهج التحليلي الذي يستطرق النصوص ، جاعلاً لنتائج تحليل النصوص الأهمية الأولى في إطلاق الأحكام ، مستعيناً بما يتصل بالنص من قيم تاريخية أو اجتماعية ، مما يزيد في دقة إطلاق أي حكم .

وقد جاءت الرسالة في تمهيد و ثلاثة فصول ، اختصر الفصل الأول منها بالرثاء الاجتماعي ، ويشمل رثاء الأقارب والأصدقاء من الذكور ، ورثاء النساء ، والرثاء العام الذي قصدنا به رثاء الوجوه الاجتماعية البارزة في المجتمع في ذلك الوقت ، كالعلماء والشعراء والفقهاء ، وقدمت هذا الفصل على غيره لقوة ارتباط الشاعر بمن يرثيهم . كما أبانت كثرة مراثي النساء من أهله وغير أهله ، عن نظرة الشريف للمرأة بأنها ذات مكانة متميزة في نفسه ، وتحظى منه بالتقدير والاحترام ، حيث حفظ لها كرامتها التي كفلها الإسلام .

أما الفصل الثاني فقد خصص للرثاء السياسي ، وشمل رثاء الشخصيات السياسية في عصره من العباسيين ، والبويهيين ، والمتغلبين على السلطة خارج بغداد . ورثاء المجد الغابر ، والبطولة العربية المفقودة ، من خلال رثاء مدينة الحيرة .

وعرض الفصل الأخير دراسة فنية لشعر الرثاء عند الشريف الرضي ، فتناولت بناء القصيدة والصورة الشعرية ، وتحدثت عن توظيفه للصور البلاغية ، وألقيت الضوء على لغة شعره وألفاظه ومعانيه ، وأوزانه وقوافيه .

أما مصادر الدراسة فمتعددة، وفي مقدمتها ديوان الشاعر بتحقيق الدكتور محمود مصطفى حلوي . كما أفاد الباحث من المصادر التي تناولت شعر الشريف الرضي بعامة ، إلا أنها لا تهنيء للباحث مادة جيدة عن شعر الرضي الرثائي ، ومن أشهرها كتاب " الشريف الرضي حياته ودراسة شعره " لعبد الفتاح الحلوي ، و " عبقرية الشريف الرضي " لزكي مبارك ، و " شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية " لعبد اللطيف عمران .

كما كان للمصادر النقدية والمصادر التي تناولت شعر الرثاء بعامة دورها في هذه الدراسة سواء في ذلك القديم منها ككتاب يتيمة الدهر للثعالبي ، والعمدة لابن رشيق القيرواني ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والنعازي و امرأثي للمبرد . والحديثة مثل كتب شوقي ضيف ،

في النقد الأدبي والعصر العباسي الثاني ، والرياء ، ومنها كتاب النقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال ، ورياء الأبناء في الشعر العربي لمخيمر صالح ، وغيرها كثير.

تمهيد

(١) ملامح الرثاء في العصر العباسي حتى بداية القرن الخامس الهجري

الرثاء فن شعري معروف منذ الجاهلية ، يعبر فيه الشاعر عن نوازع نفسه الإنسانية نحو الميت، وألمه وتوجعه لفراقه ، فهو من أصدق الفنون الشعرية لأنه صادر عن قلب ملتحاح، ونفس فقدت عزيزا أو جليلا ، فتفيض المشاعر ألما وحزنا. وقد تضمن الرثاء معاني: الندب والتأبين والعزاء .

وهو فن شعري يلتقي مع المدح ، لأنه تعداد لفضائل المتوفي ومآثره ، ويكاد يكون مدار الرثاء على المعاني التي تبرز في الوقت نفسه في قصيدة المديح .

وكان هذا الغرض قد اتسع مداه في العصر العباسي الذي امتد عدة قرون، حيث وقعت حوادث كثيرة، وحروب خارجية وفتن وثورات ، أعقبها تقتيل وحرق وتدمير، وقد حظي الخلفاء بقسط من شعر الرثاء، فكان كلما توفي خليفة أو قتل، ينبري الشعراء لرثائه. فقد رثى أبو نواس الخليفة محمد الأمين رثاء صادق العاطفة، لأنه كان يلاطفه ويحسن إليه، وصور في قصيدة له كيف طواه الردى وأبعده عنه حتى احتفلت به المقابر، لأنه كريم من أسرة نبيلة، يقول:

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي الْمَنِيَّةُ نَاشِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ
لَئِنْ عَمَرْتُ دُورٌ بِمَنْ لَا أَوَدُّ فَقَدْ عَمَرْتُ مِمَّنْ أَحِبُّ الْمَقَابِرُ^(١)

كما يقصد الشاعر من وراء الندب والتأبين التقرير للجاني على الخليفة ، كما فعل البحتري حين تفجرت لوعته على قتل المتوكل ، فرثاه بقصيدة عبر فيها عن ثورته على الجناة وفي مقدمتهم ولي العهد الذي غدر بأبيه واشترك في قتله متعجبا من ذلك في قوله :

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى نَمَّا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ

(١) أبو نواس - ديوان أبي نواس ، شرحه وسط تصويحه وفهرسته عمر الطاح ، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ٣١٠، ٣١١.

أَكُنْ وَلِيَّ الْعُمَرِ أَضْمَرَ غَدْرَهُ
فَمِنْ عَجَبٍ أَنْ وَلِيَّ الْعِمَّةِ غَادِرُهُ
فَلَا مَنِي الْبَاقِي تَرَكَ الَّذِي مَضَى
وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدَّعَاءُ مُذِيرُهُ^(١)

كما رثى ابن المعتز الخليفة المعتضد بمراث كثيرة منها مرثيته :

يَا دَهْرُ وَيْحَكَ مَا أَبْقَيْتَ لِي أَحَدًا
وَأَنْتَ وَأَنْتَ سَوَاءٌ تَاكُلُ الْوَلَدَ^(٢)

فقد قارن الشاعر فيها بين حال الخليفة قبل الموت وبعد الموت ، فذكر قصوره ووصائفه وملاهيه ، وأمجاده و بطولاته الحربية ، وكيف كان يسحق العدو سحقاً ، ثم مضى إلى دار موحشة ، وقد خلف القصور والكنوز والعرش الذي كان يملؤه مهابة وأمناً .

ومما جد في رثاء الخلفاء في هذا العصر : أن يجمع الشاعر بين عاطفتين متناقضتين ، حيث يجمع بين التعزية والتبينة في مقموعة واحدة ، فيحاول الشاعر أن يبكي الخليفة الراحل ، ويذكر أمجاده وفضائله ، ويهني في الوقت نفسه الخليفة الجديد ، وهو من أصعب الرثاء كما يقول ابن رشيق القيرواني^(٣) .

وقد ركب بعض الشعراء العباسيين هذا المركب الصعب ، منهم أبو دلامة ، حين رثى أبا جعفر المنصور ، بأبيات صور فيها حسرته أنقذه ، وفرحته لتولي المهدي من بعده ، جاعلاً رثاء الخليفة السابق ، مناسبة لتبينة الخليفة الجديد ، يقول :

عَيْنَانِ : وَاحِدَةٌ تَرَى مُسْرُورَةً بِإِمَامِهَا
تَبْكِي وَتَضْحَكُ تَزِدُّهُ وَيَسُوُّهَا
فَيَسُوُّهَا مَوْتُ الْخَلِيفَةِ مُحَرِّمًا
هَآكِ الْخَلِيفَةُ يَا لَأَمْسَةٍ أَحْمَرِ
جَذَلْنِي وَأَخْرَى تَكَزِّفُ
مَا أَنْكَرْتُ، وَيَسُرُّهَا مَا تُعْرِفُ
وَيَسُرُّهَا أَنْ قَامَ هَذَا الْأَرْأَفُ
وَأَتَاكُمْ مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يَخْلُفُ

(١) البحرى - ديوان البحرى ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ ، ١ : ١٠٤٨ - ١٠٤٩ .

(٢) ابن المعتز - ديوان ابن المعتز ، شرحه عبد طراز ، دار الكتب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) القيرواني - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الخيل ، بيروت ، لبنان ، ط ٥ ، ١٩٨١ .

أَهْدَىٰ لِهَذَا اللَّهِ فَضْلَ خِلَافَةٍ وَلِذَاكَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ تَزْخَرُ^(١)

أما القادة فقد مدحواهم بأحسن الصفات ، وصوروا التبايع الأمة بفقدهم ، وذكروا بطولاتهم وأمجادهم ، وامتألت مرأيتهم بالحزن والأسى واللوعة لفراقهم ، ومن أجمل القصائد في هذا الباب ، قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي الطائي ، وهو من قادة المأمون المشهورين ، حيث قضى على ثورة "بابك الخرمي" إلا أنهم تمكنوا منه وقتلوه ، حيث اندفع في مضيق ، وكان موقفه صعبا فتصدى لهم حتى قتل ، فرثاه أبو تمام بقصائد عامرة ، من أشهرها قصيدته التي مطلعها:

كَذَا فَلْيَجْلِ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

ومنها :

فَتَىٰ كُلَّمَا فَاضَتْ عِيُونُ قَبِيلَةٍ دَمَا ضَحِكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
فَتَىٰ مَاتَ بَيْنَ الطُّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ
وَمَا مَاتَ حَتَّىٰ مَاتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ مِنْ الضَّرْبِ وَاعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السَّمَرُ
وَنَفْسٌ تَعَاثُ الْعَارَ حَتَّىٰ كَانَمَا هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الْكَفَرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَا لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضَرُ^(٢)

ورثى البحرى من القادة حميدا الطوسي وأولاده ، حيث كانوا فرسانا جميعا، وخاطب

القصر الذي كان يضمهم في مستهل قصيدته ، لأن هذا القصر كان رمزا لتجمعهم يقول :

أَقْصَرَ حُمَيْدٍ لَا عَزَاءَ لِمَغْرَمٍ وَلَا قَصْرَ عَنْ دَمْعٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ دَمٍ

(١) أبو دلالة - ديوان أبي دلالة ، شرح وتحقيق إميل بديع يعقوب ، دار الخيل ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ٨٢-٨٣ .

(٢) التبريزي - شرح ديوان أبي تمام ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راحي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩٤ ، ٢ : ٢١٨-٢١٩ .

وعدد قبورهم المنتشرة في أماكن جهادهم واستمطر لها الدموع ، ووصف فروسياتهم وشجاعتهم ورغبتهم في الموت أعزّة حتى لم يمت أحدهم إلا وهو أمير على جيش عرمره يقول:

مَضُّوا يَسْتَلِدُّونَ الْمَنَائِيَا حَفِیْظَةً وَحَفِیْظًا لِذَٰلِكَ السُّؤْدُدِ الْمُنْقَدِّمِ
وَمَا طَعَنُوا إِلَّا بِرُمَحٍ مُّوَصَّلٍ وَمَا ضَرَبُوا إِلَّا بِسِیْفٍ مُّثَلَّمٍ
وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضَ الْحَيَاةِ مَذَلَّةً عَلَیْهِمْ وَعِزُّ الْمَوْتِ غَیْرُ مُحَرَّمٍ
أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا الْعِیْشَ وَالذُّدَّ وَأَقْبَعَ عَلَیْهِ ، وَمَاتُوا مِیْتَةً لَّدُنْمِ
وَكُلِّهِمْ أَفْضَى إِلَیْهِ حِمَامُهُ أَمِيرًا عَلَی تَدْبِيرِ جِیْشٍ عَرْمَرَمٍ^(١)

وكانت قصيدته هذه في رثاء آل حميد : " خير ما قال فيهم على الإطلاق " ^(٢) . كما رثى بعض الشعراء العباسيين زوجاتهم ^(٣) ، ووردت بعض الأشعار في رثاء الأخت ^(٤) ، لكن هذه المراثي لم ترق موضوعا وفنا لما قالوه في رثاء الذكور الذين بيدهم مقاليد الأمور وهم الراثون الذين يعدون المرأة (الأنثى) تابعة وليست مكافئة لهم .

أما رثاء باقي الأهل والأقارب، فقد كان أكثر تفجعا، واتسم شعرهم فيه بصدق العاطفة، وعبر عن لوعة الفقد وشدة الحزن والأسى، فوجد لديهم رثاء الإخوة ^(٥) والآباء ^(٦) والأصدقاء ^(٧) والأبناء . فقد رثى الشعراء أبناءهم بدموع غزيرة، وقلوب ملؤها الأسى والحرقه،

^(١) المحمري - ديوان البحري ٣ : ١٩٤٦-١٩٤٧ .

^(٢) محمد مهدي الصير - في الأدب العباسي ، مطبعة السعادة ، بغداد ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ٤٨١ .

^(٣) ديت الح - ديوان ديت الح ، حققه وأعد تكمته أحمد مظلوت وعبد الله الحوري ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، (١٩٦٢) ، ٨٧-٨٨ .

^(٤) أبو فراس الحمداني - ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق علي العلي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٤٤ .

^(٥) الشيرازي - شرح ديوان أبي تمام ٢ : ٢٤٣-٢٤٤ .

^(٦) كشاحم - ديوان كشاحم دراسة وشرح وتحقيق البوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة احاديثي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٢٢٦ ، ٣٠١ .

^(٧) أبو العتاهية - ديوان أبي العتاهية قدم له وشرحه عبد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ١٧٦ .

وأس برد - ديوان بشار بن برد ، قدم له وشرحه صلاح الدين المومني ، دار الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ٧٨-٧٧ ، ٤٤ .

بفجیعة عمت حیاتهم، فأظهروا الشكوى والأنین ، وأعلنوا استسلامهم لأمر الله ، فهذا بشار

بن برد ، بهزه موت ولده ، لكن عزاءه في مصیبه أنه احتسبه عند الله تعالى يقول :

صَبَرْتُ عَلَى خَيْرِ الْفُتُوِّ رَزْنَتُهُ
وَمَا جَزَعِي مِنْ زَائِلٍ عَمَّ فَجَعُهُ
وَلِيَّ كُلِّ يَوْمٍ عَبْرَةٌ لَا أَفِضُهَا
وَلَوْلَا اتَّقَاءُ اللَّهِ طَالَ نَحِيبِي
وَمِنْ وَرْدٍ أَبَارِي وَقَصْدٍ شُعَيْبِي
لَأَحْظَى بِصَبْرٍ أَوْ بِحِطِّ ذُنُوبِي^(١)

ورثي دعل الخزاعي ولده ، وعزى نفسه وواساها بوفاة الرسول الكريم - صلى الله عليه

وسلم - واتخذ كذلك من وفاة آل النبي مبعث عزاء له ، وذلك بسبب حب دعل وتشيعه لهم،

يقول :

وَلَوْلَا النَّاسِيَّ بِالنَّبِيِّ وَأَهْلِهِ
هُوَ النَّفْسُ إِلَّا أَنْ أَلَّ مُحَمَّدٍ
لَأُسْبِلُ مِنْ عَيْنِي عَلَيْهِ سُؤُونَ
لَهُمْ دُونَ نَفْسِي فِي الْفُؤَادِ كَمِينُ^(٢)

أما أشهر الشعراء في هذا الجانب ، فهو ابن الرومي في رثائه لابنه الأوسط ، الذي

جاد بنفسه أمام ناظريه ، وقد ألح عليه النزف فعركه وأحاله إلى صفرة الزعفران . صور ابن

الرومي فزعه وارتباعه ، وشعر أن نفسه تتساقط من بين جنبيه ، في الوقت الذي رأى ريحانة

حياته وعينيّه ، وأنفه وحشاه تغيّرت عن عهدا السابق ، فلم يعد يستمتع منه بشمة ولا ضمة ،

بل إن واقعه أنساه ماضيه الذي سعد به وهو يداعبه ، فكان حاله حال من قال :

إِنَّ حُزْنَآ فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا
فَ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِلَادِ^(٣)

انظره يقول :

بُكَأَوْكُمَا يَشْفِي، وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي
أَرْيْحَانَةُ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
فَجُودًا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي

(١) ابن برد-ديوان بشار بن برد، قدم له وشرحه صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة احلال، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ١: ٢٤٠.

(٢) الخزاعي - ديوان دعل الخزاعي، جمعه وحققه محمد يوسف نعم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٢، ١٥١.

(٣) المعري - ديوان معطر الرند، شرحه وضبطه وضوحه وقدم له عمر الطاع، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ٥١.

كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارٍ وَحْشَةٍ فَإِنِّي بِدَارِ الْإِنْسِ فِي وَحْشَةٍ الْفَرْدِ^(١)

وسارت القصيدة على هذه الشاكلة: لوعة وحزنا وأسى وبكاء دائما ، أليس مطلع القصيدة ينم عن هذا ، حين فزع إلى عينيه لعونه على تحمل الأسى والأذى بعد أن أعوزه المعين خارج دائرة الذات ؟ :

بَكَوْكُمْ يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي فَجُودًا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمْ عِنْدِي

وانظره في المفارقة : يشفي .. ولا يجدي ، وكان ما استعان به قد خذله ، وجعله في حيرة من أمره ، أيدعو عليه وينتقم منه ، وهو العزيز الغالي ، أم يحافظ عليه بوصفه المكافئ والنظير لمن فقده . إننا نلمس هذه الحيرة من ظلال البيت ، في عدم الجدوى من جهة ، والنظير من جهة ثانية ، ولا نجد مردا لهذا إلا اللوعة التي أفقدت الشاعر وعيه ، وجعلته غير متزن في تعبيره وتركيزه ، ولا تكون هذه الصورة إلا في شدة الحزن على عزيز فقد ، ولا أغلى من الابن .

ومما شاع في رثاء هذا العصر ، رثاء المدن والتحسر عليها ، فكان الشاعر يبكي مدينته بدمع غزير ، إذا أصابها نكبة ، أو لعبت بها يد الدمار والتخريب ، لأن الشعراء أولى الناس في التعبير عن مآسي الأمة . فهم أكثر رقة وشفافية من غيرهم. ومن أشهر القصائد وأطولها في هذا الباب ، قصيدة أبي يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي ، قالها في أول نكبة أصابت بغداد في المرحلة الأخيرة من الفتنة بين الأمين والمأمون ، حيث حوَصر الأمين ببغداد ، ودكت قوات المأمون المدينة ، وضربت بالمنجنيق ، واشتعلت الحرائق في أسواقها وبيوتها ومساجدها . قال الطبري وهو يذكر هذه الحادثة : " إنه كثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد "^(٢) فكان هذا دافعا لعدد من الشعراء إلى رثائها ، فقال الخريمي قصيدته عدتها مائة وخمسة وثلاثون بيتا ،

^(١) ابن الرومي - ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٢، ١٩٩٤، ٢: ٦٢٤-٦٢٧.

^(٢) الطبري - تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٧، ٨: ٤٤٦-٤٤٧.

بكى فيها بغداد وندبها . وصوّر المأساة من خلال المقارنة بين ماضي المدينة وحاضرها ،

يقول :

يا هَلْ رَأَيْتَ الْجِنَانَ زَاهِرَةً يَرُوقُ عَيْنَ الْبَصِيرِ زَاهِرُهَا
وَهَلْ رَأَيْتَ الْقُصُورَ شَارِعَةً تُكِنُّ مِثْلَ الدُّمَى مَقَاصِرُهَا
مَحْفُوفَةً بِالْكُرُومِ وَالنَّخْلِ وَالسَّرِّ يَحَانِ مَا يَسْتَغِلُّ طَائِرُهَا
فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَلَايَا مِنَ الْـ إِنْسَانٍ قَدْ أَدْمَيْتَ مُحَاجِرُهَا
قَفَرًا خَلَاءَ تَعْوِي الْكِلَابِ بِهَا يُنْكِرُ مِنْهَا الرُّسُومَ زَائِرُهَا^(١)

ويصور الشاعر ما كان في المدينة من لهو ومجون ، وأن ما صارت إليه من خراب أو

دمار ، بما كسبت أيديهم ، أي عقاب من الله تعالى ، بسبب هذه الكبائر ، يقول :

يَا بُؤْسَ بَغْدَادَ دَارَ مَمْلَكَةٍ دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا
أَمَلَهَا اللَّهُ ثُمَّ عَاقَبَهَا لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرُهَا^(٢)

وهناك مرثية أخرى شيرة في رثاء البصرة لابن الرومي حين دخلها الزنج ودمروها ،

وفتكوا بأهلها ، وسفكوا فيها الدماء ، حتى أن الأخ من هول الفاجعة لا يفكر بأخيه ، ولا الأب

في بنيه ، وأصبحت أشلاء الناس في الطرقات كالتلال ، مما أوقع الحسرة والأسى في نفس ابن

الرومي ، فلم تطق عيناه النوم وقد رأى القتل وسبي النساء ، يقول :

ذَادَ عَن مَقْلَتِي لَذِيذَ الْمَنَامِ شَغُلَهَا عَنْهُ بِالدَّمِ سَوْعِ السَّجَامِ
أَيَّ نَوْمٍ مِّنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزَّنَّ جُ جَهَارًا مُحَارِمَ الْإِسْلَامِ^(٣)

ومن الجديد كذلك في شعر الرثاء في العصر العباسي ، رثاء الحيوانات الأليفة كالقطط

والكلاب ، ومردة هذا اللون من الرثاء إلى أثر الرقيّ وحياة الترف والنعيم التي عاشها الناس .

(١) الخرمي - ديوان الخرمي ، جمعه وحققه علي حواد الطاهر وعبد جبار المعيد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٧١ ، ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣٠ .

(٣) ابن الرومي - ديوان ابن الرومي ٦ : ٢٣٧٧ .

ولأبي نواس شعر في رثاء كلب صيد له مات بلاغة أفعى ، فحزن عليه حزناً شديداً ،
وعبر عن أساه لفقد كلبه الذي أغناه عن كل وسائل الصيد قال :

يَا بُؤْسَ كَلْبِي سَيِّدَ الْكِلَابِ قَدْ كَانَ أَغْنَانِي عَنِ الْعُقَابِ
خَرَجْتُ وَالَّذِي إِلَى تَبَابِ بِرٍّ، وَكَانَ عَذَابِي وَثَابِ^(١)

ولابن العلاف قصيدة في رثاء هرة اعتدى على حمام لجيرانه فذهبوه . يقول :

يَا هِرُّ فَارَقْنَا وَلَكَّ نَعُورُ وَكُنْتَ مِنَّا بِمَنْزِلِ الْوَلَدِ
فَكَيْفَ نَنفَدُ عَنْ هَوَاكَ وَقَدْ كُنْتَ لَنَا عُدَّةً مِنَ الْعُودِ
تَضُرُّ عَيْنَ الْأَذَى وَتَحْرُسُنَا بِالْغَيْبِ مِنْ حَيَّةٍ وَمِنْ جُرَدِ
حَتَّى اعْتَقَنْتِ الْأَذَى لِجِيرَانِنَا وَلَمْ تَكُنْ لِلْأَذَى بِمُعْتَقِدِ^(٢)

والمرثية تزخر بالحكم ، مع الحسرة على فقد الهر ، ومع التأمل في الموت وحقائق
الحياة^(٣) ، فلم يقلها الشاعر للهزل والإضحاك ، كما أصبح رثاء الحيوان فيما بعد ، وخاصة
في القرن الرابع ، حيث أخذت تغلب الروح المجنونة الهزلية على مثل هذا النوع من القصائد ،
ومثال ذلك القصائد البرذونية ، فقد أورد الثعالبي أنه "لما نفق برذون أبي عيسى بن المنجم
بأصبيهان وكان أصدا^(٤)، قد حمله الصاحب عليه، وطالت صحبته له ، أوعز الصاحب إلى الندماء
المقيمين في جملته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصدا، فقال كل منهم قصيدة فريدة"^(٥) نذكر من
هذه القصائد بعض الأبيات من قصيدة أبي القاسم بن أبي العلاء ، لنرى هذه الروح الهزلية ،
وهي بادية من أول بيت فيها يقول :

عِزَاءٌ وَإِنْ كَانَ الْمَصَابُ كَلِيلًا وَصَبْرًا وَإِنْ لَمْ يُغْنِ عَنْكَ فِتِيلًا
وَحَفْضُ أبا عَيْسَى عَنْكَ وَلَا تُفْضُ لَمُوعًا وَإِنْ كَانَ الْبُكَاءُ جُمِيلًا
وَرَاجِعُ حِجَاكَ الثُّبْتُ لَا يَغْلِبُ الْأَسَى أَسَاكَ وَإِنْ حُمِّلَتْ مِنْهُ بُقِيلًا

(١) أبو نواس - ديوان أبي نواس - ١٠٨ .

(٢) ابن حنكلا - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ٢ : ١٠٩-١١٠ .

(٣) توفيق صيف - العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٧٥ ، ٢١٩ .

(٤) أصدا : أي أنثى سواداً حمرة . ابن منظور - لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠ : مادة (صدا) .

(٥) الثعالبي - بنيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، شرح وتحقيق منبذ قمبيحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٣ .

لَا تَسْتَفْزِنَكَ الْهُمُومُ وَبَرُّحَهَا
فَفِي كُلِّ إِصْطَبِيلٍ أَنْيْنٌ وَزَفْسَرَةٌ
وَلَوْ أَنْصَفْتَهُ الْخَيْلُ مَا ذُقْنَ بَعْدَهُ
فَحَلَمُكَ قَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَصِيلاً
تَرَدَّدُ فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلاً
شَعِيرًا وَلَا تَبْنَا ، وَمُتْنٌ غَالِيلاً^(١)

وقد رثى بعض الشعراء الطيور كالطاووس^(٢) والقمري^(٣) ، ورثوا الأدوات المختلفة ،
ومن هذا ما رثى به كشاجم قدحا انكسر^(٤) . وهكذا " فإن شعراء العصر العباسي لم يتخرجوا
من رثاء أي شيء مهما كان قدره أو منزلته ، ما دام هو وثيق الصلة بنفوسهم ، وكانوا
صريحين في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم ، وصادقين في تعابيرهم ، قلما تشوبها الصنعة أو
التكلف "^(٥).

(٢) حياة الشريف الرضي

اسمه ونسبه :

هو أبو الحسن محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى
بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٦) . فهو بذلك ينحدر من المحتد
الأصيل، حيث ينتمي إلى آل البيت الكرام، من جهة أبيه وأمه، فلقب لذلك بذي

(١) النعماني - يتيمة الدهر ٣ : ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) كشاجم - ديوان كشاجم ، دراسة وشرح وتحقيق البيهقي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٣٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ٥٤ .

(٤) المصدر نفسه ٧٧ .

(٥) ناظم رشيد - الأدب العربي في العصر العباسي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، العراق ، ١٩٨٩ ، ٤١ .

* لسنا بصدد الحديث التفصيلي عن حياة الشريف الرضي ، وقد صدرت عنه دراسات عديدة مستقلة، فصلت الحديث في حياته وشعره
منها :

- عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ، دار هجر ، مصر ، ١٩٨٦ .
- محمد عبد الغني حسن - الشريف الرضي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٠ .
- إحسان عباس - الشريف الرضي ، دار بيروت ودار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٩ .
- زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٨ .
- محمد شلش - الحماسة في شعر الشريف الرضي ، المكتبة العالمية ، بغداد ، ١٩٨٥ .
- عبد اللطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومطلفاته الفكرية ، دار البايغ ، دمشق ، ٢٠٠٠ .

والذي يعني ما يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع البحث ، وهو فن الرثاء .

(٦) النعماني - يتيمة الدهر ، ٣ : ١٥٥ ، وابن حلكان - وفيات الأعيان ، ٤ : ٤١٤ .

الحسبين^(١) ، لقبه به بهاء الدولة ، وكان يخاطبه بالشریف الأجل^(٢) . وكان والده أبو أحمد الحسين بن موسى ، عظيم المنزلة جليل القدر في دولة بني العباس ، ودولة بني بويه ، ولقب بالطاهر ذي المناقب^(٣) "وكان مبارك الغرة ، ميمون النقيبة ، مهيبا نبيلاً ؛ ما شرع في إصلاح أمر فاسد إلا وصلح على يديه ، وانتظم بحسن سفارته وبركة همته وحسن تدبيره ووساطته"^(٤) . وفي ذلك يقول الشریف الرضي :

وهذا أبي الأدنى الذي تعرفونَه
مؤلف ما بين الملوك إذا هفوا
مقدم مجيد أول ومخلف
وأشفوا على حزة الرقاب وأشرفوا^(٥)

وقد عانى الشریف الرضي في صغره ، إذ لم تمنع هذه المكانة المرموقة لوالد، عضد الدولة البويهی من أن يغضب عليه ، لاستعظامه أمره^(٦) ، فقبض عليه سنة (٣٦٩هـ) وكان عمر الرضي دون العاشرة ، وحبسه في قلعة بفارس^(٧) ، بقي فيها إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلق شرف الدولة سراحه عام (٣٧٦هـ) واستصحبه إلى بغداد .

وقد عبّر الرضي عن ضائقته وحرمانه المادي والمعنوي في فترة سجن أبيه ، برسالة بعث بها إليه في السجن يقول فيها :

أَكُنْتُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا
وَتَدَرَّعْتُ بِمَدَارِعِ الْإِظْلَامِ

(١) القفصي - اعمدون من الشعراء وأشعارهم ، حققه وقدم له حسن معمری ، دار اليمامة ، الرياض ، السعودية ، ١٩٧٠ ، ٢٤٣ .
واحواساري - روضات الخات في أحوال العلماء والسادات ، تحقيق أسد الله إسماعيليان ، مكتبة إسماعيليان ، قم - جيلان أرم ، طهران ، ١٩٧٠ ، ٦ : ١٩١ .

(٢) المرجع نفسه ، ٦ : ١٩١ والضيوازي - الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ، قدم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الخيدرية ، السلف ، ١٩٦٢ ، ٤٦٦ .

(٣) ابن أبي الحديد - شرح معجم البلغة - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الخيل ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ١ : ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ١ : ٣١-٣٢ .

(٥) الشریف الرضي - ديوان الشریف الرضي ، مترجه وعلق عليه وضبطه وقدم له محمود مصطفى حلاوي ، دار الأرقم ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، ٢ : ١٨ .

(٦) ابن أبي الحديد ، شرح معجم البلغة ، ١ : ٣٢ .

(٧) ابن عبة - عمدة الطالب في أساط آل أبي طالب ، وزارة الثقافة ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٥ ، ١٨٠ .

أَشْكُو وَأَكْتُمُ بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِبٌ وَأَعَافُ أَنْ أَشْكُرَ مِنَ الْإِعْكَامِ^(١)

وقد شغل والده عدة مناصب في الدولة ، فكان يتولى نقابة الطالبين والنظر في المظالم والحج بالناس^(٢) ، وظل يتقلدها ويتولى إمارة الحج لفترات طويلة ، ثم ربت هذه الأعمال كلها إلى ولده الرضي سنة (٣٨٨هـ) وأبوه حي^(٣) .

ولادته ووفاته :

أجمعت أغلب الكتب التي ترجمت للشريف الرضي ، على أن ولادته كانت سنة (٣٥٩هـ) ، وأنها كانت في بغداد^(٤) . ولم يختلف المؤرخون كذلك في سنة وفاته التي كانت عام (٤٠٦هـ) إلا ما كان من ابن أبي الحديد ، في شرح نهج البلاغة ، حيث ذكر أن وفاته كانت عام (٤٠٤هـ)^(٥) .

علمه وصفاته :

نشأ الرضي في بغداد ، وكان من أهل العلم والأدب وتحلى بأحسن الصفات التي تتناسب وأصله العريق . وقد رعته أمه خير رعاية في فترة غياب زوجها الطويلة ، وجاءت بالشريفيين الرضي والمرتضى ، إلى حلقة الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان ، ليعلمهما الفقه^(٦) . وقد كان عالماً فاضلاً حفظ القرآن بعد أن جاوز الثلاثين ، كما يقول ابن أبي الحديد^(٧) ، وذكر الخطيب البغدادي : " أنه تلقن القرآن بعد أن دخل في السن ، فجمع حفظه في مدة

(١) الديوان ٢ : ٣١٠ .

(٢) الصفدي - الوافي بالوفيات ، باعتناء دبيرغ ، فرائر شتاير ، نيساباد ، ط ٢ : ١٩٩٢ ، ٢ : ٣٧٤ .

(٣) ابن حلكان - وفيات الأعيان ٢ : ٣٧٤ .

(٤) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ ،

١٩٩٧ ، ٢ : ٢٤٣ ، وابن حلكان - وفيات الأعيان ، ٤ : ٤١٩ ، والقفطي - أعمدون من الشعراء ، ٢٤٤ .

(٥) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة ١ : ٤٠ .

(٦) المصدر نفسه ١ : ٤١ .

(٧) المصدر نفسه ١ : ٤١ .

سيرة^(١). وهذه الرواية أرجح ، لأن رواية ابن أبي الحديد ، وإن كان فيها إشارة إلى ذكائه وأن ذاكرته بقيت قوية حتى بعد سن الثلاثين ، إلا أن حفظ القرآن كان يتم عند العلماء منذ زمن مبكر من حياتهم. وقد عرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً ، وله مؤلفات كثيرة مشهورة .

كان الشريف الرضي ورعاً تقياً ، ومن ورعه أنه " اشترى في بعض الأيام جزاً من امرأة بخمسة دراهم ، فوجد جزءاً بخط أبي عبد الله بن مقله ، فقال للدلال : أحضر المرأة ، فأحضرها : فقال : قد وجدت في الجزاء جزءاً بخط ابن مقله ، فإن أردت الجزء فخذيه ، وإن أردت ثمنه فهذه خمسة دراهم ، فأخذتها ودعت له وانصرفت "^(٢) .

أما ترفعه وأنفته وارتفاعه فوق المطامح المادية فمشهورة ، وقد عُرف عنه أنه لم يقبل هدية من أحد ولا جائزة ، حتى أنه ردّ صلات أبيه ، وقد اجتهد بنو بويه على قبوله صلاتهم فلم يقبل^(٣) . وعندما أراد أستاذه إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري المالكي أن يهبه بيتاً يسكنه ، وقال له : نحلستك داري بالكرخ ، المسماء دار البركة ، فامتنع الرضي عن قبولها ، وقال له لم أقبل من أبي قط شيئاً ، فأجابه الشيخ: إن حقّي عليك أعظم من حقّ أبيك ، لأنني حفظتك كتاب الله تعالى فقبلها^(٤) .

شعره وشاعريته :

الشريف الرضي ذو موهبة شعرية فذة تفتحت منذ نعومة أظفاره ، إذ بدأ ينظم الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل^(٥) ، وقد عدّ فيما بعد من كبار شعراء عصره ، قال عنه الشعالبي:

" هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر ، على كثرة شعرائهم المفلّحين ... ولو قلت إنه

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ٢: ٢٤٣ .

(٢) ابن الخوزي - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حققه وقدم له سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥ ، ٩: ١٤٦ .

(٣) ابن أبي الحديد - شرح نهج النبلاء ١: ٣٣ .

(٤) المصدر نفسه ١: ٣٤ .

(٥) الشعالبي - نعمة الشعر ٣: ١٥٥ .

أشعر قريش لم أبعد عن الصدق^(١) ، وذكر الخطيب البغدادي أن الشريف الرضي أشعر قريش وقد كان في قريش من يجيد القول إلا أن شعره قليل، أما الشريف الرضي فكان مجيداً أكثر^(٢) .

ووصف الباخري شعره بقوله : " وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه ، وإذا نسب انتسبت رقة الهواء إلى نسيبه ، وفاز بالقدح المعلى من نصيبه ، حتى إذا أنشد الراوي غزلياته بين يدي العزهاة^(٣) ، لقال له من العز هات ، وإذا وصف فكلامه في الأوصاف ، أحسن من الوصائف والوصاف ، وإن مدح تحيرت فيه الأوهام من مادح وممدوح^(٤) .

وهكذا نفهم من الأقوال السابقة أنه شاعر مجيد ، قال في معظم الأغراض الشعرية ، وكان أكثر في المدح والفخر والرثاء ، والشكوى ، وللمديح النصيب الأكبر في شعره ، إلا أنه لم يكن من أولئك الشعراء الذين اتخذوا من شعرهم مهنة للارتزاق ، وأصبحوا بمرور الزمن محترفين . وعلى الرغم من الظروف القاسية التي كان يمر بها ، إلا أن نفسيته الكبيرة أبت ذلك ، فقد أجمع كل الذين ترجموا له على أنه لم يقف على باب خليفة أو سلطان أو أمير ، حتى يسالغ بعض المؤرخين - كما مر سابقاً - وقالوا إنه لم يقبل صلات أبيه . لكنه مدح الخلفاء والملوك ليشد أنظارهم إليه " وقد تطلب منه هذا التوجه أن يستغل شعره سلماً له ، والمديح ظاهرة العصر^(٥) . فمدح والده بكثير من القصائد ، ومدح من الخلفاء : الطائع لله ، والقادر بالله ، مع تفاوت كبير بينهما ، ففي الوقت الذي بلغت قصائده في الأول ثلاثاً وعشرين قصيدة ، اقتصر في مديحه الثاني على قصيدتين حسب^(٦) .

(١) الثعالي - نعمة النعم ٣ : ١٥٥ .

(٢) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ٣ : ٢٤٦ .

(٣) العزهاة : التليم ، ابن منظور - لسان العرب (مادة عزه) .

(٤) الباخري - دمية القصر وعصرة أهل العصر ، تحقيق محمد التوحي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ١ : ٢٩٢-٢٩٣ .

(٥) محمد نمر العلوم ، الشاعر الطموح محلة تراثنا ، العدد الخامس عدد خاص بالشريف الرضي ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ،

بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ ، ٢٣٩ .

(٦) الديوان ١ : ٥٦٤ ، ٢ : ٣٥ .

أما الفخر فكان من الطبيعي أن يجيد فيه ، لأنه له أهل ، فهو مفتخر بكريم أصله ، وعراقة نسبه ، وبانتمائه إلى آل البيت الكرام ، نلاحظ ذلك في خطابه للخليفة القادر بالله ، وإذا به ند له منزلة وشرفاً ، إلا أن الخلافة أخطأته وأصابته القادر ، بل إننا نشم رائحة التعريض بالخليفة في قوله : " أنا عاطل منها وأنت مطوق " قال :

عَطْفًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّا فِي دَوْحَةِ الْعُلِيَاءِ لَا نَتَفَرَّقُ
مَا بَيْنَنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَقَاوَتْ أَبَدًا كِلَانَا فِي الْمَعَالِي مُعْرِقُ
إِلَّا الْخِلَافَةُ مَيَّزَتْكَ فَإِنِّي أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مُطَوَّقٌ^(١)

فكانه بفخره يستثير الحكام لمعرفة قدره ومنزلته ، وبالتالي وضعه في المكان الذي يليق به وبمكانته . " فيقال : إن الخليفة لما بلغته الأبيات قال : على رغم أنف الرضي"^(٢) . وقد ورد هذا الفخر في قصائد مستقلة ، كما ورد في الأغراض الشعرية الأخرى ، حيث افتخر بنفسه وشعره وفروسيته ، وكثر فخره بنسبه الذي يصله بجديه : محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلي ، كما كان يفخر بجده فاطمة الزهراء رضي الله عنها - ، ويقومه الهاشميين فوارس الغارات وأهل المكرمات .

وقد أبدع الشريف الرضي في الرثاء ، فأشار القدماء إلى تقدمه في هذا الباب^(٣) ، فالشعالي يقول عنه : " ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه " ^(٤) وقال عنه ابن أبي الحديد : " وإن قصد المراثي جاء سابقاً والشعراء منقطع أنفاسها على إثره " ^(٥) ، وقد عقد إحسان عباس فصلاً عنه بعنوان " النائحة النكلى " ^(٦) .

(١) الديوان ٢ : ٣٨ .

(٢) ابن أبي الحديد - شرح معجم البلاغة ١ : ٣٤ .

(٣) أنظر محمد عبد العني حسن - الشريف الرضي ٧١ .

(٤) الشعالي - نيممة النمر ٣ : ١٦٩ .

(٥) ابن أبي الحديد - شرح معجم البلاغة ١ : ٣٣ .

(٦) إحسان عباس - الشريف الرضي ١٩٣ - ٢٣٩ .

وتُرد إجادته في الرثاء لأمرين ؛ أولهما : كثرة المآسي والآلام التي حلت بأهل البيت الكرام ، وما حلّ بهم في مجزرة كربلاء وبعدها ، مما كان لهذا الأثر الكبير في إثارة أشجان الشاعر وتعميق حزنه ، صدى لتلك الدماء الزكية التي سفكت بغير حساب . فكان شعره صادراً من أعماق نفسه وقرارة فؤاده ، حيث أصبح فؤاده مكلوماً لا يعرف إلا لغة الأنين . والأمر الثاني هو خيبة أمله في الخلافة التي كان يطمح للوصول إليها ، إيماناً منه أن ذلك حق شرعي له ولأهل بيته ، هو أولى به من العباسيين أعمامه . فهذا الإحباط جعله حزينا منكسر النفس ، فكان عاملاً مساعداً على براعته في الرثاء . ولم يكن الرثاء عند الشريف الرضي ومعظم شعراء عصره مجالاً واسعاً لذكر محاسن الموتى ، كما كان في العصور السابقة ، بل وسيلة للنفاذ إلى فلسفة الموت ، كيف يأتي ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ وما علاقتنا بالوجود ؟ " ففي الظاهر رثاء، وفي الحقيقة تفكير فلسفي خليق بالبحث والدرس " (١)، فكان هناك سمة بارزة في شعر الرثاء عند الرضي هي " عدم اهتمامه بشخص المرثي مهما كان عزيزاً على فؤاده إلا في أبيات معدودة ، لا تتناسب مع طول القصيدة التي تدور أغلب أبياتها حول الحديث عن مظالم الدهر وخيائنه ، والإنسان والحياة والموت، وما إلى ذلك من الآراء المرسلة أمام هذا الموت الفاجع " (٢) فوقف كثيراً عند الدنيا وزوالها بسرعة ، وشدة غرور الإنسان بها ، وطول الأمل الذي يفسد الأعمال ، حيث طغت هذه الفكرة على شعره ووردت بصور مختلفة في سائر قصائده ، مع أن واقع حياته المنغمسة في السياسة والطموح لا يتيح فرصة للزهد ، إلا أنه زهد حين لم يبلغ طموحه ، فاحتقر الدنيا وأصبح طعم الحياة والموت عنده شيئاً واحداً كما يقول:

زَهْدٌ وَزُهْدِي فِي الْحَيَاةِ لِعَلَّةٍ وَحُجَّةٌ مِنْ لَا يَبْلُغُ الْأَمَلُ الزُّهْدُ

(١) شوقي ضيف - فصول في الشعر ونقدوه ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٨٨ ، ٢٠ .

(٢) نبيل أبو حاتم - اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال تيممة الدهر ، دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، ١٩٨٥ ، ٢١٤ .

وَهَانَ عَلَى قَلْبِي الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ
وَوَجَدَانَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنَا ، فَقَدْ^(١)

ومع هذا فإن الشريف الرضي لم يتحطل من المعاني القديمة في النذب والتأبين والعزاء ، فقد كان يستخدم المعاني والألفاظ والصور القديمة ، لكنه أضاف إليها مضامين جديدة وصوراً مستحدثة . وقد اتسم رثاؤه بالصدق الخالص ، والتجربة الفنية الصادقة ، لأنه لم يكن يرثي بدافع التكسب ، أو طمعا في عطاء سخي ، فكانت مراثيه تقطر أسى صادقا ، بالإضافة إلى أنه حاول أن يرسم مشاعره تجاه من يرثيه رسما برزت من خلاله قدرة الرضي على تتبع مراحل تأثير الحدث في نفسه .

وأخيرا كان الشريف الرضي يتحدث في قصائد الرثاء إلى الناس في سهولة ويسر ، ويعدد مناقب المرثي دون احتفال بالصنعة أو إسراف في التماس وجوه البديع، حيث شغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها . فأبياته في معظمها خالية من الصنعة ، لأن الصنعة إذا غلبت تؤدي إلى "ضياع العاطفة - التي هي ركن أصيل من أركان الرثاء - بين قوافل الزينات اللفظية ، فتبدو المرثية عذبة الإيقاع قليلة الأحران"^(٢).

^(١) الديوان ١ : ٣٨٧ .

^(٢) مصطفى الشكعة - الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ٨ ، ١٩٩٥ ، ٢٥٥-٢٥٦ .

الفصل الأول

الرثاء الاجتماعي

- رثاء الأقارب والأصدقاء .

- رثاء النساء .

- الرثاء العام .

لقد هيات طبيعة انتماء الرضي إلى آل البيت الكرام موقعا اجتماعيا متميزا ، شكل لديه حافزا نفسيا ليبقى متشبثا بأواصر القربى التي ينتمى إليها ، مؤكداً هذا الانتماء ، فكان اهتمامه شديداً بالأسرة والعلاقات الأسرية. ولكون الشريف الرضي نقيبا للطالبيين ، ومسؤولاً روحياً عن الشيعة ، فمن الطبيعي أن يكون في علاقاته هذه نموذجاً للإنسان المتعلق بالمبادئ ، غير المتبذل في هذه العلاقات ، حيث تتجلى الطبيعة الإنسانية في سموها ورفعتها ، وعندها فقط تكون الحياة رضية طيبة ، ولهذا كان " ديوان الشريف الرضي يضم من القصائد المنبثقة عن تجارب الحياة الاجتماعية والأسرية ، ما لا يضمه ديوان أي فحل من الفحول العباسيين ، فإذا تخلينا عن الحذر زعمنا أنه فاق في غزارة قصائده فحول العصور العباسية دون استثناء" ^(١) .

ومن بين هذه القصائد مجموعة كبيرة في رثاء الأسرة والأقارب والأصدقاء والعلماء ، إضافة إلى قصائد الرثاء التي سيرد الحديث عنها في هذا البحث . لكنني أثرت أن أبدأ بالرثاء الاجتماعي ، فقد كان الرضي كثير البكاء على الراحلين من أسرته وأقاربه وأصدقائه ، وقد عزى كثيراً من أصدقائه كذلك بقصائد كاملة، وكان وفياً لمن يرثيهم، كثير التحسر على فقدهم ، حيث كان رثاؤه متنفساً لما يعتل في قلبه من أحزان ، بسبب ما فعله الزمان بأهل بيته الطالبيين وبسبب طموحاته وآماله ، وما أصابها من إخفاق في الحياة . فلجأ إلى الافتخار بقوميته العربية في كثير من قصائد رثائه ، حيث يستلهم منها الشعور بالعزة والأنفة، وينفخ عن همومه وآلامه . وتعد من جانب آخر شكلاً من أشكال الثورة الاجتماعية ، في رفض العجم وحضارتهم ، وقيمهم السائدة، ليعبر عن طموحه في الخلافة وأهليته لها ، ويعبر عن ثورته ضد مظاهر الذل والتخلف الذي وصلت إليه الخلافة .

^(١) محمود عبد الله الجادر ، الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي ، ضمن كتاب: الشريف الرضي دراسات في ذكرائه الألفية، دار آفاق عربية ، بغداد ، العراق ، ١٩٨٥ ، ١١٢ .

وندرس في الرثاء الاجتماعي عند الشريف الرضي الأقسام التالية : رثاء الأقارب والأصدقاء من الذكور ، ورثاء النساء ، والرثاء العام.

رثاء الأقارب والأصدقاء

وفي هذه القصائد يكون الشاعر صادق المشاعر والأحاسيس ، لأن المصاب أثر في نفسه ، فأجاد في نظمه لأنه عبّر عن تجربة صادقة ، فنحس من خلال ألفاظ الشاعر المختارة ومعانيه ، أحزانه المتوقدة ودموعه الغزيرة وحرقة قلبه المكثوم على فقد أقاربه وأصدقائه .

١- رثاء الأقارب : ٥٥٩/٩٢

ندرس تحت هذا الباب رثاء أبيه الذي توفي سنة (٤٠٠هـ) ، ورثاء بقصيدة بلغت تسعة وثمانين بيتاً^(١) ، وعمه أبي عبد الله بن موسى المتوفى سنة (٣٨١هـ) حيث رثاه بقصيدة بلغت واحداً وأربعين بيتاً^(٢) ، وخاله أبي الحسين أحمد بن الحسين المتوفى سنة (٣٩١هـ) رثاه بقصيدة بلغت سبعة وسبعين بيتاً^(٣) . كما رثى قوماً من عشيرته وأقاربه انقرضوا وتآلم لفقدهم في واحد وسبعين بيتاً^(٤) ، ورثى من فقدهم من أهل بيته وأصدقائه في تسعة وأربعين بيتاً^(٥) ، كما رثى بعض أهله في مقطوعة من ثمانية أبيات^(٦) . وقد تمثل رثاء الرضي لأقاربه في اتجاهين : أولهما تصوير أحزانه وعظم فاجعته ، والثاني : التأسّي والعزاء .

لقد رثى الشريف الرضي والده عند وفاته بقصيدة تعدّ من " الطوال الجياد "^(٧) ، بدأها مستسلماً لحكم الله تعالى وسنة الوجود ، محاولاً أن يتجلد في أولها ، فيدعو لقبر والده بالسقيا إذ لا

(١) الديوان ٢ : ٢٤٥-٢٥١ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢١-٤٢٤ .

(٣) الديوان ١ : ٢١٠-٢١٦ .

(٤) الديوان ١ : ٥٢٩-٥٣٣ .

(٥) الديوان ١ : ٢٣١-٢٣٥ .

(٦) الديوان ١ : ٦٥٣ .

(٧) زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي : ١٢٧ .

يملك في مثل هذا الموقف إلا الدعاء ، لكن الشاعر لم يلبث أن يغلبه الحزن على أبيه فيأخذ على نفسه عيدا أن يبقى دائم البكاء ، لا يكفكف الدموع لفراقه . بل ويعجب من كل مبتسم في هذه الحياة ، وكأنه يريد من الوجود كله أن يحزن معه لفقد أبيه ، يقول :

وَسَمَّكَ حَالِيَّةُ الرَّبِيعِ الْمُرْهِمِ وَسَقَّتْ سَاقِيَةُ الْغَمِّ الْمُرْزِمِ
وَعَدَّتْ عَلَيْكَ مِنَ الْحَيَا بِمُودِّعٍ لَا عَنْ قَلْبِي ، وَمِنْ النَّدَى بِمُسْلِمِ
قَدْ كُنْتُ أَعْدَلُ قَبْلَ مَوْتِكَ مِنْ بَكْيٍ فَالْيَوْمَ لِي عَجَبٌ مِنَ الْمُبْتَسِمِ
وَأَلُوذُ دُمْعِي أَنْ يَبْلُغَ مُحَاجِرِي فَالْيَوْمَ أَعْلَمُهُ بِمَا لَمْ يَعْلَمْ
لَأَقْلُبَ بَعْدَكَ لِلْمَدَامِيعِ كُفْكُفِي مِنْ عَزِيرَةٍ وَلَوْ أَنَّ دُمْعِي مِنْ دُمِّي^(١)

ولهذا خلت القصيدة من ألوان العزاء ، لأن العزاء يتنافى مع ما قطعه الشاعر على نفسه ، فعبر عن أحزانه المتوقدة ، وقلبه المكلوم بدموع غزيرة لا تتضب ، إذ تطفح القصيدة بالمشاعر الصادقة ، مشاعر ابن تعمقه الحزن فلم يجد إلا هذه الكلمات للتعبير عن نوعته .

كما أثار موت أبي عبد الله عم الرضي أشجائه ، وحزن لفراقه فعبر عن فجيعة بموت عمه ، وشدة حزنه ، وأنه لا يحسن التجلد في مثل هذا الموقف ، فما يخفي من الوجد هو نظير ما يبديه ، لذا تهاجه النوعة ، فيقسم بالكعبة المشرفة أنه قد ذهب عيشه الرقيق بذهاب عمه ، وقد غدا كساقطة إحدى يديه وقد جبت من الزند ، كما يقول :

سَلَا ظَاهِرُ الْأَنْفَاسِ عَنْ بَاطِنِ الْوَجْدِ فَمَنْ الَّذِي أَخْفَى نُظِيرَ الَّذِي أَبْشَرِي
كَلَفَتْ بِمَا وَارَى السُّتَارُ وَمَا هُوَتْ إِلَيْهِ رِقَابُ الْعَيْسِ تَرْقُبُ أَوْ تَخْشَرِي
لَقَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ الرَّقِيقُ بِذَاهِبٍ هُوَ الْغَارِبُ الْمَجْزُولُ مِنْ ذُرْوَةِ الْمَجْدِ
وَإِنِّي إِذَا قَالُوا مَضَى لِسَبِيلِهِمْ وَهَيْئًا عَلَيْهِمُ التَّرَبُّ مِنْ جَانِبِ الْحَمْدِ
كَسَاقِطَةٍ إِحْدَى يَدَيْهِمْ إِزَاءَهُ وَقَدْ جَبَّهَا صَرَفُ الزَّمَانِ مِنَ الزَّنْدِ^(٢)

(١) الديوان ٢ : ٢٤٥ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢١-٤٢٢ .

فالشاعر يحسن تصوير أوجعته لفقد عمه الذي ما من شك أنه كان له أثر مهم في حياته ، وأنه كانت له مكانة لا تقل عن مكانة أبيه ، رغم أن المصادر لم تذكر له نشاطاً سياسياً كما كان والد الرضي ، لكنها تذكر أنه سجن مع أخيه أبي أحمد في القلعة بفارس عام (٣٦٩هـ) وصودرت أملاكه^(١) وفي اليوم الذي توفي فيه كان والد الشريف خارجاً " إلى واسط لتلقي بهاء الدولة " ^(٢) ، فأرسل إليه الرضي بأن يعود سريعاً ، وهذا كله يدل على أن أبا عبد الله كان له شأن في بغداد .

أما مرثيته في خاله ، فإنها لم تبلغ من حرارة التفجع ما بلغت قصيدته في أبيه وعمه ، إذ بدا فيها واعظاً حكيماً ، لكنه مزج الحكمة بالضجر من الحياة وذم الدهر ، والشكوى من الأيام ، ويبدو مضطرباً في هذه القصيدة ، حيث يمزج بين ذم الدهر وبين الإيمان بالقضاء والقدر ، كما في قوله :

لُزْنَا مِنَ الدَّهْرِ الْخَوُونِ بِمُصَامٍ	يُحْطَمُ أَشْلَاءُ الْقَرِينِ الْمُجَانِبِ
هُوَ الْقَدَرُ الْمَجْلُوبُ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَى	وَأَعْيَا عَلَيْنَا رَدُّ تِلْكَ الْجَوَالِبِ
نُرَاعُ إِذَا مَا شَيْءٌ أَخْمَصُ بَعْضِنَا	وَأَقْدَامُنَا مَا بَيْنَ شَوْكِ الْعَقَارِبِ
وَنُؤْسِي بِأَمَالٍ طَوَالٍ كَانْنَا	أَمَّا بَيَاتُ الْخُطْبِ دُونَ الْمَطَالِبِ ^(٣)

وفي الأبيات مزج بين متناقضين إذا ما أخذنا بظاهر النص ، فالشاعر يحاول تسوية حزنه وشكواه لفقد خاله ، موكلاً الأمر إلى فسوة الدهر والأيام عليه ، وهذا كثير في رثائه بشكل عام ، لكنه لا يعبر عن ضعف إيمان بقدر ما هو انفعال نفسي آني ، فلا يوجد لدى الشريف الرضي اعتقاد بالدهر كاعتقاد الجاهليين ، إذ نرى في مرثيته ظاهرة الاستسلام لأمر الله ، والإيمان بالقضاء والقدر ، كما هو الحال في هذه القصيدة ، فالشاعر " بين عقيدته في القدر وواقعه في

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٥، ٧: ٣٩١.

(٢) عبد العناح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره، ١: ٦٧.

(٣) الديوان ١: ٢١١.

الزمان ، نحن كأنه يحدث في صورة متناقضة وهذا يؤثر وليس تناقضا ، فذات الشاعر

تؤمن بقضاء الله وقدره ، وهو في الوقت نفسه شديد الإحساس بذاته وما يعثورها في الزمان ^(١).

وكان الشاعر يقصد بالزمان الدنيا أو الحياة ، فيذمها لأنه أصبح يرى أن لا قيمة لها بعد

أن رمته بفقد خاله ، فهي سما طاعم وخوف لمطلوب وهم لطالب ، كما يقول :

نَعَمْ إِنِّي الدُّنْيَا سَمَاءٌ لِّطَاعِمٍ وَخَوْفٌ لِّمَطْلُوبٍ ، وَهَدًى لِّطَالِبٍ
تَصَدَّقْ لَنَا قُرْبَ الْمَوَاقِ ذِي الْيَسْوَى وَتَخَشَّنَا كَيْدَ الْعَدُوِّ الْمُجَانِبِ
وَإِنَّا لَنُثَوِّاها عَلَى الْغَيْرِ وَانْقَلَى وَنَمْدَحُهَا مَعَ عَلِمْنَا بِالْمَعَانِبِ ^(٢)

والشاعر كذلك مضطرب بين الحزن والصبر ، إذ يؤكد أن موت خاله الذي يعتز

بالانتماء إليه فادحة كبرى ، ولا يمكن الصبر عليها ، إلا أنه صبر احتسابا عند الله لنيل الأجر

والثواب ، كما يقول :

وَفَادِحَةٌ يَسْتَهْزِمُ الصَّبْرُ بِاسْمِهَا وَتُضْمَى إِلَى مَاءِ الدَّمْعِ السَّوَائِبِ
صَبَرْنَا لَهَا صَبْرَ الْمَنَاقِبِ حِسْبَةً إِذَا اضْطَرَبَ النَّاسُ اضْطِرَابَ الدَّوَانِبِ ^(٣)

وهذا أمر جد في شعر الرثاء بعد الإسلام ، وخاصة رثاء الشهداء في المعارك ، إذ كان

الشاعر الإسلامي يحتسب مصيبتة عند الله ويصبر عليها طلبا للأجر والثواب ، وانصياعا لقول

الله تعالى : " الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ

رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٤) ، لكن الشاعر رغم صبره واحتسابه فإن مرور المواقب

على بيت خاله وهو خلو منه تقدح الحزن والحسرة في نفسه :

^(١) محمد بن حسن البدر - الحياة والموت في الشعر الأموي ، دار أمية ، الرياض ، ط ١ - ١٩٨٩ ، ١٣٥ - ١٣٦ .

^(٢) الديوان ١ : ٢١١ .

^(٣) الديوان ١ : ٢١٥ .

^(٤) سورة النقرة ١٥٦ - ١٥٧ .

مِنَ الْيَوْمِ يَسْتَدْعِي مَنَازِلَكَ الْبُكَاءِ
إِذَا مَا صَوَى الْأَبْوَابَ مَرُّ الْمَوَاكِبِ^(١)

لذا يعود للحديث عن حزنه وبكائه كلما ذكر خاله ، فيقول في ختام القصيدة :

ذَكَرْتُكُمْ ، وَالْعَيْنُ غَيْرُ مُحِبَّةٍ
وَمَا جَالَتْ الْأَحَاطُ إِلَّا بِقَاطِرٍ
وَكُلُّ نَافِعِي ذَكَرُ الْأَخِلَاءِ بَعْدَمَا
فَأَنْبَطَتْ غُدْرَانُ الدَّمُوعِ السَّوَاكِبِ
وَلَا أَمْتَدَّتِ الْأَنْفَاسُ إِلَّا بِحَاصِبٍ
جَرَى بَيْنَنَا مَوْرُ النَّقَا وَالسَّابِيبِ^(٢)

وفي هذا الاتجاه ، اتجاه الحزن والتفجع ، مال الشاعر إلى المبالغة في إظهار جزعه ، من خلال ذكر مناقب أقاربه وعراقة نسبهم ، حيث يقف الشاعر مفتخراً مزهوا بهذا النسب العريق من جهة أبيه وأمه ، فمدح والده بطهارة الثوب ونقاء العود ، واصفاً شموخه مشبهاً إياه بالجبل ، كما شبهه بسيف مهتد أغمد في الثرى ، يقول :

إِنَّ ابْنَ مُوسَى وَ الْبَقَاءُ إِلَى مَدَى
وَمَضَى رَحِيضُ الثَّوْبِ غَيْرَ مُدْنَسٍ
وَحَمَاهُ أَبْيَضُ عَرْضِهِ وَ ثَنَائِهِ
مَلَأَ الزَّمَانَ مَنَاحِيَا وَ جَرَاحِيَا
الْيَوْمَ أَغْمَدْتُ الْمَهْتَدَ فِي الثَّرَى
وَوَدَّعْتُ عَرَائِينَ الْعُلَى وَ أَكْفَيْتُهَا
أَعْطَى الْقِيَادَ بِمَارِنٍ لَمْ يَخْطُمْ
وَقَضَى نَقْيَ الْعُودِ غَيْرَ مَوْصَمٍ
ضَمَّ الْيَدَيْنِ إِلَى بَيَاضِ الدَّرْهِمِ
خَبِطاً بِبُؤْسَى فِي الرِّجَالِ وَ أَنْعَمِ
وَدَفَنْتُ هَضَبَ مَتَالِيعٍ وَ يَلْمَلَمِ
مِنْ بَيْنِ أَجْدَعٍ بَعْدَهُ أَوْ أَجْدَمِ^(٣)

وصفة الجبل هذه يسبقها الشاعر على المرثي على سبيل الإكبار والإجلال ، وهي كثيرة الترداد في رثائه للعظماء ، فعند رثائه لأبي إسحاق الصابي ذكرها ثلاث مرات في قصيدة واحدة ، ويذكرها هنا في معرض رثائه لأبيه محمداً الجبال ولم يجعلها منكرة ، فيخص هضاب " جبلي متاليع ويللم " ، وهي هضاب شامخة لا يمكن دفنها في الثرى ، ليقول لنا : إن والده وإن

(١) الديوان ٢١٦ : ١ .

(٢) الديوان ٢١٦ : ١ .

(٣) الديوان ٢٤٥ : ٢ - ٢٤٦ .

انقضاء نقضاء الله ودفن جسده ، فإنه بفضائله ومآثره وأعماله سيبقى شامخاً كجذع الجبال ، لأن فضائله باقية بعده ذكراً عطراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالجبل منذ القدم كان في نظر الجاهليين ، رمزاً للشباب والبقاء والخلود^(١) ، ولا أدري كيف وهم الدكتور إحسان عباس فقال : ' والغريب أن صورة الجبل لا تطالعنا في رثائه لأبيه ، وتقوم بدلها صورة السيف الذي أهدى^(٢) . وهذه الصورة ، صورة السيف الذي أهدى ، تشير إلى أنه كان يرى في والده المهدي المنتظر ، والبطل العربي المنقذ ، فهو السيف المسلول في وجه التسلط الفارسي ، ولهذا جعله الشاعر محور تراثيه في الأعياد والمناسبات ، إذ كان يبنّيه كما يبنّي الملوك ، لكن هذا السيف المشهور في وجه الظنم قد أهدى في الثرى ، فكانت هذه الصورة تعبر في كل دلالاتها عن رأس الشاعر من وجود البطل العربي الرافض لسلطة بني بويه ، بله الرفض للعباسيين أبناء عمه الذين ليس لهم الحق في إرث الخلافة .

كذلك وصف الرضوي عمه أبا عبد الله حين رثاه بسيف أحمد وسنان قد تحدثه الدروع فبدد أعيانها ، مما يدعم رأينا السابق ، وهو أن عمه كان الناصر المؤيد لأبيه ، كما وصفه كذلك بالربيع والسحاب الذي يأتي ويعم برغد العيش ثم ينتهي وتبقى آثاره ، يقول :

سنان تحدثه الدروع يزغفها	فبدد أعيان المضاعف والسرد
جواد جرى حتى استبد بغاية	تقطع أنفاس الجباد من الجهد
سحاب علا حتى تصوب مزنه	وأقلع لما عم بالعيش الرغد
ربيع تجلّى وانجلّى ووراءه	شقاء كما يشق على زمن النورد ^(٣)

وإلى جانب قيم العفة والسماحة والثموخ ، فإن الشاعر قد جمع بين الكرم والشجاعة في تأبين أقاربه ، فوصف والده بأنه غاية في البذل والعطاء ، يهب النعم انجراجاً دون ندم ، بل

^(١) مصطفى الشوروي - شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة في : الدار الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ ، ١٨٧ .

^(٢) إحسان عباس - الشريف الرضي ٢١٣ .

^(٣) الديوان ٤٢٢ : ١ .

يكون وجهه ممتلئاً بشراً وسروراً ، وهو شجاع في ساحة الوغى ، يرد ألوية القنا بعد لقاء العدو مضمخة بالدماء ، وهكذا ملأت فضائله البلاد وتحدث بها كل الناس ، كما يقول :

مَتَّبَعٌ كَرَمًا إِذَا سُئِلَ الْجَدَا مَطَرُ النَّدَى أَمَمًا ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ
جَذْلَانِ تَطْلُعُ مِنْهُ أُنْدِيَةُ الْعُلَى وَجْهًا كَرِيمَ الْخَدِّ غَيْرَ مُلَطَّمٍ
الْوَاهِبِ النَّعَمِ الْجَرَّاجِرَ عَادَةً مِنْ ذِي يَدَيْنِ إِذَا سَخَا لَمْ يَنْدَمِ
بِيَدَيَّ أَغْرَى يَرُدُّ أَلْوِيَةَ الْقَنَا غِبَّ الْوَقَائِعِ ، يُعْتَصِرَنَّ مِنَ الدَّمِ
مَلَأَتْ فَضَائِلُكَ الْبِلَادَ ، وَنَقَبَتْ فِي الْأَرْضِ يَقْذِفُهَا الْخَبِيرُ إِلَى الْعَمَى^(١)

وفي مجال الشجاعة افتخر الرضي بقدرة والده السياسية ، فذكر المهام الخطيرة والأمر العظيمة التي كانت تتأط به فيؤديها على أكمل وجه ، إذ اعتمدت عليه خلافة بني العباس وسلطة بني بويه ، لإخماد الفتن والاضطرابات التي حدثت بين السنة والشيعة ، وقد تلافاها ، فكان من الزعماء المصلحين^(٢) . " وكان السفير بين الخلفاء وبين الملوك من بني بويه ، والأمراء من بني حمدان وغيرهم "^(٣) . كما أورد ابن الأثير أنه شارك في الصلح بين الحمدانيين والبويهيين حيث أرسله عز الدولة بختيار سنة (٣٦٢هـ) في رسالة إلى أبي تغلب بن حمدان بالموصل فمضى إليه^(٤) . فقال الشريف الرضي مفتخراً بهذه الحادثة .

حَمَلَ الْعِظَائِمَ وَالْمَغَارِمَ نَاهِضًا وَمَضَى عَلَى وَضَحِ الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ
رَقَدَ الْمُلُوكُ بِحَزْمِ أَلْبَجٍ رَأْيُهُ فَلَقَّ لِعَاشِيَةِ الْعُقُولِ النَّوْمِ
كُلُّ مَنْ أَبِ كَابِي لَجْرَحٍ مُلِمَّةٍ أَعْيَا ، وَشُعْبِ عَظِيمَةٍ لَمْ يُلَامِ
إِنَّ الْخُطُوبَ الطَّارِقَاتِ فَجَعْنَا بِحِمَى الْأَبَى ، وَجَنَّةِ الْمُسْتَلِيمِ^(٥)

(١) الديوان ٢ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) انظر زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي ١ : ١٢٤ .

(٣) ابن أبي الحديد - شرح فتح البلاغة ١ : ٣١ .

(٤) ابن الأثير - الكامل ٧ : ٣٣٨ .

(٥) الديوان ٢ : ٢٤٨ - ٢٤٩ .

لكن الجانب المميز في رثاء الرضي وهو يذكر مناقب أقاربه المتوفين وفضائلهم ، هو التغني بانتساب أقاربه لآل الرسول الكريم ، والافتخار بهذا الأصل العظيم وتمجيد بطولات أجداده ، وكرم أصلهم ، وجودهم ، وترادفيهم على المعالي والمكرمات ، منها قوله :

النَّاهِرِ ابْنِ الظَّاهِرِينَ وَمَنْ يَكُنْ	رَأْبِرْ إِلَى جِذْمِ النُّبُوَّةِ يَعْظُمُ
مِنْ مُعْشَرٍ تَخَذُوا الْمَكَارِمَ طُعْمَةً	وَرُؤُوا مِنَ الشَّرَفِ الْأَعْلَى الْأَقْدَمِ
مِنْ جَنْدَرٍ ، أَوْ دَائِرٍ ، أَوْ عَاقِرٍ	أَوْ مَاضِرٍ ، أَوْ مُنْعِمٍ ، أَوْ مُرْغِمٍ
يَتَعَوَّرُونَ الْمَكْرُمَاتِ وَلَادَةُ	مِنْ بَيْنِ جَعَةٍ فِي الْمَكَارِمِ وَأَبْنَمِ ^(١)

ويدفعه فخره هذا أن يجعل موت والده باباً لشماعة الحساد والأعداء ، إذ أخذوا يعضون عليه الأنامل من الغيظ ، وقد كان الشعراء في مثل هذا الموقف يظهرون تجدهم لأنه "مما يوجع النفس وهي تعاني من مرارة الحدث ، الإطالة المريبة التي يطل بها أُناس من بعيد أو قريب ، إنهم الشامتون المشتقون ، فعمقوا عن قصد من وقع المصيبة ، وشكلوا بالتالي بعداً مأساوياً من أبعاد المأساة الأدبية ، وإزاء هذه المماحكة أبدى الشعراء أقصى درجات التجرد"^(٢) ، لكن الرضي يبين هنا أن لا مجال لشماعة الأعداء ، فإين هم من هؤلاء الأسود ، والأبطال الشامخين ، أهل العلى والمكرمات ، بل يكفي الإنسان شرفاً أن يرى قبورهم لكل منجد أو منيم، فهم جبال للعلاء وإن غدوا أمشاط مجد في رمانم أعظم . ويستسقي الشاعر لهذه القبور ، السحاب المثقل بالمطر ، المزمزم بالرعْد ، كما يستسقي لثراهم الدموع التي تغني هذه القبور عن مطر السماء . وللدموع دلالة هنا على كثرة البكاء عند الشيعة بسبب المصائب التي حلت بأجدادهم واغتصاب حقوقهم في أرث الخلافة ، يقول :

قَدْ قُلْتُ لِلْحَسَنِ تَقَارُصُوا	حُرِّقَ الْقُتُوبِ جَوَى وَحَرِّقَ الْأُرَمِ
------------------------------------	--

(١) الديوان ٢ : ٢٤٩ .

(٢) محمد صالح - رثاء الأنساء في الشعر العربي من نهاية القرن الخامس الهجري ، مكتبة الشار ، بيروت ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٣٣ .

لَا تَحْسُدُوا الْمُتَرَادِفِينَ عَلَى الْعُلَى
 وَالطَّاعَتِينَ بِكُلِّ جَدٍّ مَدْعِيٍّ
 يَتَمَنُّونَ إِلَى عَلَاءٍ عَازِيَةٍ
 بِتِلْكَ الْأَسْوَدِ فَمَنْ يَجُرُّ فَرِيضَهَا
 وَكَفَاكَ مِنْ شَرَفِ الْغَيْثِ بَلَّغُ تَرَى
 عُدُوا جِبَالًا لِلْعَلَاءِ ، وَإِنْ غَدَا
 وَضَعْتَ بِتِلْكَ صَفَائِحًا وَضُرَائِحًا
 وَسَقَتْ تَرَاهُنَ الدُّمُوعُ مَرِثَةً .
 وَالغَائِبِينَ عَلَى السُّنَامِ الْأَكْثَوِمِ
 وَالْمَاضِرِينَ بِكُلِّ نَيْلٍ مُرْزِمِ
 وَمُكَارِمِ قُدَمٍ وَمَجْدٍ قَسْعَمِ
 أَمْ مَنْ يَمُرُّ بِغَابِرِيهَا الْمُتَاجِمِ
 بِتِلْكَ الْقُبُورِ يُنَجِّدُ أَوْ مُنْهِمِ
 أَمْشَاجٍ مُجَرِّ فِي زَمَائِمِ أَعْظَمِ
 أَتَقَالَ أَوْصَفُ بِتَرَعُودِ مُزْمَرِ
 فَغَيْنٍ عَنْ قَضْرِ الْغَمَائِمِ وَالسُّمَيِّ (١)

وكأني في قوله : ' أمشاج مجد في زمام أعظم ' يلزم المطير بن عبد الله ، وزير عضد الدولة - مع أنه لم يكن حياً - فهو يقصد من وراءه من البويهيين ، يلزمه بمقولته المشهورة لو ادّعى الرضوي ، حين حبسه بأمر من عضد الدولة : ' كم تدل علينا بالعظام النخرة ' (٢) ، حيث يقرر الشريف أنهم الآن عظام نخرة ، إلا أنهم كانوا في حياتهم جبالاً للمعالي . يحق للإنسان أن يفخر بهم لا أن يعير . وكما يفخر الشاعر بالنسابة إلى آل البيت الكرام من جهة أبيه ، فإنه يفخر كذلك بالنسابة إليهم من جهة أمه عندما رثى خاله ، حتى يؤكد لقبه بذي الحسين ، وقد بلغت أبيات الفخر هذه اثنين وعشرين بيتاً . امتدحهم كذلك بأنهم أهل المكارم والعلى . إذ كانوا سادة جامعين لكل خير ، وأهل جود حروا كل القيم السامية من كرم الأخلاق . وعو الهمة ، وغاية التقوى ، ورفض الضيم ، حيث كانوا كالأسراف على أعدائهم ، رافضين للذل والظلم ، في أسيافهم أشار من معارك قديمة ، وأشار إلى أيام العرب ، وإلى فرسان وأبطال مشهورين في القتال (٣) ، وهو بهذا يؤكد جذارة البطل العربي بحمل السيف وخوض عجاج المعارك ، إذ

(١) الديوان ٢ : ٢٩٩-٢٥٠ .

(٢) انظر مقدمة القصيدة التي يمدح فيها والده ، ويذكر محبة مع المطير ، الديوان ١ : ٣٦٢ . ومحمد عبد العلي حسن - الشريف

ابن أبي

(٣) الديوان ١ : ٢١٣-٢١٥ .

يصدر في هذا التوجه عن مشاعر العرب الذين سيطر على دولتهم العنصر الفارسي ، كما يعد من جهة أخرى استثارة للنخوة ، وإثارة لروح الحماسة في نفوس أبناء قومه .

ونرى هذا الفخر والتعني ببطولات الأجداد كذلك عند الرضي ، في قصيدة من القصائد التي رثى بها أقاربه بشكل عام ، وهي القصيدة الرائية ، حيث بلغت أبيات الفخر فيها واحداً وثلاثين بيتاً^(١) ، كما بلغت أبيات الفخر في قصيدته التي رثى فيها أباه نحواً من ثلاثين بيتاً كذلك.

وهكذا نرى الفخر يخلط بالثناء بشكل واضح في قصائد الشريف الرضي التي رثى فيها أقاربه وقد ذكر عبد اللطيف عمران تعليلاً فنياً لهذه الظاهرة فقال : " ولا نجد تعليلاً لظاهرة اختلاط الرثاء بالفخر ، إلا إذا قلنا إن الرثاء ضرب من المديح "^(٢) ، وهذه قضية أثارها نقادنا القدماء ، لكننا إذا سلمنا بها تماماً سلمنا الشاعر حرارة العاطفة وحكمنا على عاطفته بالتكلف ، وهو أمر مخالف للواقع ، فالشاعر يفخر بأجداده وقلبه يحترق حسرة على فقد نموذج السيادة والشرف والوفاء والشجاعة والكرم ، إذ يصور لنا في فخره هذا شعوره الحزين ، فضلاً عن أن عاطفة الشاعر جياشة مؤثرة في قصائد رثائه الاجتماعي جميعاً .

ومن النقاد الذين تحدثوا حول هذه القضية قدامة بن جعفر ، الذي استعمل كلمة المدح فيما بعد بدل الرثاء ، حيث يقول : " وإذ قد تبين فيما قلناه أنفاً أنه لا فضل بين المدح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى ، فأصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجري الأمر على سبيل المدح "^(٣) . وقد جارى ابن رشيّق قدامة في هذا فقال : " وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يُخلط بالثناء شيء يدل على أن المقصود به ميت "^(٤) ، وأكد هذا من المحدثين ، الدكتور

(١) الديوان ١ : ٥٢٩-٥٣٢ .

(٢) عبد اللطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية ٢٠٨ .

(٣) ابن جعفر - نقد الشعر ، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم عفاحي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠ ، ١١٩-١٢٠ .

(٤) القمرواني - العمدة ٢ : ١٤٧ .

عن الدين إسماعيل حيث يقول : "ومن ثم نتوقع أن يكون مدار الرثاء على المعاني التي تبرز في الوقت نفسه في قصيدة المدح ^(١) .

ومهما يكن ، فإن الأمر واضح بينهما ، إذ الرثاء غير المدح ، ودوافع الرثاء من الألم والمشاعر الحزينة ، تختلف عن دوافع المدح التي فيها البهجة والسرور ، وموقف الراثي الشجي الحزين ، يختلف تماماً عن موقف المادح الذي هو موقف فرح وسرور . ومن خلال قول ابن رشيق السابق ، نفهم أن الفرق بين المدح والرثاء في الزمن ، وليس الفرق في العاطفة ، فالرثاء أو جانب التآبين في الرثاء على الأصح - ضرب من المدح ، مع الفرق بينهما ، أن المدح يختص بالأحياء ، أما الرثاء فيختص بالأموات ، بدليل قول ابن رشيق السابق "كان أو عدماً به كيت وكيت" ^(٢) .

ومن الممكن أن نضيف تعليلاً آخر لاختلاف الفخر بالرثاء ، في القصيدة التي رثى فيها أباه ، وهو أن هذه القصيدة جاءت بعد أن فترت علاقة الرضي بأبيه ، حيث جرّه موقفه من القادر بالله إلى خصومة مع والده ، وحالت الخصومة بين قصيدة وأخرى ، وقد الإعجاب بأبيه ، فلم يحظ منه إلا بعدد نزر من القصائد أدى بها واجباً يخاف السلامة إن لم يؤدّه ^(٣) .

أما موقفه من القادر بالله فكان أقرب إلى المعاداة منه إلى الجفوة ، حيث قال الشريف الرضي أبياتاً يعبر فيها عن ولائه للخليفة الفاطمي بمصر ، وينادى الخليفة العباسي في بغداد ، حين بدأ يشعر أنه أخفق في ضموحه للخلافة ، لأن القادر بالله في نهاية القرن الرابع تمكن من توطيد دعائم سلطته ، وذلك حين انشغال بهاء الدولة بالحروب خارج بغداد ^(٤) فقال الشريف الرضي :

^(١) عن الدين إسماعيل - في الشعر العباسي الروية والنس ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ٣٤٢ .

^(٢) القيرواني - المعتمد ٢ : ١٤٧ .

^(٣) عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ، ٥٤ : ١ .

^(٤) السيد محمد عمر العمير ، الشاعر الطموح ، مجلة نواتج ، العدد الخامس ٢٢٤ .

مَا مُقَامِي عَلَى الْهُوَانِ ، وَعِنْدِي
وَأَيَّاءُ مُحَلَّقٌ بِبِي عَنِ الضُّيُ
أَلْبَسُ الدَّلَّ فِي دِيَارِ الْأَعَادِي
مَنْ أَبَوَهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَا
إِنَّ ذَلِكَ الْجَوَّعِزُّ
مَقُولٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِي
مِ كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَحْشِي
وَبِمِصْرَ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوِي
يَ ، إِذَا ضَامِنِي الْبَعِيدُ الْقَصِي
وَأُوَامِي بِذَلِكَ النَّقْمِ رِي^(١)

وحين تسربت هذه الأبيات إلى مسامع القادر بالله ، غضب غضباً شديداً ، وعقد مجلساً جمع فيه والد الشريف وأخاه المرتضى وجمعاً من القضاة والفقهاء والشهود ، وعاتب والد الرضي أمامهم عتاباً شديداً ، وطلب من الحاضرين أن يدونوا محضراً يتضمن الطعن بنسب الخلفاء الفاطميين ، ووقع الجميع عليه ، وطلب الخليفة من والد الرضي أن يوقع الرضي على المحضر فلم يوقع ، وقال لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، لكنه أنكر الشعر وكتب خطه وأقسم أنه ليس بشعره . فغضب والده وحلف ألا يكلمه ، وكذلك المرتضى ، فعلا ذلك تقيّة وخوفاً من القادر وتسكيناً له^(٢) . ولكن المتتبع لديوان الرضي ، يرى أن العلاقة فترت حقاً وبحس بالجفوة ، " فإذا حكمنا تاريخ القصائد ، فسنرى أن الرضي سكت عن أبيه سنة (٣٨٨هـ - ٣٩١هـ) فلم نرد فسي الديوان قصيدة واحدة مؤرخة في هذه المدة ، ومعنى هذا أن الشاعر ترك موافقه بين يدي أبيه بعد عيد الفطر سنة (٣٨١هـ) ، فلم نعد نسمعه ينشده في عيدي الفطر والأضحى^(٣) ، فعمل الشريف حين فجع بموت أبيه ندم على أيام الجفاء تلك ، فانطلق مادحاً مقتخراً بأمجاد أبيه أكثر منه راثياً ، حتى أنه ختم القصيدة ختاماً يناسب قصيدة المدح أكثر من مناسبتها لقصيدة الرثاء ، يقول :

وَمَحْوُكَةٌ كَالدَّرْعِ أَحْكَمَ سَرْدَمَا
صَنَعَ فَأَفْصَحَ فِي الزَّمَانِ الْأَعْجَمِ

(١) الديوان ٢ : ٤٩٣ .

(٢) انظر ابن أبي الحديد - شرح فتح البلاء ١ : ٣٨ ، وابن كثير - البداية والنهاية وفق أصوله وحققه أحمد مطعم وزملاؤه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥ ، ١٢ : ٥ .

(٣) عبد الفتاح الحنو - الشريف الرضي حياته ودراسه شعره ١ : ٤٣ .

عَصَانُهَا زَمَانًا لَا تُطْبَقُ كَقَامِكَا
وَزَفَقَتُهَا لَكَ نِعْمَ بَعْلُ الْأَيْكَمِ^(١)

من كل هذا يتبين لنا كيف كان الرضي يشعر بعظمة الانتماء إلى والده ، وكان يحمل له قدراً كبيراً من التوقير والاحترام ، وقد أثرت في حياته حادثة سجن أبيه وهو طفل دون العاشرة بقليل ، وبعد خروجه من السجن كان الرضي حريصاً على مدحه والافتخار بنسبه في كل مناسبة ، لأن في هذا الفخر ترسيخاً لفخره بنفسه .

أما في الاتجاه الثاني وهو اتجاه التأسى والعزاء ، فإن الشاعر لم يتعمق في الحديث عن الموت بتبني فلسفات معينة ، وإنما تحدث عن الموت بشكل مبسط ، مسترشداً بالأمم والمحسوسة التي يدركها أي إنسان ، كحديثه عن فناء الأمم والملوك ، فهو يؤمن بحتمية الموت ووقوعه على الناس جميعاً ، مستقيماً ذلك من قوله تعالى : ' كل نفس ذائقة الموت ' ، ومن واقع الناس وتاريخ البشر ، فلم يخض في فلسفة الحياة والموت ، ولم يبحث في مسائل البعث والحساب أو الروح في مراثيه ، فقد أبعد الحكمة والمنطق عن هذا الموضوع^(٢) .

ويعزي الشاعر نفسه عن موت عمه مستخرجاً العظة من فناء الدنيا وحتمية الموت ، فالحسرة على الموت وعص الأنامل لا تجدي ، فالموت يذل من دونه هضاب ولو كان في غور من الأرض أو نجد ، ويسلم البطل في ساحة الوغى ، والأسنة حوله تشرب الدماء ، لكن الجميع أتية أجله كما يقول :

نَعُضُّ عَلَى الْمَوْتِ الْأَنَامِلُ حَسْرَةً
وَكُلُّ يَنْفَعُ الْمَكْلُومَ عَصُّ بَنَانِهِم
عَوَارٍ مِنَ الدُّنْيَا يَهْوُونَ فَقْدَهَا
يَنَالُ الرَّدَى مَنْ يُعْرِضُ الْهَضْبُ دُونَهُ
وَيَسْلَمُ مَنْ تَسْقَى الْأَسِنَّةُ حَوْلَهُ
وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي عَنَاءٌ وَلَا يُجْدِي
وَلَوْ مَاتَ مِنْ غَيْظٍ عَلَى الْأَسْرِ الْوَرْدِ
تَيَقَّنَا أَنَّ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ
وَلَوْ كَانَ فِي غُورٍ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ نَجْدٍ
يَأْيِدِي الْكُمَاةَ الْمُعْلَمِينَ عَلَى الْجُرْدِ

(١) الديوان ٢ : ٢٥١ .

(٢) عبد القريب عموام - شعر الشريف الرضي ومبطلاته المكرية ٢٠٤ .

فَمَا ذَاكَ إِنَّ لَمْ يَلْقُ حَتْفًا بِخَالٍ
وَلَا ذَا مِنْ الْحَتْفِ الْمَطْرُ عَلَى بُعْدٍ^(١)

ويعزى الشاعر والده عن وفاة عمه بتقلبات الأيام وتحولاتها ، وأن الدهر لا يبقى على

حال ، يقول :

عَزَاءُكَ ، فَالْأَيَّامُ أَسَدٌ مُدْلِلَةٌ
إِذَا أَوْرَدَتْهُ نَهْلَةً مِنْ نَعِيمِهَا
أَغْرُ إِلَى الْقَبْرِ الْمُنِيرِ مِنَ الْكُفَا
وَأَجْرِي إِلَى الْأَجَالِ مِنْ قُضْبِ الْهِنْدِ^(٢)
تَعَطُّ الْغَيِّ عَطُّ الْمَقَارِيطِ لِلْبُرْدِ
أَعَادَتْهُ حَرَّانُ الصُّلُوعِ مِنَ الْوَرْدِ

وفي رثاء خاله تحدث الشاعر عن الماضين ، فذكر الأمم السابقة من ملوك وغيرهم ، وكيف كينم الموت على ألقائهم ، ليلتئم عزاءه في ذلك ، فذكر الملوك والأعزة من آل ساسان ، وملوك الحيرة من المناذرة المشاهير ، وقد أصابتهم المنية وساقتهم بعصاهما ، وحلت سنايكنها على أطلال عاد وحمير ، كما نزلت قباب المنذر بن محرق ، وحلت بالندية أهل المعالي في مارب ، وقد أصابت الأوس والخزرج ، وقعقت عماد بني الريان ، فقادت الجميع كما تقاد الإبل في البرى ، وطاروا كما يطير جفاء السيل يقول :

أَلَمْ يَأْنِ ، يَا لِلنَّاسِ ، حَبَّةٌ نَاتِمٍ
حَدَّتْ بِعَصَاهَا آلَ سَاسَانَ وَالْكَوْتِ
وَحَلَّتْ عَلَى أَطْلَالِ عَادٍ وَحَمِيرٍ
نَزَلْنَ قِبَابَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ
نَبَا بَنِي الْعَنْقَاءِ نَابِرٍ ، وَقَعَّقَتْ
فَقَادَتَهُمْ قَوْدُ الْإِيَانِقِ فِي الْبُرَى
أَهَبَتْ عَلَيْهِمْ قَاصِفًا مِنْ رِيحِهَا
رَأَى سِيرَةَ الْأَيَّامِ أَوْ جَدًّا لَا عِيبِ
يَذَاهَا بِالْمُنْذِرِينَ الْأَشْهَابِ
سَنَابِكُهَا حَلَّ الْجِيَادِ النَّوَاعِبِ
وَأَنْدِيَّةُ السَّمِّ الطُّوَالِ بِمَارِبِ
عِمَادَ بَنِي الرِّيَّانِ إِحْدَى الشَّوَاعِبِ
وَزَمَّتُهُمْ زَمَّ الْقُرُومِ الْمَصَاعِبِ
فَطَارُوا كَمَا وَلَّى جُفَاءُ الْمَذَائِبِ^(٣)

(١) الديوان ١ : ٤٢٢-٤٢٣ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢٣ .

(٣) الديوان ١ : ٢١١-٢١٢ .

وهذا ضرب من العزاء قديم ، يقول ابن رشيق القيرواني : وكان " من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك والأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتعة في قلل الجبال والأسود الخادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر"^(١).

فقد كانوا يلتصمون العزاء من عالم الإنسان والحيوان ، ومع أن ابن رشيق يشير إلى أن المحدثين من الشعراء مالوا عن هذا الضرب من التعزي بقوله : " فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، ومذهبهم في الرثاء أمثل ، في وقتنا هذا وقبله "^(٢) ، إلا أننا نجد الشريف الرضي يكثر التعزي بعالم الإنسان ، ويندر جدا لديه التعزي بعالم الحيوان ، فالتعزي بالأمم السابقة والملوك والأعزة من العرب ، أمر مشترك بين مرثيته جميعها ، سواء أكانت في الرثاء السياسي أو الرثاء الاجتماعي ، وهذا أكبر دليل على التصاق شعر الشريف الرضي بشعر البداوة وطريقة الأقدمين من جهة ، وهو أثر من آثار الباعث القومي في شعره وتغنيهِ بالبطولات العربية من جهة أخرى ، فالشاعر " مدفوع بالدافع القومي في النظر إلى هؤلاء الأبطال ، ولم يكن يورد أسماءهم وسيرهم من باب التغني بالبطولات فحسب ، بل ليجعلها تعويضا عن الواقع المتردي ، وتأسيا من حالات الخمول واللامبالاة التي يعانيها من أبناء قومه . من هنا يلتقي الشريف الرضي أبطاله من فرسان القبائل العربية وملوكها في الجاهلية والإسلام"^(٣). وسنرى لاحقا كما في هذه القصيدة ، أن أغلب الماضين الذين يتأسى الشاعر بموتهم ، هم أهل الشموخ الذين كانوا قد تسنموا ذروة الجحد العربي ، وفي هذا دلالة كافية على معارضة الشريف الرضي للحكم البويهري ، وميله إلى الخليفة العباسي ، لأنه عربي يلتقي معه في الانتماء إلى الدوحة

(١) القيرواني - العمدة ٢ : ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٥١ .

(٣) انتماء الصفار ، المؤثرات العامة في شعر الشريف الرضي - دراسات في ذكره الألفية ٨١ .

الهاشمية ، رغم تناقضه مع الخلفاء لأكثر من سبب ، ويؤكد انتماءه القومي ، وتغليبته على أي انتماء آخر .

وكان الشريف الرضي كلما أثقلته الهموم تذكر الماضين من أهله وتآلم لفراقهم ، فعل ذلك في قصيدتين^(١) ومقطوعة^(٢) ، فقد سيطرت الهموم على شبابه حين أخذت المنايا أحبته واحداً تلو الآخر .

فَعَدْتُ بِمَدْرَجَةِ النَّائِبَاتِ يُمِرُّ الزَّمَانُ عَلَيَّ الْخُطُوبَا
عَلَى الْهَمِّ أَنْفِقُ شَرْخَ الشُّبَابِ وَأُعْطِي الْمَنَايَا حَبِيبَا^(٣)

بل إنه يتمنى أن ينزح الدموع ، ويذيب الضلوع ، حزناً ولو عة لفراقهم :

بَانُوا فَلَمْ أَنْتَزِحْ عَلَيْهِمْ دَمْعِي وَلَمْ أَسْتَذِبْ ضُلُوعِي
وَأَسْفَحَ الدَّمْعَ لِلْأَعْيَادِ إِنِّي إِذَا فَارَغْتُ الدَّمُوعَ^(٤)

ويلتمس العزاء فلا يستطيعه من شدة الحزن ، وعندها لا بد من البكاء والدموع، رمزا

للوفاء لهؤلاء الميتين يقول :

أَقُولُ عَزَاءَ وَالْجَوَى يَسْتَفِزُهُ
فَلَمَّا أَبَى إِلَّا الْبُكَاءُ رَفَدَتْهُ
وَقُلْتُ لَهُ : رُدِّ الْجُفُونَ عَلَى الْقَذَى
قَسَمْتُ زَفِيرَ الْوَجْدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
وَأَعْيَا الْأَوَاسِي عِيَّ عَظُمَ عَلَيَّ وَقَرُّ
بَعِينِينَ كَانَا لِلدَّمُوعِ عَلَى قَدَرٍ
وَحَلَّ الْجَوَى يَمْرِي مِنَ الدَّمْعِ مَا يَمْرِي
كَوَالِيكَ أَقْرِيهِ اللَّوْاعِجَ أَوْ يَقْصِرِي^(٥)

(١) الديوان ١ : ٢٣١-٢٣٥ ، ٥٢٩-٥٣٣ .

(٢) الديوان ١ : ٦٥٣ .

(٣) الديوان ١ : ٢٣٢ .

(٤) الديوان ١ : ٦٥٣ .

(٥) الديوان ١ : ٥٢٩-٥٣٠ .

وبمن يتأسى وأيدي المنون تخالس فرعه قضيبا قضيبا :

أَلَا إِنَّ قَوْمِي لِيُورِدِ الْحَمَامَ مَضَوْا أُمَمًا ، وَأَجَابُوا الْمَهْيَبَا
بِمَنْ أَسَلَّى وَأَيْدِي الْمُنُونِ تَخَالِسُ فَرْعِي قَضِيْبًا قَضِيْبَا^(١)

وعندها يشعر الرضي أن لا قيمة للمال والحياة بعد فقدان أحبته :

لِمَنْ أَطْلُبُ الْمَالَ مِنْ بَعْدِكُمْ وَأُحْفِي الْحِصَانَ وَأُنْضِي الْجَنْبِيَا^(٢)

فقد كانوا نعم الأهل والعزوة له ، يدعمون ظهره إذا حناه طارق ، يتركونه في حال اليسر ،
ويقتربون منه في حال العسر ؛ وينجدونه إذا أوهنت الليالي عظامه ، حيث يجبرون كسره بأيدي
الندى والطعن ، فهم الذين أنهضوه من عثرته بعد ما قيل لا لعا له ، يقول :

حَوَاقِلُهُ مِثْلُ الصَّقُورِ ، وَفَتِيَّةٌ إِذَا مَا حَنَانِي طَارِقٌ دَعَمُوا ظَهْرِي
تَوَارِكُ لِي فِي حَالِ يُسْرِي فَإِنْ رَأَوْا دُنُوِّي مِنَ الْإِمْلَاقِ جَاءَ بِهِمْ عُسْرِي
إِذَا أَوْهَنْتَ عَظْمِي اللَّيَالِي وَجَدْتُهُمْ بِأَيْدِي النَّدَى وَالطَّعْنِ قَدْ جَبَرُوا كَسْرِي
هُمْ أَنْهَضُونِي بَعْدَ مَا قِيلَ لَا لَعَا وَهُمْ أَغْرَمُوا الْأَيَّامَ لِي مَا جَنَى عَثْرِي
كَفَوْنِي وَمَا اسْتَكْفَيْتُهُمْ مِنْ ضَرَاعَةٍ تَرَاقَدُ أَيْدِي الْأَبْعَدِينَ عَلَى نَصْرِي^(٣)

والشريف بعد هذا دائم الذكر للموت عند رثاء أقاربه ، حيث يشعر أنه ماض على آثارهم ،
" وليس أقسى على الموجود الذي يملك الحرية ، ويحن إلى الأبدية ، وينزع نحو اللانهاية ،
من أن يشعر بأن لحيته حدودا ، وأن الزمان ينشب أظفار الفناء في عنقه ، وأن التتاهي هو
نسيج وجوده" ^(٤) يقول :

(١) الديوان ١ : ٢٣٢ .

(٢) الديوان ١ : ٢٣٣ .

(٣) الديوان ١ : ٥٣٢ .

(٤) زكريا إبراهيم - مشكلة الإنسان ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ٧٥ .

وَمَا بَيْنَنَا إِلَّا قُدَيْمَةٌ السَّفَرِ
لَوْ أَنَّهُمُ الْغَادُونَ بَعْدِي عَلَى إِثْرِي
مَنْ الْوَجْدُ يُورِي بَيْنَ أَقْبَرِهِمْ قَبْرِي^(١)

بَقِيْتُ مَعْنَى بِالْبَقَاءِ خِلَافَهُمْ
وَأَعْدُوا عَلَى أَثَرِهِمْ وَوَدَّادَتْنِي
وَفِي الْحَيِّ بَيْنِي خَالِفًا ، وَكَانَتْنِي

وقوله :

لَنْ سَبِيلِي ، وَأَنْتَ مُلَاقٍ شُعُوبًا
بِغَيْرِي ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُجِيبَا
شَعْبَنْ قَبَائِلُنَا وَ الشُّعُوبَا^(٢)

كَانَتْنِي لَمْ أَدْرِ أَنَّ السَّبِيلَ
تَصَامَمْتُ عَنْ مُتَقَاتِ الْمُنُونِ
وَأَعْلَمُ أَنَّي مُلَاقِي النَّبِيِّ

ومن هنا خلت أشعار الرضي من المجون والحديث عن مجالس اللهو والأنس شأن شعراء

عصره ، كما شغلته الأحزان عن قول الغزل والنسيب ، حيث يقول :

لَقَدْ شَغَلَتْنِي الْمَرَاثِي لَكُمْ
بِوَجْدِي عَنْ أَنْ أَقُولَ النَّسِيبَا^(٣)

ورب قائل يقول : إن قصائد الغزل والنسيب في شعر الرضي مشهورة كثيرة ، وهي ما
اصطلح على تسميتها بالحجازيات . فإنتني لا أبالغ إذا قلت : إن محبوبته في كل هذه القصائد ،
هي رمز للخلافة العربية الإسلامية ، التي يشعر أنه أولى الناس بها ، والدليل على ذلك ، أن
محبوبته في هذه القصائد ، هي بدوية تقيم في طريق الحج ، طريق العفة والطهارة ، وذكرها
كثيراً في أحب الأيام إلى الله تعالى ، أيام الحج الأكبر ، في منى وعرفة . وقد أصر على تأكيد
عفافه في هذه القصائد " حتى غدا التصريح بالعفاف هاجساً يستغرق مقاطع كاملة من قصائده
أحياناً ، ويتمخض الأمر بعد ذلك عن اقتصاد في رموز أسماء المرأة في ديوانه ، فلا يكاد
يتكرر غير اسمين أو ثلاثة ، وإن كان اسم ظمياء هو المحبب إليه " ^(٤) ، وفي هذا الاسم دلالة
على تعطشه للخلافة ونيل حقه المفقود .

(١) الديوان ١ : ٥٣٢-٥٣٣ .

(٢) الديوان ١ : ٢٣١-٢٣٢ .

(٣) الديوان ١ : ٢٣٥ .

(٤) محمود عبد الله الجادر ، الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي - دراسات في ذكره الألفية ١٢٨ .

وإذا رأينا الشاعر يبدأ قصيدته التي رثى بها عشيرته وأقاربه^(١) بالغزل ، مع أن ذلك لا يتفق والرثاء ، لأن الرثاء مادته البكاء والآنم والأثمن والأثمين ، بعكس الغزل الذي يعني الفراغ والبعد عن الهموم ، ولهذا قال ابن رشيقي القيرواني : ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء شيئاً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء^(٢) ، فإن الشريف الرضي تغزل في هذه القصيدة لأننا أمام موقف طلي ، أكثر من كونه قصيدة رثاء ، فالشاعر يقف على أطلال أقاربه ، ويبكي لفراقهم كما يقول :

أَفِي كُرٍّ يَوْمٍ أَنْتَ مَاتَرِحٌ عَبْرَةٌ عَلَى طَرِّ بِأَوَّلِهِ ، أَوْ مَنَزَلٍ قَفَرٍ^(٣)

فقد دأب الشعراء على بدء قصائدهم بوصف تلك الأطلال من خلال صلتها بالمحبوبة التي يحملون لها أعمق المشاعر ، ويألمون لفراقها ، فالأطلال عند الشعراء الأقدمين ، هي صورة للموت ، حيث يصف الشاعر الديار في لحظة ماضية ، فهو موقف موت يكشف عن مدى اليأس والحنوط الذي استبَدَّ بالشاعر من هذه المنازل ، مما ينبعث على البكاء .

٢- رثاء الأصدقاء :

قصائد الشريف الرضي في رثاء الأصدقاء كثيرة ، كثرة علاقته الاجتماعية والسياسية ، وبسبب موقعه الديني وحاجته إلى الأعوان والأنصار الذين يعينونه في ثورته لتحقيق ضموحه في الخلافة. وما أكثر ما يشير الرضي إلى هؤلاء الأعوان والأنصار في قصائد رثائه حين يذكر الفتيان المائمين ، ويأنه لو كان يملك مقاتلة الموت إذا لدفعه بهؤلاء الفتية والأنصار ، الذين لديهم استعداد أكيد للتضحية من أجله . فكان بحاجة ماسة إلى أصدقاء يتمكنون من الجاه والسطوة ما يعينه على تحقيق مآربه ، كما أنه قد رثى أصدقاء من غير ذوي الجاه والسلطان ، بل هم من المغمورين النكرات ، وتَجَعَّ لموتهم جميعاً ، حيث نقل لنا شعره الرثائي جانباً منيراً

(١) الديوان : ١ : ٥٢٩ .

(٢) القيرواني - المعنى : ٢ : ١٥١ .

(٣) الديوان : ١ : ٥٢٩ .

من حياة المجتمع العباسي تمثل في علاقات الرضي بأصدقائه الخلفاء ، رجال الفكر والسلطة وغيرهم .

فقد كان الشريف يملك أصدقاء من الكتاب والوزراء ورجال السياسة كما أن هناك ثلة وفية من الأصدقاء كانت تجمعهم بهم روابط الصداقة حسب ، وبعضهم كان من الكتاب والوزراء مثل^(١) أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكار ، كاتب الإنشاء لعضد الدولة^(٢) ، وأبي علي الحسن بن حمد بن أبي الريان الوزير^(٣) ، وأبي الحسن أحمد بن علي البتي كاتب القادر بالله^(٤) ، وأبي منصور أحمد بن عبيد الله بن المزربان الشيرازي الكاتب^(٥) ، وأبي إسحاق الصابي . وسنتحدث عنهم هنا في هذا الفصل ، فقد كانوا أصدقاء خلصاً للشريف ، ويبدو أن لحمة الأدب كانت تجمع بينهم أكثر مما تجمعهم ساحات السياسة وصراع المناصب^(٦) ، حيث كان يأنس إلى مجالساتهم ، ويسر بلقائهم ، وقد تحدث عن فصاحتهم وبلاغتهم عند رثائهم وأسف لذهابها بموتهم .

ويشير الشريف إلى هذه المجالس الأدبية الرائعة في رثائه لأبي منصور الشيرازي ، فهي مجالس تفيض فيها لطائف الأدب عن أثر يعجب أو خبر يسر ، لإيناس القلوب والترويح عنها ، يقول :

كَمْ مُجَلِّسٍ صَبَّحَتْهُ السُّدُنَا تَقْضُ فِيهِ لَطَائِمُ الْأَدَبِ

(١) انظر عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي ١ : ٢٢٩-٢٣٤ .

(٢) يكنى أبا القاسم ، كان كاتب الإنشاء لعضد الدولة ثم وزير لآبيه بهاء الدولة خمسة أشهر ، وكان يقول الشعر ومن المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة وجميع أدوات الشعر ، توفي سنة (٣٨٨هـ) ، الشعالي - نديم الدهر ٢ : ٣٦٩ ، وابن كثير - البداية والنهاية ١١ : ٣٤٧ ، وابن الأثير - الكامل ٧ : ٤٩٨ .

(٣) نظر في الوزارة بواسطة سنة (٣٨٨هـ) وتوفي سنة (٤٢٨هـ) ، ابن الأثير - الكامل ٧ : ٣٤٧ .

(٤) كان حافظاً للقرآن تالياً له ، ملحق المذاكرة بالأخبار والآداب ، عجب السادة ، طريف المزاج ، وكان صاحب الخبر والبريد في الديوان القادري ت (٤٠٣هـ) وله تصانيف منها كتاب القادري وكتاب العميادي . حموي - معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ١ : ٣٧٣-٣٧٤ .

(٥) توفي سنة (٣٨٣هـ) وقد عدده الشعالي أحد بلغاء العصر الثلاثة وهم أبو إسحاق الصابي ، وأصحاب بن عباد ، وأبو منصور الموزاني ، نديم الدهر ٣ : ١٦٩ ، ولم يورد الشعالي ترجمة له .

(٦) عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ١ : ٢٢٥ .

مِنْ أَثَرِ بُونِيقُ الْفَتَى حَسَنٍ
أَوْ غَرَضٍ أَصْبَحَتْ خَوَاطِرُنَا
كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ رَوْقَتَهُ صَبَا أَلْـ
أَوْ خَيْرٌ يَسُوطُ الْمَنَى عَجَبٍ
تُسَاقِطُ الدَّرُّ مِنْهُ فِي الْكُتُبِ
فَجَرٍ ، أَوْ الظُّلُمِ زَيْنٌ بِالشَّنَبِ^(١)

ويأسف على قوة بلاغة خطبه ، حيث غاض غدير الكلام وقرت شقائق الخطب ، حين هوى

علم المجد ، وصمت مقول الدهر ، الذي كان أمضى من السيوف ، يقول :

غَاضَ غَدِيرَ الْكَلَامِ مَا بَقِيَ أَلْـ
يَا عِلْمُ الْمَجْدِ لِمَ هَوَيْتَ وَقَدْ
يَا مَقُولَ الدَّهْرِ لِمَ صَمَتَ وَقَدْ
دَمَّرُ وَقَرَّتْ شَقَائِقُ الْخُطْبِ
كُنْتُ أَمِينُ الْعِمَارِ وَالطُّنْبِ
كُنْتُ زَمَانًا أَمْضَى مِنَ الْقُضْبِ^(٢)

أما صديقه الصابي ، فإن قلمه البليغ يحز في قلوب الأعداء كالسيف ، ويستزل الرماح ، ويرد

الجنود ، ويسترد موارق القلوب بالترهيب ، ويصير الصحائف كأنها مملوءة بالأفاعي الخبيثة

الكامنة ، ويحيلها للعدو وهي حمر قانية ، كتبت بالدم لا بالمداد ، تلك هي الصور الشعرية التي

رسمها الشاعر لبلاغة الصابي^(٣) ، من خلال تكرار الاستفهام في قوله :

مَنْ لِلْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ إِنْ هَمَى
مَنْ لِلْمُلُوكِ يَحْزُ فِي أَعْدَائِهَا
مَنْ لِلْجَحَافِلِ يَسْتَزِلُّ رِمَاحَهَا
مَنْ لِلْمَوَارِقِ يَسْتَرِدُّ قُلُوبَهَا
وَصَحَائِفٍ فِيهَا الْأَرَاقِمُ كُـمِّنَ
حُمُرٍ عَلَى نَظَرِ الْعَدُوِّ كَانَمَا
ذَاكَ الْغَمَامُ ، وَعَبَّ ذَاكَ الْوَادِي
بِظُبَى مِنْ الْقَوْلِ الْبَلِيغِ حِدَادٍ
وَيَرْدُ رَعْلَتَهَا بِغَيْرِ جِلَادٍ
بِرَّ لَا زِلَّ الْإِبْرَاقِ وَالْإِرْعَادِ
مَرْهُوبَةً الْإِصْدَارِ وَالْإِيزَادِ
بِكَمْ يَخْطُ بِهِنَّ لَا بِمِدَادٍ^(٤)

فإن مات الصابي ، فإن مجده المصون ، وبلاغته العظيمة ، باقية بعده :

إِنْ تَمَضَّ فَالْمَجْدُ الْمَرْجَبُ خَالِدٌ
مَشْهُودَةٌ تَدْمَى بِغَيْرِ مَضَارِبٍ
يُقْبَلُنُ كَالْجَيْشِ الْمُغِيرِ يَوْمُهُ
أَوْ تَفَنُ ، فَالْكَلِمُ الْعِظَامُ بِوَأَقٍ
كَالسَّيْفِ أُطْلِقَ فِي طُلَى الْأَعْنَاقِ
كَمْشُ الْإِزَارِ مُقْلَصٌ عَنْ سَاقٍ^(٥)

(١) الديوان ١ : ٢١٨ .

(٢) الديوان ١ : ٢١٨ .

(٣) وانظر ركي مارك ، عمقيرة الشريف الرضي ١ : ٦١ .

(٤) الديوان ١ : ٤٢٦-٤٢٧ .

(٥) الديوان ٢ : ٦٨ .

فهو الخاضب الأعلام ، إذ نال بها علا تقاصر عنه الخاضبون العوالي :

هُوَ الْخَاضِبُ الْأَقْلَامُ نَالَ بِهَا عُلَا تَقَاصَرَ عَنْهُ الْخَاضِبُونَ الْعَوَالِيَا
مُعِيدُ ضِرَابِ اللِّسَانِ لَوْ أَنَّهُ بِيَوْمٍ وَغَى فَلَّ الْجُرَازِ الْيَمَانِيَا^(١)

وقد نص الشريف على بلاغة أبي القاسم بن يوسف الحكار وفصاحته وهو يرثيه ، فقد كان هذا المرثي ذا بيان يشرق به خصمه عيا ، إذ طوعت له الفصاحة عنقها ، ويفصل الشاعر في هذه الصفة ، حيث استطاع بإبداعه أن يثبت في نفوسنا أن المرثي كان شجاعاً دون أن يكون فارساً ، وذلك من خلال الموازنة بين القتال والإقدام في الحرب ، وبين الإبانة والبلاغة والفصاحة ، لأن " أكثر من وصفهم بالبلاغة كانوا من رجال السيف ، أما عبد العزيز بن يوسف ، فلم يكن له من أدوات القتال غير القلم واللسان ، وقد وصف كلماته بأنها تفعل ما لا تفعله مشرعات الرماح ، وأنها تردّ الخيل المغيرة وعليها أقطاب الدارعين "^(٢) . وقد وجد الشاعر صفة الكيد^(٣) مناسبة في هذا المقام فوصف صديقه بها ، حيث يدرك الشريف أن القلم واللسان يعلان ما لا تفعله السيوف والرماح ، مصداقاً لقوله - صلى الله عليه وسلم - :
"الحرب خدعة"^(٤) يقول :

كَيْدٌ كَمَارِقَةِ النَّصَالِ وَدُونَهُ بَشْرٌ كَبَارِقَةِ النَّصُولِ اللَّمَعِ^(٥)

ورثاء الأصدقاء مميز عند الشريف الرضي إذا ما قورن بشاعر من الأقدمين ، فالشعراء الأقدمون كانوا يعيشون في البوادي ، حيث القبيلة هي المحور الأساس في المجتمع ، والفرد يتحرك مع قبيلته التي تنتقل كثيراً طلباً للكلأ والماء ، ولم تكن الألفة بين القبائل قائمة ، فخلت مراثيهم من رثاء الأصدقاء إلا ما ندر . ولكن مثل هذا الرثاء قد وجد في العصر الأموي

(١) الديوان ٢ : ٤٩٧ .

(٢) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي ١ : ٦٨ .

(٣) انظر المرجع نفسه ١ : ٦٨ .

(٤) ابن حجر - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، حقق عدة أجزاء منها عبد العزيز بن باز ورقمها محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة

العصرية ، بيروت ، ٢٠٠١ ، ٦ : ٣٦٣٥ .

(٥) الديوان ١ : ٦٣٨ ، وانظر الأبيات في القصيدة نفسها (٢٢-٣٦) .

والعباسي ، حيث تطورت أحوال الناس وعاش الشعراء في الحضر عيشة ترف ونعيم منبت فيها أواصر القربى ونشأت الصداقات ، فظهر هناك عدد من الشعراء رثوا أصدقاءهم بمقطوعات على الأغلب ، أما ما نلاحظه في مرثي الشريف الرضي لأصدقائه فإنها في معظمها قصائد طويلة لا مقطوعات ، تشهد على مدى تغلغل الحزن في أصدقائه ، ومدى تجاوبه مع المنكوبين في تعزيته لهم ، فقد كان شديد العبرة ، كثير التعاطف مع المنكوبين ، وكان من أكثر الناس بكاء على أصدقائه . - على ما هو عليه من شجاعة وبسالة ويقين - ولعل كثرة بكائه تعود إلى العلاقة بين الزهد والبكاء ، وتمت هذه العلاقة في حياة الشريف الرضي إلى أبهى الزهاد المعروفين بكثرة البكاء ، وبخاصة زين العابدين بن الحسين ، والبقر بن زين العابدين ، وسواهما^(١) .

ولهذا نحس في رثاء الأصدقاء أحيانا الإسراف في المبالغة نتيجة العاطفة الجياشة ، فيسرف الشريف في إظهار الجزع على صديقه ، ويسرف في إظهار مكانته في نفسه . قال في رثاء أحد أصدقائه حيث يشكو قصور الذم لنفد صديقه ، لأن الذم الذي سكب لم يكن من الكفاية ليشفي غليله ، وهي صورة تؤكد شدة جزع الشاعر ولو عته ووفائه لصديقه :

أَلُوِّي حَيَارِيْمِي عَلَيْكَ تَحَرَّقَا وَأَشْكُو قُصُورَ الذَّمِّ عَلَيْكَ وَمَا رُقَا
فِيَا شَمْرُ لُبِّي لَا تَزَالُ مَبْدُومًا وَيَا جَفْنُ عَيْنِي لَا تَزَالُ مُؤَرَّقَا
فَقَدْ كُنْتُ أَسْتَقِي الدُّمُوعَ لِمَرْثِيَا وَمَا جَدَّ دَمْعُ الْعَيْنِ إِلَّا لِيَهْرَقَا^(٢)

وفي قصيدة أخرى يخاطب المرثي بأنه ثاني نفسه ، وثالث عينيه عزرا يقول :

يَا ثَانِيًا لِلنَّفْسِ بَلْ يَا ثَالِثَ الْعَيْنَيْنِ عِزًّا^(٣)

وقال في رثاء صديقه أبي منصور المرزبان الشيرازي الكاتب حيث يشير إلى عمق العلاقة بينهما :

(١) انظر عزيز حماد - الاعتزاز في حياة وشعر الشريف الرضي ، دار الأساطير ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٤٤ .

(٢) الديوان ٢ : ٦٤ .

(٣) الديوان ١ : ٥٦٣ .

أَحْمَدُ ، كَمْ لِي عَلَيْكَ مِنْ كَمَدٍ بَقَرٌ ، وَمِنْ جَوْدٍ أَدْمَعٍ سَرِيرٍ
وَلَوْ عَفَى تَحْطِمْ الضُّلُوعَ إِذَا ذَكَرْتُ قُرْبَ الْفَقَاءِ عَنْ كُتُبِ
كَنتَ قَرِيبِي وَلَسْتُ مِنْ لَكَرِي كُنتَ نَسِيبِي وَلَسْتُ مِنْ نَكْرِي^(١)

فالأصدقاء عند الرضي بمنزلة الأشقاء ، إذ يخاطبهم بأنهم أبناء أبيه :

بني أبي قد نكي فيكم بشكته وقال ما شاء هذا الأراحم الجذع^(٢)

فيرو دائم الذكر لهم ، وغلبه عليهم يحرق فؤاده ، ولا يملك لهم إلا البكاء :

أَبْكِيهِمْ وَيَسْأَلُ الْأَكْبَامَ دَائِيَةً تَكُوفُ لِي فَضْلَةُ الْكَاسِ الَّتِي جَرَعُوا
نَكْدَهُ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ أَكْبَادِنَا شُعْلُ مِنْ الْغُلْبِ وَمِنْ أَمَقْنَا دُفْعُ^(٣)

فالشاعر حريص على ذكر علاقته بالمتوفى وحيه له ، لذا يتمنى أن يكون فداءه لو

يستطيع ، كما يقول في رثاء صديقه المظفر أبي الحسن بن محمد :

رَخَّيْ وَتَرَبُّبُ أَبِي تَقْدُ سُلْبَتُهُ مِنِّْي التَّوَائِبُ أَنْفَسُ أَنْخَرِ
قَدْ كَانَ مِنْ عُنْدِي إِذَا طَرَقَتْ بَزْلَاءُ ضِدْقٍ بِهَا حِمَى الصَّدْرِ
لَوْ أَنَّ مَا أَنْحَى عَلَيْكَ يَكُنْ رَاعَتَكَ بِالْإِتْبَاضِ عَنْ عَقْرِ
لَوْ قَفْتُ بَيْنَكُمْ رَأْيُكُمْ سَهْمِيَا عَنْ نَحْرِكَ الْبَادِي إِلَى نَحْرِي
وَلَوْ أَنَّهُ سَمَرَاءُ مُشْرَعَاةٌ أَعْصَيْتُ حَدَّ سِنَانِيَا صَكْرِي
وَسَمَحْتُ دُونَكَ بِالْحَيَاةِ عَلَى ضَنْيَ بَيْتَا، وَكَرَائِمِ الْوَفْرِ^(٤)

ولا غرابة أن تكون مراثي الأصدقاء عند الشريف الرضي بتلك الدرجة من الصدق

والانفعال ، فالصديق هو كاتم سر صديقه وحافظ غيبته ، وراع لمصالحه ، لذا فقد أبان كثير من

هذه المراثي عن المشاركة الوجدانية بين الراثي والمرثي ، والشريف مشهور بالشعر الوجداني ،

حتى فضله الأستاذ عبد الرحمن شكري ، على ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي والمعري في هذه

الناحية ، فبين أننا لا نستطيع أن نضع الشريف في صف المتنبي تفكيراً في النفس والحياة ، ولا

مع ابن الرومي تحليلاً للمعنى والنقضي فيه ، ولا مع أبي تمام في قلباته النادرة في انتقاء

(١) الديوان : ١ : ٢١٨ .

(٢) الديوان : ١ : ٦٤٩ .

(٣) الديوان : ١ : ٦٥٠ - ٦٥١ .

(٤) الديوان : ١ : ٥٢٩ .

الأبيات الأخذة بمجامع القلوب ، إلا أنه يحوز النصيب الأكبر من كل ميزاتهم المذكورة ، وقد برزهم جميعاً في الشعر الوجداني^(١) . وصدق التجربة في شعر الرثاء من أهم الخصائص التي يجدر تفحصها وتبينها ، لأنه " لا بد أن يتوافر في التجربة الشعرية صدق الوجدان ، فيعبر الشاعر فيها عما يجده في نفسه ويؤمن به " ^(٢) . ومن قصائده الوجدانية ، قصيدة في رثاء صديق لم يذكر اسمه ، توفي سنة (٣٨١ هـ) ، ولعلها من أكثر قصائده وجداناً^(٣) . وهي في سبعة وعشرين بيتاً مطلعها :

صَبِرْتُ عَنْكَ فَمَنْ أَخْطَكَ مِنْ شَبَعٍ لَكِنْ أَرَى الصَّبْرَ أَوْهَى بِي مِنَ الْجَزَعِ^(٤)

على هذه الشكوة من الرثاء الحار النابع من القلب ، يحلق فيه الشاعر في عالم الرقة والحنان والحصرة والألم رائياً صديقه ، إذ يشجع الشاعر قلبه على الصبر والتجمل حتى لا تذلل عنقه مع أنه محزون ، ويميل عن الدمع مع أنه غزير ، فما غاض دمه إلا بعد أن انحدر قليلاً وكثيراً ، وقد تحلبه من أفوايق عينيه .

وبعد مشاعر الحزن هذه التي تفيض بسلاسة في هذه القصيدة النابضة بالأسف ، يمدح الشاعر صديقه ويصفه بطهارة الذيل والبعد عن الطمع ، وأنه عفيف ورع فاضل . ثم يعود فيصور ببراعة حزنه الشديد وحسرتة إذا تذكر صديقه وجميع أحبائه ، إذ إن قلبه يواصل الحزن كلما فجع بحبيب .

وفي نهاية القصيدة يستسقي لقبر صديقه الغمام المحمّل بالمضر ، لا الجهام الذي لا مطر فيه ، ليستقي هذا الحدث الذي ليس فيه متسع ، ولا أمل في رجعة من يدخله ، وهذا هو عزاءنا ، إذ الموت مشترك فينا ، وأما لمن مضى تتبع كما يقول :

^(١) انظر عبد الرحمن شكري - دراسات في الشعر العربي : (مجموعة نصوص نشرت بالرواية والثقافة والمقطعات والخلال وغيرها) . جمعها

وحققها محمد رجب البيومي ، انتشارا نصرة النابية ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ٤١ .

^(٢) محمد عيسى هلال - القيد الأدبي الحديث ، دار فنية مصر ، الفحالة ، القاهرة : ١٩٧٣ ، ٣٨٨ .

^(٣) انظر عبد الرحمن شكري - دراسات في الشعر العربي ، ٤٦ .

^(٤) الديوان ١ : ٦٥١ .

لَمْ نَقْرَأْ وَجَدِ لَسْتُ أُنْكَبُهَا
يُؤَاصِلُ الْحُزْنَ قَبِي كُلَّمَا فُجِعَتْ
أَلْقَى الْغَمَامُ حَوَايَاهُ عَلَى جَدَّتْ
فِي حَيْثُ لَا صَمْعَ يَوْمًا لِي صَمْعَ
وَكُونَ الْوَجْدُ أَنْ الْمَوْتَ مُشْرَكَ
رَهَى التَّأْيِلَ إِلَى الْأَجَالِ نَطْلُعُهَا

إِذَا تَذَكَّرْتُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ مَعْنَى
بِذِي بِحَبْلِ مِنَ الْأَقْرَانِ مُنْقَطِعِ
نَزَلْتُ فِيهِ بِمَنْقَى غَيْرِ مُتَّبِعِ
فِي أَنْ يَعُودَ وَلَا رُجْعَى زَمْرَتِجِ
فِينَا ، وَأَنَذَا الْمَاضِي مِنَ التَّبَعِ
فَمِنْ حَيْثُ وَمِنْ رَاقٍ عَلَى ظُلْعِ^(١)

ثم رثاه بمقطوعة أخرى حين تذكره تقع في أحد عشر بيتًا جاءت وجدانية مؤثرة كذلك يقول :

تَذَكَّرْتُ لَمَّا طَبَقَ الْأَفَقُ عَارِضُ
وَأَنْتَ مَقِيمٌ حَيْثُ لَا الْبَرْقُ يَجْنَى
غَرِيبٌ عَنِ الْأَوْصَانِ لَا نَكَ هَبَّةُ
خَلَا مِنْكَ رُبْعٌ قَدْ تَبَايَلَتْ بَعْدَهُ
وَعَاوَدَ قَبِي الذِّكْرُ إِذْ نَحْنُ حَيْرَةٌ
وَإِذْ عَيْنُ الرُّقْرَاقِ يُسْبِغُ خَفْضَهُ
إِلَى أَنْ مَشَى بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الرَّدَى
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ صَاحِبُ اسْتَجِدَّةُ
إِذَا قُلْتُ يَخْطُوهُ الْحِمَامُ هَوَتْ بِهِ
سَاحِلٌ عَلَى تَكِ الْقُبُورِ وَجَادَهَا
فَلَا تَغِصُّونَا إِذْ أَقْمَنَا وَأَنْتُمْ

وَأَعْرَضَ بَرْقٌ كَالضَّرَامِ مُسَوِّعُ
بَعِينٌ وَلَا رُوحُ السَّيْمِ يَصُوعُ
إِنِّي ، وَلَا بَعْدَ الْمَضِيِّ رُجُوعُ
رُبُوعٌ بَنَى مَا مَثَلِينَ رُبُوعُ
زَمَانٌ وَإِذْ شَمُّ الْجَمِيعِ جَمِيعُ
عَلَيْنَا ، وَإِذْ طِيرُ النَّعِيمِ وَقُوعُ
وَقَطَعَ أَقْرَانِ الصَّفَاءِ قَطُوعُ
وَيَنْزِعُهُ مِنْ رَاحَتِي نَزُوعُ
نُيُوبٌ رَدَّى فِيهَا السَّمَاءُ لِقِيعُ
بَرْوَى وَأَسْنَى مَا يَجُودُ رُبِيعُ
عَلَى ظُعْنٍ ، إِنَّ الْلِقَاءَ سَرِيعُ^(٢)

هذه القصيدة ذات وحدة نفسية ، بركة الصراحة في الخطاب ، حيث يقول : إني تذكرتك

حين طَبَقَ الأفق عارض من السحاب ، ونمع برقه ، والذي أذكرني إياك هو حزني وأسفي على
أنك في مكان لا يصله البرق ولا يدخله السيم ، غريب لا تستطيع الرجوع . ثم يذكر الشاعر ما
كان بينه وبين المرثي من ذكريات ، مما يزيد في إبراز مدى الأسى الذي لحق به ، وذلك من
خلال المفارقة بين تلك الأيام الضيئة وبين ما هو عليه الآن ، وقد اختزمه الموت وترك الشاعر
دوناه ، وقد أبدع الشاعر في البيت الأخير حيث تصوّر أن صديقه يغطه على الحياة ، فهو من

^(١) السيل ١ : ٦٥٢ .

^(٢) السيل ١ : ٦٥٣ .

ناحية يخفون على صديقه حاله الذي هو فيه ، ومن ناحية أخرى يبين له احساسه بالموت بعد فقدده وأن اللقاء به قريب .

وثمة ظاهرتان واضحتان في رثاء الشريف الرضي لأصدقائه ، وهما : الوفاء ، ورثاء النفس بأسلوب غير صريح إضافة إلى تعزيزتهم والتأسي بموتهم .

أ_ الوفاء :

لا نتحدث هنا عن وفاء الشريف لأنصاره وأعوانه من أصدقائه أمراء القبائل ، وذوي الجاه والسلطان للوصول إلى طموحه ، والذين كان يفترض في نفسه أن يبقى وفياً لهم ، وهذا ما سنرجى الحديث عنه إلى الفصل الثاني ، عند حديثنا عن الرثاء السياسي . إنما نتحدث عن علاقات الصداقة التي تبلورت في إطار ظرفه الاجتماعي ، لتبين وفاءه لأصدقائه الذين لم يكن يرجو في حياتهم شيئاً سوى المواساة والعون في أيام الشدة . فهم أصدقاء أصفاء ، يشاقق لهم ويشناقون إليه ، حتى وسعت بكائيته " الاصدقاء المعروفين والمجهولين ، والأحبة المفقودين ، والناس المحزونين ، لأنه في ذلك كان يجد طبيعته البكائية " (١) . فلم يكن غريباً أن يقول الرضي قصيدة في الرثاء حين طلب منه أحد الناس إنشاء أبيات على لسانه ليرثي بها حميماً له ، فصنع قصيدة ليس فيها أدنى تكلف ، بل دلت على سمو نفسه بالتفجع ، وتحررها من كل غلظة وقساوة ، لأنه تخيل أحبابه وأصدقاءه وهو يرثي هذا الرجل ، إذ يجد في شعر الرثاء متنفساً لأحزانه ، ووفاء لمن فقدهم من أصدقائه وتحسراً على فقدهم ، فصدر في هذه القصيدة عن مشاركة وجدانية حقيقية . يقول :

يَزِيلُ بِهَا السَّكَّ الْمُرِيبَ يَقِينُ	أَلَا مُخْبِرٌ ، فِيمَا يَقُولُ ، جَلِيلٌ
وَمَنْ نَزَلَ الْغَبْرَاءَ كَيْفَ يَكُونُ	أَسْأَلُهُ عَنْ غَائِبٍ كَيْفَ حَالُهُ
أَرِقُّ عَلَى صُرَائِهِ وَالْبَيْنُ	وَمَا كُنْتُ أَخْشَى مِنْ زَمَانِي أَنْتَبِي
فَأَعْقَبَ مِنْ بَعْدِ الرَّيْنِ أَنْيْنُ	إِلَى أَنْ رَمَانِي بِالنِّيِّ لَا شَوَى لَهَا

(١) تحرير حسام - الاعتراف في حياة وشعر الشريف الرضي ٤٤ .

وَإِنْ أَحَقَّ الْمُجْهِشِينَ بُعْبُرَةً وَوَجَّرَ ، قَرِينَ بَانَ عَنْهُ قَرِينَ^(١)

فالشاعر حين قال هذه الأبيات كان قد مر بخبرة تملك وجدانه ، ألا وهي موت أحبابه وخلائه ، فأخذ يتأمل بعمق ماذا يعني موت الحبيب والصديق ، خاصة وأن ذات الشاعر لا تزال تتأمل وتحزن ، فهو يشاهد موته من خلال موت الآخرين من أحبابه . ويصرح أنه لم يجد لهذا الموت دفعا عنيم ، وهذا يعني أنه لن يملك دفعه عن نفسه ، ولن يجد من يدفعه عنه ، فيذكر هذا الموت مع كل نازلة أو كلما مر بقبور أحبابه ، فيتملكه الحزن ، وتتيمر منه الدموع كما يقول:

أَمْرٌ بِخَيْرٍ فَكَذَاكَ صَعِيدُهُ فَتَبِيرُ حَتَّى مَا أَكْدُ أَيْسُنُ
وَتَقْضُ بِالْوَجَرِ الْإِيْمَ أَضْلَعُ وَتَرْفُضُ بِالسُّمْعِ الْغَزِيرِ شُؤُونُ
وَلَا عَجَبٌ أَنْ تُمْطِرَ الْعَيْنُ فَوْقَهُ فَإِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ فِيهِ دَفِينُ^(٢)

قال الدكتور زكي مبارك معلقاً على هذه القصيدة : "ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب ، والسجى يبعث الشجى ، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك ، أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول : (...) ، ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستأجرة ، وهل كانت النائحة المستأجرة تعني حقاً من دعيت للبكاء عليه ؟ ، إنها تبكي ودائعها في التراب ، فهي نائحة تكلى ، مفطورة الفؤاد"^(٣) . وهذا هو السر في تسمية صاحبنا " النائحة التكلى "^(٤) .

(١) الديوان ٢ : ٤٥١-٤٥٢ .

(٢) الديوان ٢ : ٤٥٢ .

(٣) زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي ٢ : ٧٢-٧٣ .

(٤) الصندي ، التواقي بالوفيات ٢ : ٣٧٤ .

ومن جوانب الوفاء عند الشريف الرضي ، رثاؤه المغمورين من أصدقائه^(١) ، حيث وردت قصائد في رثاء الأصدقاء ، ولم يذكر الشريف أسماءهم في الديوان ، لأنهم غير معروفين ، إذ لا حاجة به لذكر أسمائهم ، مع أنه قد جزع وتأسف لموتهم ، وفي هذا يقول الدكتور زكي مبارك : " فالشريف يجسم معاني الأخوة وهو يبكي أصدقاء المجهولين ، وهو أيضاً يشرع للناس مذاهب الوفاء "^(٢) . فيرى أن أحد أصدقائه كالقطعة من جسده ، فإن لم يكن جسده أصيب فقد دفنه عضوا عضواً :

إِلَّا يَكُنْ جَسَدِي أُصِيبَ فَإِنِّي فَرَّقْتَهُ فِدْفَنْتَهُ أَعْضَاءُ^(٣)

فبكاه على من مات من أصدقائه هو بكاء على نفسه لأنه لاحقه ، وقد أصبح يرى شدة سواد الليل حداداً على صديقه ، يقول :

وَيَجْرِي عَلَى مَنْ مَاتَ دَمْعِي وَمَا لَهُ بَكَيتُ ، وَلَكِنِّي بَكَيتُ عَلَى نَفْسِي
كَأَنَّ حِدَادَ اللَّيْلِ زَادَ سَوَادَهُ عَلَيْكَ ، وَرَدَّ الضَّوْءَ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ^(٤)

ومن وفاء الشريف أنه لم يكن على عادة الشعراء يرثي أحبابه عند الموت فقط ، بل كان يكرر الرثاء كلما تذكرهم أو مر بقبورهم " فيصل أحبابه بالذكرى والحنين ، فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس "^(٥) . ومن أشهر أصدقائه الذين رثاهم بأكثر من قصيدة، أبو إسحاق الصابي^(٦) ، إذ رثاه بثلاث قصائد كانت من أصدق مرثيه بعد قصيدته في رثاء أمه^(٧) ، فقد بلغت هذه القصائد على وفاء منقطع النظير ، من شاعر مسلم ينتمي للبيت النبوي ، إلى رجل صابئ

(١) الديوان ١ : ٨٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٦٨ ، ٣٣٠ ، ٤٣٧ ، ٥٦٣ ، ٥٧٦ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٦٠٠ .

(٢) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي ٢ : ٧٦ .

(٣) الديوان ١ : ٨٢ .

(٤) الديوان ١ : ٥٧٧ .

(٥) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي ٢ : ٧٢ .

(٦) هو إبراهيم بن هلال الخراساني ، أوجد الدنيا في إنشاء الرسائل ، توفي سنة (٣٨٤هـ) وكان قد خدم الخلفاء والأمراء من بني بويه وتقلد

أعمالاً جليلة . الحموي - معجم الأدباء ١ : ١٣٠ - ١٣١ .

(٧) انظر إحسان عباس - الشريف الرضي ٢١٦ .

مجنوني، وعندما لامه الناس قال ، إنما أرشي فضله^(١) ، خلافاً لما يقوله جرجي زيدان : من أن الناس أكبروا قوله في هذه القصيدة لأن المرثي كان صابئياً^(٢) ، وبرر ذلك في أول قصيدة رشاه بهذا فقال :

الْفَضْلُ نَاسِبٌ بَيْنَنَا إِنْ نَحْنُ نَكُنْ
إِنْ نَحْنُ نَكُنْ مِنْ أَسْرِي وَعُيُورِي
نَوْنَمُ يَكُنْ عَالِي الْأُصُورِ فَقَدْ وَفَى
شُرْفِي مُذَابِكُهُ وَلَا مِثْلِي
فَلَأَنْتَ أَغْقَرُهُمْ يَدًا بِوَدَائِي
شَرَفُ الْجُوْدِ يَسُوْدُ الْأَجْدَا^(٣)

ويُلمح على هذا الفضل فيقول في آخر القصيدة :

وَمَقْدَكَ فَضْلُكَ إِنَّهُ أَرَوَى حَيًّا
مِنْ رَانِعٍ مُتَعَرِّسٍ أَوْ غَدَا^(٤)

ونكن ، ما سرّ هذه الصداقة الغريبة بين شاب في الثامنة عشرة من عمره ، وشيخ مسن في العقد الثامن من عمره^(٥) ؟ . لقد أرجع الدكتور زكي مبارك هذه العلاقة إلى الصداقة التي كانت بين والد الرضي والصابي ، وإلى المأساة المشتركة ، حيث أوقع عطف الدولة بوالد الشريف ، وبأبي إسحاق الصابي ، كما أرجعها كذلك إلى الرابطة الأدبية بينهما^(٦) . إلا أننا وإن سلمنا أن تلك بداية الصلة بينهما ، فإنها لم تكن كل شيء ، لأن المصنع على المراسلات التي دارت بينهما فيما بعد شعراً ونثراً ، يرى أن الصابي كان يزين للشريف طالب الخلافة ويطمعه بذلك ، إيماناً منه بأن هذا الشاب الصغير صاحب حق موروث يجب أن يسعى لنيله ، فقال له ذات مرة :

أَبَا حَسَنَ لِي فِي الرَّجَالِ فِرَاسَةٌ
وَقَدْ خَبَّرْتَنِي عَنْكَ أَنَّكَ مَسَاجِدُ
فَوْفَيْكَ الْعَظِيمِ قَبْلُ أَوَانِي
تَعَوَّدْتُ مِنْهَا أَنْ تَقُونَ فَتَصْدُقَا
سَرَفِي مِنَ الْعُلِيَاءِ أَبْعَدُ مَرْتَقَى
وَقُلْتُ : أَصَالَ اللَّهُ لِلْسَيِّدِ الْبَقَا

^(١) إحسان عباس - الشريف الرضي ، ص ٢٠٠ .

^(٢) جرجي زيدان - تاريخ أدب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٦٧ .

^(٣) الديوان ، ١ : ٤٢٨ .

^(٤) الديوان ، ١ : ٤٢٩ .

^(٥) إحسان عباس - الشريف الرضي ، ص ١٠٩ .

^(٦) زكي مبارك - عنبرية الشريف الرضي ، ٢ : ٤٠-٤١ .

فَإِنْ عَشْتُ أَوْ إِنْ مِتُّ فَادْكُرْ بِشَارِي
وَأَوْجِبْ بِهَا حَقَّ عَلَيْكَ مُحَقَّقًا^(١)

فأجابه الشريف :

سَنَنْتَ لِهَذَا الرُّمَحِ عَرَبًا مُدَنَّكَ
لَنْ يَرْقُتَ مِنِّي مَخَابِلُ عَارِضٍ
كَفَيْتَ بِسَقِي قَبْلُ رُبْعِكَ مَرْبَعًا
وَأَجَرَيْتَ فِي ذَا الْهِنْدُوَانِي رَوْنَقًا
نَعْنَيْتَ يَغْضِي أَنْ يَجُودَ وَيُغْرِقَا
وَلَيْسَ بِرَاقٍ قَبْلُ جُودُكَ مَرْتَقَى^(٢)

لهذا فإن مراثي الرضي في الصابي هي رثاء لأمله التي كان الصابي يذكي جذوتها في صدره ، فكانت أشهر مراثيه فيه ، هي المرثاة الأولى يوم وفاته ، إذ جاءت مفعمة بالوداد ، مشحونة بالحماسة ، يأسف فيها على هذا الجبل الشامخ كيف هوى بعد أن كان ضياء نوادي النعم والأدب ، فبكاه الشاعر متعجباً كيف يعزو الثرى فوق هذا الطود والكوكب الوضاء ، حيث كان النصير الهادي له ، فتمحى ذاك الجذاب ، وعطفت تلك الفجاج ، وطوت عوادي الدهر تلك المكرمات ، يقول :

أَعْلَمْتُ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ
جَبْنَ هَوَى لَوْحَرَ فِي الْبَحْرِ اغْدَى
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلُ حَصَّكَ فِي الثَّرَى
كَيْفَ انْمَحَى ذَاكَ الْجَنَابُ وَعُطِفَتْ
طَاحَتْ بِتِلْكَ الْمُكْرَمَاتِ طَوَائِحُ^(٣)
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ الْهَادِي
مِنْ وَقَعِهِ مُتَتَابِعَ الْإِزْبَانِ
أَنْ الثَّرَى يَعْزُو عَلَى الْأَطْوَادِ
تِلْكَ الْفَجَاجُ وَضُرَّ ذَاكَ الْهَادِي
وَعَدَّتْ عَلَى ذَاكَ الْجَوَانِرَ عَوَادِ^(٤)

لقد اسودت الدنيا في وجه الشريف ، وضافت عليه الأرض بما رحبت ، يوم أن هوى قائد ثورته ، والموجه لها ، فرأى أن العيون يوم وفاته قد اعتلت ، والأعضاء تهاوت ، يقول :

بَعْدَ أَيَّوْمِكَ فِي الزُّمَانِ فَنَاهُ
سَوَدَّتْ مَا بَيْنَ الْفَضَاءِ وَنَظِيرِي
ضَافَتْ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَكَ كُلُّهَا
أَقْدَى الْعَيُونَ وَفَتْ فِي الْأَعْضَادِ
وَعَسَلَتْ مِنْ عَيْنِي كُلُّ سَوَادِ
وَتَرَكْتُ أَضْيَقَهَا عَلَى بِلَادِي^(٥)

وقد بلغ به الأسى مداه وهو يقول :

لَكَ فِي الْحَشَى قَبْرٌ وَإِنْ لَمْ تَكُودِ
وَمِنْ الدُّمُوعِ رَوَائِحٌ وَغَوَادِ

^(١) الديوان ١٢ : ٧٨ .

^(٢) الديوان ١٢ : ٧٩ .

^(٣) الديوان ١ : ٤٢٥ .

^(٤) الديوان ١ : ٤٢٥ - ٤٢٨ .

سَلُّوا مِنْ الْأَبْرَادِ جِسْمَكَ وَأَنْتَنِي جِسْمِي يُسَلُّ عَلَيْكَ فِي الْأَبْرَادِ^(١)

وتمنى الشريف أن يكون فداءً لهذا الرجل الذي آمن بحقه في الخلافة ، فأعلن أن الموت لو

يقبل الفداء ، لفدى الصابي بعصبة من الفتيان الملتئمين ، لكنه الموت مجبن الشجعان ، والدهر

سهامه لا بد نافذة فقال :

لَوْ كُنْتُ تَقْدِي لَأَفْتَدَتْكَ فَوَارِسُ مَطَرُوا بِعَارِضٍ كُلَّ يَوْمٍ طَرَامِ
سَلُّوا الدُّرُوعَ مِنَ الْعُبَابِ وَأَقْبَلُوا يَتَحَدَّبُونَ عَلَى الْقَنَا الْمَيَّادِ
لَكِنْ رَمَاكَ مُجَبِّنُ الشُّجْعَانِ عَنْ إِقْدَامِهِمْ ، وَمُضْعَضِعُ الْأَنْجَادِ^(٢)

وبموت الصابي ماتت آمال الرضي ، فتمنى لو يشاطره الردي ، ولكن أنى له ذلك ، والأمر

بيد الله ، يقول :

قَدْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ أَشَاطِرَكَ الرَّدَى لَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ غَيْرَ مُرَادِي^(٣)

ولذا أعلن أنه لن يتخذ خليلاً بعده أبداً ، لأنه لن يجد صديقا على شاكلته فقال :

لَا تَطْلُبِي ، يَا نَفْسُ ، خِلًّا بَعْدَهُ فَلَمِظْهُ أَعْيَا عَلَى الْمُرْتَادِ^(٤)

بل إنه تمنى لو لم يتخذهُ خليلاً أبداً ، حيث أذكى فيه هذا الطموح ثم تركه في أول

الطريق فقال:

يَا لَيْتَ أَنِي مَا أَفْتَتَيْتُكَ صَاحِبًا كَمْ قَنِيَّةٍ جَابَتْ أَسَى لِفُؤَادِي^(٥)

لكن الرضي بعد أن استسلم لقضاء الله ، يعد صديقه بإكمال الطريق الذي رسماه معا ، إذ لم

يكن الرضي يشعر أن صديقه يخادعه بلفظة الخلافة التي كان الصابي يخشى أن يصرح بها كما

يقول الشريف :

(١) الديوان ١ : ٤٢٩ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢٥ .

(٣) الديوان ١ : ٤٢٦ .

(٤) الديوان ١ : ٤٢٨ .

(٥) الديوان ١ : ٤٢٨ .

مَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تُضَيِّرَ بِقُضَّةٍ لِقُوَّةِ بَعْدِكَ نَبِيَّ مَقَادِ النَّزَارِ^(١)

لذا وعده الشريف بأكمل الطريق الذي رسمه له بأفكاره النيرة :

لَا دَرَّ نَرِي إِنْ مَضَّتْكَ فِئْمَةٌ رَغِي بِأَنْضٍ مُتَغَيِّبٍ ، أَوْ بِكَادٍ^(٢)

فأفكار انصابي وكلماته لا تموت بموته ، بل تبقى مزهرة كفصل الربيع ، إن ذهب فإن

أشاره ببقية بعده خضراء يالعة ، يقول :

فَلَا ذَهَبَ كَمَا ذَهَبَ الرَّبِيعُ وَبُشْرُهُ بَقِيَ بِكُنْ خُمَائِي وَنَجَاتٍ^(٣)

وهكذا جاءت القصيدة مينة بالحب والوداد والتقدير الذي يرعى مجدا انصابي ، فقد كان

من أكثر الناس تحمسا لحق الرضي في الخلافة ، فنرى الشاعر يتجدد حزنه كلما مر بقبر

انصابي ، وحين مر هو والركب بقبره في الجنة بعد مدة من وفاته ، حضوا الرجال لينعوا ذاك

المجد والندى ، وتلك المعالي ، إذ ما كاد الرضي يرى ذاك الثرى ، وتستترفه رسومه ، حتى

تدفقت دموعه ونزل هو وأصحابه عن ظهور جيادهم ، لتحية القبر ، وتجاهشوا بالبكاء ،

ويخاطب كل الذين يمرون بهذا القبر ، أن يلموا به عاقرين ، لأن فيه فرعا من المجد ناميا .

ويحس الرضي بفراغ كبير ، وبثمة في حياته بعد أن مات نصيره الذي كان يرى به درب النور ،

إلا أنه يسلم بقضاء الله وحكم الدهر مرغما ، ولو وجد معينا على الدهر نعصاه كما يقول :

خَلَا بَعْدَكَ الْوَادِي الَّذِي كُنْتُ أَنَسُهُ وَأَصْبَحَ تَعْرُودُ النُّوَابِ وَأَدْبَا
رَضِيْتُ بِحُكْمِ الدَّهْرِ فِيكَ ضَرُورَةً وَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْدُو بِمَا سَاءَ رَاضِيًا
وَصَاوَعْتُ مَنْ رَامَ أَنْتَزَاعَكَ مِنْ يَدِي وَلَوْ أَجَدُ الْأَعْوَانُ أَصْبَحْتُ عَاصِيًا^(٤)

ويقرر في نهاية القصيدة أنه يرثيه طلبا للسلوى ، ولكن أتى له ذلك ولما يصل إلى مبتغاه

وحقه المملوب ، يقول :

(١) الديوان ١ : ٤٢٧ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢٨ .

(٣) الديوان ١ : ٤٢٩ .

(٤) الديوان ٢ : ٤٦٨ .

رَبِّكَ كِي أَسُوْتَ فَزِدَّتْ نُوعُهُ
لَئِنْ الْمَرَّاشِي لَا تَسُدُّ الْمَرَّازِيكَ
وَأَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَ الْبُكَاءُ بِدَفْعٍ
عَلَيْكَ ، وَلَكِنِّي أَمْنِي الْأَمْرِيكَ^(١)

وهكذا فإن إعجاب الشريف الدائم بالصابي لم يكن ناجماً عن تجاوب عاطفي لدعوة الصابي إلى حقه في الخلافة ، بل هو إعجاب متصل بروح الدعوة وبمراحل انطلاقها واستمرارها وتغلغلها في نفوس الأنصار^(٢) ، فكان الصابي يحث الرضوي على التسرع بالثورة ليصل إلى حقه الموروث مصرحاً له بهذا الحق الذي كان يخشى التصريح به ، فقال في رسالة بعث بها إليه :

أَبَا كَرَّ شَيْءٍ فَبُرِّئَ فِي وَصْفِهِ حَسَنُ
يُوكِّدُهُمَا لِإِخْتِصَارِ إِشَارَةٍ
تَخَوَّنَهَا فِي خَلْقِهِ وَخَيْفَةٍ
وَمَا هِيَ إِلَّا كُنْيَةُ لَكَ إِرْتِبَا
إِلَى ذَاكَ يَنْحُرُ مَنْ كُنَّاكَ أَبَا الْحَسَنِ
إِلَى جَمْعَةٍ تَقْصِيصُكَ لَكَ مَرَّتَيْنِ
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ الْحَقِيقُ بِهَا فَمَنْ
وَإِنْ مَسَّهَا مِنْ غَيْرِ أَرْبَابِهَا دُونَ^(٣)

لذا نجد الرضوي يحث إلى تلك الأيام التي قضاها مع الصابي ، في قصيدته التي رثاه بها عام (٣٩٣ هـ) أي بعد مرور تسعة أعوام على وفاته ، يحث إلى ليالي الصبوات التي مرت كخطف الوميض ، وهل كان بين الرجلين أيام صبا ؟ لا شك أنه يقصد بها تلك الأيام القصيرة التي كان الصابي بعده فيها بالثورة ويضمعه بها ، وكان الشريف يتنذّر بتلك اللحظات ، وبذاك العيش الأنيق ، فعبر عن حنينه إلى تراب ضمه بأنه لو أصابت عينه قذاة من ثرى قبر الصابي لما أخرجها من عينه ، كما يقول حين اجتاز بقبره وتذكر العهود الماضية ، إلا أنه لم ينزل بقبره لئلا يلومه الركب :

بَلْ لَا يَذِمُّ الرُّكْبُ عَنْكَ مَوْقِفِي
هَلْ تَذْكُرُ الزَّمَنَ الْأَنِيْقَ ، وَعَيْشُنَا
حَيْثُ فَبَرَكَ ، يَا أَبَا إِسْحَاقَ
يَحْلُو عَلَى مُتَأَمِّلٍ وَمُذَاقِرٍ

(١) الديوان ٢ : ٤٩٨ .

(٢) عزيز حاسم - الاعتزاز في حياة وشعر الشريف الرضي ٥٧ .

(٣) الصابي والشريف الرضي - رسائل الصابي والشريف الرضي ، تحقيق محمد يوسف محمد ، دار المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦١ ، ٢٧ .

وَنِيَابِي الصُّبُرَاتِ ، وَهِيَ قَصَاتِرُ
خُصْفُ الْوُصْبِ بِعَارِضٍ مُشْرَاقِ
أَمْضِي وَتُعْطِفُنِي إِلَيْكَ نُكَارِجُ
بَتَفْسٍ كَتَفْسِ الْعُشْرِاقِ
وَلَوْ أَنَّ فِي صُرْفِي قَذَاةً مِنْ ثَرَى
وَأَرَاكَ مَا قَدَّيْتُهَا مِنْ مَقَرِّي^(١)

ومن وفاء الشريف الرضي أن يذكر أحبائه المتوفين عندما يرثي أي صديق ، فيصرف جانباً من القصيدة للحديث عن أصدقائه وأحبائه بشكل عام . وهذا واضح في معظم القصائد والمقطوعات التي استشهدنا بها سابقاً . وقد جعل الرضي مراثيه في أبي الحسن محمد بن المفضل الميالي المتوفى سنة (٣٩٩ هـ)^(٢) حديثاً عن أحبائه الذين افتقدتهم ، ولم يصرف بيتاً واحداً ولا حتى كلمة للمتوفى في المقطوعة كلها^(٣) .

وأخيراً فقد نجى وفاء الشريف الرضي وشجاعته في أن ، عندما يرثي زعيم^(٤) القرامطة في بغداد ، فبعث مكانته المرموقة وكثرة أصدقائه ، لم يجد من يشيعه إذ خشي الناس عاقبة ذلك ، ووفى الرضي ، فلم يتبع نعشه إلا ثلاثة نفر منهم الشريف الرضي ، ورثاه بمقطوعة أشار فيها إلى قلة وفاء الأصدقاء على كثرتهم وقت الطمع ، يقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ مَا طَلْتُ نَوْ دَفْعَ الرَّدَى
مِثْلَ وَقْدٍ عَائِبَتْ لَوْهَ سَمِعَ الدَّهْرُ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ غَارٍ مُشِيعُ
حَبِيبٌ إِلَى دَارٍ يُقَالُ لَهَا الْقَبْرُ
لَنْ كَانَ رِي فِي كُلِّ مَا أَنَا تَارِكُ
وَرَاءَ الثَّرَى أَجْرُهُ ، لَقَدْ عَظُمَ الْأَجْرُ
سُقَيْتَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الْبُعْدِ وَالنَّوَى
وَلَا بِنُ كَهْمِ الشَّامِيِّينَ بِكَ الْقَطْرُ

^(١) الديوان ٢ : ٦٨ .

^(٢) كانت بينه وبين الرضي مودة ولعمري تمدحه في القصيدة التي مدح فيها آل البيت . الديوان ١ : ٢٧٠ .

^(٣) الديوان ٢ : ٦٧ - ٦٨ .

^(٤) هو أبو بكر بن شاهويه ، نائب القرامطة في بغداد ت (٣٩٦ هـ) ، كان يتحكم تحكم الوزراء ، فقص عليه صمصام الدولة ، وورد إسحاق وجعفر الحمرانيان الكوفة ، وثنا أصحابهما وحيا الأموال احتجاً على اعتشار آل شاهويه ، ووقع القتال بين صمصام الدولة وقائدهم أبي قيس الحسن بن المنذر . فأسر أبو قيس وجماعة من قوادهم وقتلوا . فعاد القرامطة وسيروا جيشاً آخر في عدد كثير وعدة وانتفواهم وعساكر صمصام الدولة - الخامعين ، فأجبت المعركة عن هزيمة القرامطة ، وأحبوا عن الكوفة ووال من حبسهم بسببهم .

ابن الأثير - الكامل ٧ : ٤٢٢ .

أَخِي مَا أَقْرَّ التَّابِعِينَكَ إِلَيَّ الشَّرَى وَإِخْوَانُكَ الْأَدْنَوْنَ مِنْ قَبْلِنَا كُثُرًا^(١)

وهكذا يتسیر الشاعر إلى أن مسارعته في تشييع صديقه وتأييده ، هي رغبة منه في كسب الأجر والثواب من الله تعالى ، فهي مشاركة وجدانية أولا ، ثم هي وفاء لهذا الميت ثانياً . ويستسقي الشاعر تقدير صديقه المصّر ، ويدعو بعدم السقيا لشامتيه ، حيث يسعى إلى تدوين مشاعره وأحاسيسه تجاهه مسجلاً وفاءً منقطع النظير .

ب _ رثاء النفس :

رثاء النفس قديم في الشعر العربي ، حيث كان الشاعر عند يأسره من الحياة أو ضجره منها ، أو شعوره بدنو أجله ينعي نفسه إلى أهله وأصحابه الذين حوله ، ويرثي نفسه صراحة ، غير أن مثل هذه القصائد لم ترد في شعر الشريف الرضي ، فلم يرث نفسه صراحة ورثاها بأسلوب غير صريح ، إذ ظلم شعوره بدنو أجله في كثير من قصائده التي قالها في رثاء قريب أو صديق ، ونراه يحسن بقرب موته بعد وفاة إخوانه ، لأنه إذا لم يكن من الممكن إدخال الموت إلى الفكر ، فإن الفكر سيكتسب صفة أو خاصية أنه لا يموت ، ويصبح منطقة محصنة ضد الغناء^(٢) . ولعل القرين يشعر بدنو أجله إذا مات قرينه ، كما شعر جرير قرب منيته في موت الفرزدق ، حيث رد على من تعجب من بكائه على الفرزدق قائلاً " لقد بكيت نفسي ، والله إن بقائي خلفه نقيض ، إنه قل ما كان اثنان قرينان ، أو مصطحبان ، أو زوجان ، إلا كان أمد بينهما قريباً ، ثم أنشأ يرثي الفرزدق ... قال أبو عبيدة : فما غير جرير بعد الفرزدق إلا قليلاً حتى هلك^(٣) . ولهذا يقول الشريف الرضي :

^(١) الديوان : ١ : ٥٢٥ .

^(٢) جيمس ب . كارس - الموت والوجود . دراسة لتطورات الفكر الإسلامي في التراث المسيحي والفلسفي والعلمي ، ترجمة بدر الدين الخليل الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ٤٥٦ .

^(٣) أبو عبيدة - شرح تاليف جرير والفرزدق ، تحقيق محمد حور ووليد حاض ، جمع النقاد ، أبوظبي ، الإمارات العربية المتحدة ،

وَإِنْ أَحَسَّ الْمُجْهِشِيُّنَ لِعِزَّةِ^(١) وَدَجْرِ^(٢) قَرِينِ بَنٍ عَنْهُ قَرِينُ^(٣)

وترتاح نفسه وتطيب إذا شعر بدنو أجه بعد وفاة صديقه :

وَمِمَّا يُطِيبُ النَّفْسَ بَعْدَكَ أَنْفِي^(٤) عَلَى قَرَبٍ مِنْ مَاءٍ وَرَدَّتْ أَوْ قُرْبِ^(٥)

ولهذا كان موت صديقه يعني موت عضو من أعضاء جسده ودفنه في الثرى ، يقول :

إِلَّا يَكُنْ جَكَرِي أُصِيبَ فِئْتِي^(٦) فَرَّقَتْهُ فَفَقَّتْهُ أَعْضَاهُ^(٧)

وقال :

عَضُّوا عَثَّتْ فِيهِ الْمَرْءُ^(٨) حَيَّةٌ ، مَا أَجَلُ وَمَا أَعَزُّ^(٩)

فصديقه يده اليمنى ، إن مات فإن هذه اليد قد قطعت ، ولا تتفع الشمال إذا فارقتها باليمنون يمين :

وَمَا تَفْعُ الْمَرْءُ الشَّمَالُ وَجِدَّةٌ^(١٠) إِذَا فَرَّقَتْهَا بِالْمُنُونِ يَمِينُ^(١١)

بل إن الشاعر يرى أن دمه الذي يجري بسبب وفاة صديقه هو بكاء على نفسه وليس

بكاء للميت :

وَيَجْرِي عَلَى مَنْ مَاتَ لِمَعِي وَمَا لَهُ^(١٢) بَكَتُ وَنَكَيْ بَكَتُ عَلَى نَفْسِي^(١٣)

ويشعر الرضي بقرب منيته بعد موت صديقه أبي منصور المرزبان

لَا تَحْسِبِ الْخُلُودَ بَعْدَكَ نَفْسِي^(١٤) إِنْ الْمُنَايَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ^(١٥)
إِنْ أُنْجِ مِنْهَا وَقَدْ شَرِبْتَ بِهَا^(١٦) فَبِنْ خَيْلِ الْمُنُونِ فِي ظَنِّي^(١٧)

ويصدق حدس الشاعر عند رثاء أعز أصدقائه إلى قلبه أبي الحسن البتي حين سمع نعيه

في شعبان سنة (٤٠٥ هـ) فأنطقه بهذه الأبيات :

مَا لِلْيُمُومِ كَأَنَّهُ لَا^(١٨) نَارٌ عَلَى قَلْبِي تُسَبُّ^(١٩)

^(١) الديوان : ٢ : ٤٥٢ .

^(٢) الديوان : ١ : ٢٣٧ .

^(٣) الديوان : ١ : ٨٢ .

^(٤) الديوان : ١ : ٥٦٣ .

^(٥) الديوان : ٢ : ٤٥٢ .

^(٦) الديوان : ١ : ٥٧٧ .

^(٧) الديوان : ١ : ٢١٥ - ٢٢٠ .

وَالدَّمْعُ لَا يُزْقَى لَهُ
لِوَدَاعِ إِخْوَانِ الشُّبَّانِ
فَارَقْتُهُمْ ، وَالْعَيْنُ عَيْشُ
مَا كُنْتُ أَحْبِبُ أَنْفُسِي
أَوْ أَنْفُسِي أَنْفُسِي وَضِيئُهُ
لَا الْوَجْدُ مُنْقَطِعُ الْوُقُوفِ
مَا أَخْطَأْتُكَ الذُّبَابُ
غُرْبٌ كَانَ الْعَيْنُ غُرْبٌ
بِ مَضَتْ مَطَايَاهُمْ تَحْبٌ
نَ بَعْدَهُمْ ، وَالْقَلْبُ قَلْبٌ
جُنْدٌ عَلَى الْأَرْزَاءِ صَعْبٌ
رِي بَعْدَ أَقْرَانِي أَجَبٌ
وَلَا مَزَالُ الدَّمْعُ غُرْبٌ
تِ إِذَا أَصَابَتْ مِنْ تَحْبٍ^(١)

وقد صدقت فرياسة الشريف فلم تخطئه النائيات ، حيث توفي بعد صديقه بأشهر معدودات ، وهذا نحن نراه لا يتصور لنفسه البقاء أبداً بعد صديقه ، حيث وصف عينيه من البكاء كأنهما عين ماء لا تنقطع ، وقلبه فارغاً ، وقد أصبح مقضوع الظهر . وهذا ما دفع الدكتور زكي مبارك إلى القول : " وأكاد أجزم بأن موت أبي الحسن البتّي هو السبب في موت الشريف الرضي " ^(٢) . وبما أن هذا القول مخالفة صريحة لنص الآية الكريمة : " نَكَلْ أُمَّةً أَجَلٌ " ، إِذَا جَاءَ أَجُلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ^(٣) ، فإن الأولى في هذا المعنى ما ذهبنا إليه ، وهو الفرياسة والإحساس بدنو المنية ، أما سبب الموت فهو القضاء العمر ومجيء الأجل ليس إلا . فقد تملكت الشريف الرضي رهبة الموت فرثى صديقه بتلك الأبيات ، التي نقلت عظم التأملات التي جعلت النائيات كأنها أصابت الشريف ولم تخطئه ، لأنه من البين أن الموت يظهر أولاً في موت الآخر ، أي أنه حدث طبيعي ^(٤) ، فكيف إذا كان هذا الآخر من أعز الأصدقاء ؟!

وإذا ما قرأنا بانيّة ^(٥) الشريف الرضي المشهورة في الشوق إلى البتّي ، عرفنا متانة الصلة بينهما ، وكيف كانت قلوبهما متأنفة متحابّة ، فخاطبه مخاطبة المحبوب ، ودل على شدة

^(١) الديوان : ٢٣٨ ، ١ .

^(٢) زكي مبارك - عترة الشريف الرضي : ٨ : ٢ .

^(٣) سورة يونس ، آية ٤٩ .

^(٤) جيمس ب. كريس - الموت والوجود : ٣٥٧ .

^(٥) الديوان : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

تعلقه به لأسباب ذكرها الدكتور إحسان عباس بقوله : " كان الرجل حافظاً للقرآن ، مليح المذاكرة بالأخبار والأدب ، وصلته بالشريف تشير إلى أنه كان مكماً لما يفتقر إليه الشريف" (١).

جـ. تعزية الأصدقاء والتأسي بأن الموت حق :

يريد الشاعر بالعزاء مواساة نفسه والآخرين ، صابغاً ذلك بحديث عن فلسفة الموت ، حيث ينطلق من حادثة الموت إلى التفكير في الحياة ومصير الإنسان ، فنرى الشاعر بعد أن يحزن على فقده ويبكي لفراقه ويعبر عن أساه ، ما يثبت أن يحكم عقله ، بأن الموت حتم لازم لكل إنسان مهما طال عمره ، فالعزاء إذا ينبع من نظرة الشاعر إلى الحياة على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار (٢) . والتعزية عند شاعرنا بشكل عام ، صادرة عن تعقل وروية ، حيث يعكس لنا حكماً بليغة خالدة تدل على نظرات عميقة في الحياة وحتمية الموت ، نلمس هذا في كل شعره الرثائي على الإطلاق . فالتعزية سبيل الشاعر إلى الصبر ، فهو يحزن على فقده ، ويبكي عليه وينرف الدموع ، ويعبر عن الحزن والأسى ، ثم يلملم أحزانه ، فالحياة ظل زائل ، لكن الصبر يصعب على الإنسان دون أن يحزن وينرف الدموع . يقول الشريف الرضي :

لَوْ لَا اَنْدِفَاعُ دُمُوعِ الْعَيْنِ غَالِبَةٌ لَمْ يُعَقِبِ الصَّبْرُ دَمْعًا غَيْرَ مُنْدَفِعٍ (٣)

(١) إحسان عباس - الشريف الرضي ، ص ١٥٢ .

(٢) أنظر شوقي صيف - الرثاء ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٨٦ .

(٣) الديوان ، ص ٢٥١ - ١ .

روى المبرد أن سليمان بن عبد الملك ، دخل على ولده أيوب وهو يحتضر ، ومعه عمر ابن عبد العزيز . وسعيد بن عقبة ، ورجاء بن حيوة فقال : إله والله ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة والناس عند ذلك أخفاف ، فمنهم من يغلب صبره جزعه فذلك الجذ الحازم المحتسب . ومنهم من يغلب جزعه صبره فذلك المغلوب الضعيف العقدة . وليست منكم حكمة ، وإني أجد في قلمي لوعة ، إن لم أبردها بعبرة خشيت أن تتصدع كبدي كذا وأسفا^(١) .
ومع أن الشعر الحكيم الذي اعتمده الشاعر في الناسي ضرب جاهلي ، إلا أنه جاء عند الشريف الرضي مشبعاً بالمعاني الإسلامية والتسليم بالقضاء والقدر ، يقول في رثاء صديقه المظفر أبي الحسن عبيد الله بن محمد :

إِنَّ التَّوَقُّيَّ فَرَطٌ مَعْجَزَةٌ	فَدَعَ الْقَضَاءُ يَقْدُ أَوْ يَفْرِى
لَوْ مَاكَ بِتَقَرُّنَيْنِ خَوْفِيْمَا	لَمُوتٍ . مَا أَصْطَفَا عَلَى أَوْتَرِ
أَوْ عَدَدَا مَا فِي الْخِطَابِ إِذَا	لَوَاعَا أَبَدًا عَلَى عَمَرِ
نَحْمِي الْمَضَاعِدَ لِلْبَقَاءِ وَنَرِي الْوَدَّ	أَجَلُ مَرْءٍ فُرُوجِيَا تَجْرِي
الْمَوْتُ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ	رَمِيَانُ مَا يُؤْبَى وَمَا يُمَرِي ^(٢)

وغائباً ما تأتي هذه الحكم أثناء تأليهه بموت السابقين كما يقول عند تعزية صديقه الوزير

أبي علي بن أبي الريان عن وفاة بكر بن أبي الفوارس :

نَعَزَ ، أَبَا عَلِيٍّ ، إِنَّ خُطْبَا	عَلَى الْعِلَالَةِ يَبْلُغُ مَا أَرَادَا
هُوَ الْقَدَرُ الَّذِي خَبَطَتْ بِكَاهُ	تَعُودَا ، مِنْ مَعْقِنِيَا ، وَعَادَا
وَضَعُضَعُ كُلِّ مَنْ حُمُ الْعَوَالِي	وَأَرْجَدُ كُلِّ مَنْ رَكِبَ انْجِيَادَا
يَعْرِي ظَهْرَ أَكْثَرِنَا عَدِيَا	وَيَهْجُمُ بَيْتَ أَصُولِنَا عَمَادَا
كَذَلِكَ الدَّهْرُ إِنْ أَبْقَى قَلِيلاً	أَحَالَ عَلَى بَقِيَّتِهِ وَعَادَا
وَأَقْرَبُ مَا تَرَى فِيهِ انْتِقَاصُ	إِذَا مَا قِيلَ قَدْ كَمُلَ أَرْبَعَادَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ سَيُوجِرُنَا مُرَارَا	رَبَائِكُمْ أَنْ يَنْظُرَا شَيْئَادَا ^(٣)

^(١) المبرد - النعماني والبرقي واليعقوبي . تقديم إبراهيم محمد حسن الحسن ، مراجعة محمود سالم ، لجنة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣ ، ١٦٤ .

^(٢) الديوان : ١ : ٥٢٥ .

^(٣) الديوان : ١ : ٤١٩ - ٤٢٠ .

يعزي الشريف صديقه بأن هذه المصيبة قدر من الله تعالى ، وهو القدر نفسه الذي أذهب عبادا وثمود فما أبقى . وأن هذا الموت يأتي على من يحمل العوالي ويركب الجياك من الأبطال الشجعان ، كما يأتي على أكثرنا عديدا وأطولنا عمدا ، من أصحاب الشرف والمكانة ، في هذه حال الدهر أقرب ما نرى فيه التقاص إذا كمل وزداد ، فحين يذيقنا شهده نعلم أنه قد اقترب مره . وقال في رثاء صديق لم يذكر اسمه :

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا غَمَّةٌ وَأَرْيَاحَةٌ	وَمُفَرَّقٌ بَعْدَ التَّكْوِينِ وَمُنْقَلَبٌ
هُوَ الدَّهْرُ يَتَلَوَّى حِدَّةً بَعْدَ حِدَّةٍ	فِيكَ نَبِيًّا أَبْلَى طَوِيلًا وَأَخْلَقًا
فَكَمْ مِنْ عَنِّي فِيكَ خَلْقٌ وَأَنْبَى	وَكَمْ مِنْ عَنِّي نَأَى مِنْكَ وَأَمْنًا
وَمِنْ قَبْلُ مَا أَرَدَى جَذَامًا وَحَمِيرًا	وَأَطْرَقَ زُورُ الْمَوْتِ عَوْجًا وَعَمَلًا
وَأَبْقَى عَلَى دَارِ السَّمَوَاتِ بَرْكَه	وَقَدَّ إِلَى زُورِ الْمُنُونِ مُحَرَّقًا
فَفَارَقَ هَذَا الْأَبْلَقُ الْفَرْدَ بَغْتَةً	وَوَدَّعَ ذَا بَعْدَ النِّعَمِ الْخَوَرَنَقًا
فَمَا الْبَاسُ وَالْإِقْدَامُ نَجَى عَتِيَّةً	وَلَا الْجُودُ وَالْإِعْطَاءُ أَبْقَى السُّحْقًا
أَرَادَ مِنْكَ الْقُرْبَ مَسَدًا	وَسَهَّمًا إِلَى النَّأْيِ الْبَعِيدِ مَقُوفًا
إِذَا مَا عَدَا لَكَ تَبَصَّرَ الْبَصَرُ قُضْعًا	وَلَا الزُّعْفُ مَدَاعٍ وَلَا الْجُرْدُ سَبَقًا ^(١)

فالشاعر يتأسى بموت السابقين من جذام ، وحمير ، والسموات ، ومحرق ، حيث ودعوا القصور وغادروها ، وكأنه يذكر من غفل عن الموت بمصارع الغابرين ، وأن الحياة قصيرة ، وعليهم أن يعتبروا ويستعدوا . ويدعه قوله بالحكم حول حتمية الموت ، فهو سنان يصيب القريب وسهم يصل البعيد ، فلا تمنع منه درع حصينة ولا خيل ضامرة سريعة ، ولو أن الإنسان ابتغى مهربا في جوف الأرض أو في أعالي السماء ، لما وجد من الموت مهربا .

وقد اشتهر الشريف الرضي بقصيدة العزاء الكاملة لأصدقائه وغيرهم ، فقد ورد في ديوانه عدة قصائد في تعزية الأصدقاء عن أبنائهم وبناتهم . وسنرجئ الحديث عن التعزية في

البنات إلى الحديث في رثاء النساء ، أما التعزية عن الأبناء : فقد عزي أبا سعيد علي بن خلف عن ولده^(١) ، كما عزي صديقه أبا علي الحسن بن حمد بن أبي الريان عن ولد له توفي سنة (٣٩٦ هـ)^(٢) ، وعزي صديقاً لم يذكر اسمه في مقتبوعة من ثمانية أبيات^(٣) .

حوت قصيدة العزاء المعاني نفسها التي ذكرناها سابقاً ، وامتازت بالترعة المنطقية التي تحاول دائماً إثارة الفكر ، والتيقظ الواعي لحقائق الوجود ، وتنبهه العقل ، حيث يعزي الشاعر نفسه بنفسه ، ومما أعانه على النجاح في ذلك اعتماده في الغالب أسلوب المحاوراة الذي يستلزم الإقناع العقلي ، حيث يقنع الشاعر من يعزيه بضرورة السلوان والرضى بقضاء الله ، كما نلاحظ فيها ظاهرة تكرار الفكرة الواحدة ، وذلك لضيق مجال القول . فالشاعر يبدأ قصيدته في تعزية أبي سعيد بن خلف بإقناعه بضرورة الصبر والسلوان والرضى بقضاء الله تعالى ، بهذا الحوار والإقناع العقلي ، مبيهاً لصديقه عدم جدوى الحزن ، فالزمان يتخبط بالأضداد بين الإساءة والسرور ، وما على الإنسان إلا الصبر ، يقول :

لَوْ رَأَيْتُ الْغَرَامَ يَنْبَغُ عُرّاً	قُلْتُ حُزْناً وَلَمْ أَقْسُ نَكَ صَبْرّاً
وَأَسْتَرِدُّ رِيحَ الرَّفِيرِ كُجُوباً	وَسَحَابَ الدُّمُوعِ وَبُلاً وَقَطُرّاً
وَرَأَيْتُ مَعْرَمَ الْحُزْنِ سَبلاً	فِي الرُّزَايَا وَجَنِبَ الصَّبْرِ وَعُرّاً
يَكُنِ الْأَمْرُ مَا عَنَيْتَ وَهُوَ تَكْ	ضُرٌّ مِنْ وَقَعَةِ الزَّمَانِ مُبَرّاً
وَأَقْعَا بِالْأَضْدَادِ أَرْوَى وَأَضْمَا	وَقَضَى وَأَقْتَضَى ، وَدَاءٌ وَسَرّاً
مُنْزِلِي قَلْعَةٍ وَلُبَّتْ فَيَكْدَا	لَكَ مَجَازَا لَنَا وَهَذَا مَقَرّاً ^(٤)

وبعدها نرى الشاعر يكرر الفكرة نفسها ، ويعود إلى إقناع صديقه بضرورة الصبر ، وأن يبقى صلياً على خضوب الدهر كالجديل المحكم ، أو كفناً الريح الصماء التي تطعن خلجاً وشرراً ، ويدعوه أن يكون متجلداً يري الناس ابتسامة ، وإن كان باكي القلب مجروح الفؤاد ، يقول :

^(١) الديوان ١ : ٥٢٦-٥٢٨ .

^(٢) الديوان ٢ : ٤١٧-٤١٩ .

^(٣) الديوان ١ : ٢٣٥-٢٣٦ .

^(٤) الديوان ١ : ٥٢٦ .

أَجِدُّ عَصِيَّتَ الصَّبْرِ أَمْرًا
تُجَنِّدُ عَلَى الْخُطُوبِ مِمْرًا
بِخِلَاجٍ عَلَى الزَّمَانِ ، وَشُرًّا
جَادِرُ نَهْضٍ وَلِلْأَعْيُنِ عَشْرًا
يُسْكِي قُرَّةً وَيُلْمُ عَقْرًا
عَنْ قَبْلِ جَنَى عَلَى النَّاسِ تَغْرًا^(١)

مَنْ مَوَّدَ إِلَى عِلِّيٍّ أَوْ كَا
أَيُّ خُطْبٍ رَاحَى قَوْلِكَ ، وَقَدْ كُنْ
وَقَدَّاهُ صَمَاءُ تَضَعُ فِي الْخُطْبِ
أَعْلُ مِنْ عَشْرِ الْأَسَى إِنَّ لِلْأَنْسِ
كُنْ كَعُودِ الضَّرِيقِ ضَلَّ كُرَاهُ
وَالْجَنِّ النَّزِي إِذَا الدَّهْرُ تَجَكَّى

وفي تعزية صديقه أبي علي بن حمد يواسيه بسرعة الأيام والقضاء الأعمار ، وأن
الناس يعيشون على الأمل البعيد ، ولا يدرون أن أجاليد قريبة ، فالدهر يندثر ولكن لا نأبه له
وكانه يعني غيرنا تجاهلاً ، مع أن الموت جاد وأمره بين ، والناس في هذه الحياة كالأجمال التي
تجهزت تنتظر الحي للسفر ، يقول :

تَمْضِي عَلَيْنَا ثُمَّ تَمْضِي بِنَا
مَرَامُهُ عَنْ أَجَلٍ قَدْ كُنَا
كَأَنَّكَ الدَّهْرُ بَوَانَا عَلَى
تَنْتَظِرُ الْحَيَّ لَئِنْ يَضَعُ^(٢)

مَنْ أَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي ضِنَّا
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَمْرٌ قَدْ نَأَى
أَنزَلْنَا الدَّهْرُ وَمَا نَرَعَا
وَالنَّاسُ كَالْأَجْمَلِ قَدْ قُرِبَتْ

ثم يدعم الفكرة السابقة بالحديث عن حتمية الموت ، فالذين شادوا المباني تهدموا وبقيت
بعدهم المباني ، فلا المعدم يحميه إعدامه من الموت ولا الغني يحميه غناه ، ويقول : كم من
حبيب هان من فقده ما كنت أضنه سيئون ، وأنفقت دمع عيني بعده ، وكنت أوقيه حتى أسكنته
المنزل الخشن ، ويناشد الأرض أن تحفظ وجود أصدقائه وأعينهم ، إذ ليس عندها إلا الدل
لوجوده كانت كريمة في حياتها .

ويخاطب صديقه بود معتبراً المصاب مصابه ، ويشاركه في هذا المصاب ، يقول :

لَا بُدَّ لِلْعَائِثِ أَنْ يُوَهَّنَا
هَمُّهَا ، نَحْمِلُهَا بَيْنَنَا

أَخِي ! جَبْرًا لَكَ مِنْ عَشْرَةٍ
إِنَّ النَّاسَ أَنْكَ مِنْ بَقِيَّتِهَا

^(١) السديري ١ : ٥٢٧ .

^(٢) السديري ٢ : ٩١٧ .

سَاقِيَتَكَ الْحُلُو ، فَلَا بَدْعَةَ
إِنْ أَنَا طَاعَمْتُكَ مَرَّ الْجَنَى^(١)

ويرى الشاعر في وجود صديقه عوضاً عن موت ولده ، حيث يشبهه بالسيف ، وموت ولده كتلمة وقعت في هذا السيف، ويقول له: قد يقتل السيف على تلمه. وفي ختام القصيدة يعزي صديقه بالأجر والثواب عند الله تعالى، إن هو صبر على هذه المصيبة ونهض من هذه العثرة .

رثاء النساء :

رثاء المرأة موجود منذ العصر الجاهلي ، لكنه قليل جداً ، وقد تطور بشكل محدود في العصور اللاحقة ، حيث بقي جزءاً من قصيدة متعددة الأغراض من الوجهة الفنية ، ومن الناحية المعنوية ظل الحياء والتحرُّج سمة أساسية له ، لأن المرأة كانت في نظر الجاهليين ، أقلَّ قيمة من الرجل ، فالرجل سيد الأسرة ، والذكور هم جنود القبيلة وحماة لها . فالمرأة لا تماثلهم في هذه المرتبة ، لأنها مقصد الأعداء يأخذونها سبية ، وهو عار عند العرب لا يسكت عنه، وقد لاحظ النقاد الأقدمون هذه الظاهرة ، فقال ابن رشيق "ومن أشدَّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة ، لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات"^(٢)، فكان رثاء النساء إذا "محفوفاً بالمكاره لمواضع التكاليد والعادات عند العرب"^(٣).

أما في العصر العباسي فقد حقق هذا الموضوع تقدماً واسعاً بفضل النقلة الحضارية والاجتماعية ، ففارق تبعيته للقصيدة الأم ، ليشكل غرضاً مستقلاً من جهة ، وكثر كثرة تسرعي الانتباه من جهة ثانية ، لكن معظم ما قيل في هذا المجال موجه للزوجة، وقليل جداً ما كان منه في رثاء الأم ، أما رثاء البنت فقد ظل نادراً ، إن لم يكن معدوماً كما كان في الجاهلية، حيث يقول الدكتور مخيمر : "وليس غريباً أن لا نقف على نموذج واحد لشاعر جاهلي يرثي ابنته ،

^(١) الديوان ٢ : ٤١٨ .

^(٢) القيرواني - العمدة ٢ : ١٥٤ .

^(٣) مصطفى الشكعة - الشعر والشعراء في العصر العباسي ٦٧٨ .

فلم تكن منزلة الابنة عند كثير من العرب الأوائل كمنزلة الابن ، فهي مجلبة للعار عند كثير منهم ، هذا إن لم يدفنها حية كما كان يحدث بالفعل^(١) . ومع ذلك لم نعد من كان يعبر عن حبه

لابنته ويحرص عليها ويتمنى أن يدفنها في التراب حباً لا بغضاً كقول الشاعر:

أُحِبُّ بِنْتِي وَوَدِدْتُ أَنِّي كَفَلْتُ بِنْتِي فِي قَعْرِ لَحَرٍ
وَمَا رَيْتُ أَن تَهْوَى عَلَيَّ لَكِنْ مَخَافَةَ أَن تَذُوقَ الْبُؤْسَ بَعْدِي^(٢)

لكن الأمر في الإسلام تغير عما كان عليه في الجاهلية، فقد رعى الإسلام المرأة خير رعاية، وكفل لها حقوقها، ورد لها كرامتها .

والمطلع على شعر الشريف الرضي يرى أنه قد خرق العادات القديمة في الحديث عن المرأة الأم ، المرأة الأخت... إلخ ، إذ يرى عزارة في مراثته للنساء والمولودات والتعزية عنهن، وتهنئة الأباء بولادتين ، وكان شعوره في هذا المجال مميزاً نادراً ، إذ لا شيء سبق إلى الأسماع وأوقع في القلوب وأبقى على اللساني والإيام من مثل سائر وشعر نادر^(٣) . والأساس في الرثاء هو صدق الانتماء إلى التجربة الشعرية ، دونما نظر إلى كون المرثي طفلاً أو أخاً أو امرأة ، وقد سجى الشاعر في هذا الفن بصدق وحرارة ، تفجعه وأساء ولوعته وألمه الصامت ومشاعره الدفينة الحبيسة ، كما تجدها العلاقة الحميمة بينه وبين صاحب المراثاة ، محاولاً تجسيد وتشخيص مأساة الموت والفناء بهذه المراثي^(٤) . وشملت مراثي الرضي للنساء: والدته^(٥) ،

^(١) محير صالح - رثاء النساء في الشعر العربي ١٣٠ .

^(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار تحقيق محمد الإسكندراني ، دار الكتب العرب ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ٣ ، ٤٣ .

وأخيراً محمد حور - تجربة النساء في الشعر العربي حتى هبة العصر الأموي . مكتبة مكتبة ، العين الإمارات ط ١ ، ١٩٨١ ، ٨٦ .

^(٣) المسكري - الصاعين ، تحقيق علي محمد السعادي ومحمد أبو الحسن إبراهيم ، مكتبة المصرية ، صيد ، ط ١ ، ١٩٨٦ ، ١٣٧ .

^(٤) عناد عرويات - نساء القصيدة عند الشريف الرضي - دراسات في ذكراء الألفية ٢١١ .

^(٥) الديوان ١ : ٧٣-٧٨ .

وأخته^(١)، وزوجته وله فيها ثلاث مرات^(٢)، وتقية بنت سيف الدولة الحمداني^(٣) ورثى بنت صديق له، وعزاه عنها^(٤)، كما عزى أخاه المرتضى عن ابنة^(٥) وعن مولودة^(٦) وعزى أبا سعيد بن أبي خف عن أخت له توفيت^(٧) وعزى صديقاً عن بنت توفيت عقب أخرى^(٨) وعزى الملك قوام الدين (بهاء الدولة) عن ابنة^(٩) كما عزى الوزير أبا منصور بن صالح عن والدته^(١٠)، وكانت أشهر مراثيه في هذا الباب قصيدته في رثاء أمه التي قال عنها محمود الجادر : تضمن إلى الظن أنها يتيمة الشعر العربي في رثاء الأم^(١١) بعد قصيدة ابن الرومي في رثاء أمه^(١٢)، إضافة إلى القصيدة التي رثى بها تقية بنت سيف الدولة الحمداني . أمّا قصيدته في رثاء والدته فقد دارت أغلب معانيها حول وصف حالته الحزينة التي صار إليها بعد فقدانها ، والفراغ الذي أخذ يشعر به بعد موتها ، حيث وردت هذه المعاني في خمسة وعشرين بيتاً موزعة خلال القصيدة ، وقد دلت على عمق أساه وعظم فجيعة ، يقول :

أَفْهِمِكِ لَوْ نَقَعَ الْغَيْلُ بُكَائِي وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ الْمَقَلُّ بِدَائِي
وَأَعُوذُ بِالصَّبْرِ الْجَبِيلِ نَعْرِي لَوْ كَانَ بِالصَّبْرِ الْجَبِيلِ عَزَائِي
صَوْرًا تُكَاتِرُنِي التَّمَوُّعُ وَتَارَةً أَوْ يَإَيُّ الْكُرُومِ مَيِّ وَحْيَائِي
كُمُ عِبْرَةٌ مَوْهَنْتَهَا بِأَمَلِي وَسَرُّهَا مُجَمَّلٌ بِرَدَائِي^(١٣)

ويجعل الشاعر موت والدته باباً لشماتة الأعداء ، وهذا أدعى لحزنه وفجيعة بها يقول :

^(١) الديوان : ١ : ٢٢٦-٢٣١ .

^(٢) الديوان : ١ : ٢٣٧ ، ٥٣٣-٥٣٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

^(٣) الديوان : ٢ : ١٨٤-١٨٦ .

^(٤) الديوان : ٢ : ٣٣٠-٣٣٢ .

^(٥) الديوان : ١ : ٢٢٠-٢٢٢ .

^(٦) الديوان : ١ : ٢٢٢-٢٢٥ .

^(٧) الديوان : ٢ : ١٨٢-١٨٤ .

^(٨) الديوان : ٢ : ١٨٨-١٩٠ .

^(٩) الديوان : ٢ : ٢٤٢-٢٤٤ .

^(١٠) الديوان : ٢ : ٣٤٤-٣٤٦ .

^(١١) محمود الجادر ، الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي - دراسات في ذكراه الأكاديمية : ١١٥ .

^(١٢) انظر محمد حور ، رثاء الأم في الشعر العربي من ابن الرومي إلى أبي العلاء المعري ، جامعة الإمارات العربية ، ١٩٨٦ ، ٣-٤ .

^(١٣) الديوان : ١ : ٧٣ .

أَبْدِي التَّجَلُّدَ لِلْعَدُوِّ وَلَوْ دَرَى
بِمَلْمُؤِي لَقَدْ اسْتَفَى أَعْدَائِي^(١)

وقد نظر في هذا المعنى إلى قول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه :

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمْ
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ^(٢)

وتنقل الشاعر في هذه القصيدة بين معاني المديح والفخر بوالدته وأبنائها، والوصف من خلال الدعاء لها بالسقيا ، وكان كلما انتقل من معنى إلى آخر يشده الحزن ويعود للحديث عن فجيعة بأمه^(٣) . فيجمع بين الحزن والمدح والتأبين حتى يصل إلى أفضل الشعر كما قال المبرد "أحسن الشعر ما خلط مدحا بتفجع ، واستكاءً بفضيلة لأنه يجمع التوجع الموجه تفرجا والمدح البارع اعتذارا من إفراط التفجع باستحقاق المرثي"^(٤).

فهو يرى أن والدته تستحق كل وفاء وإخلاص لأنها كانت نصيرا له ، ودرعا يقيه باذن الله عثرات الزمان ، فكيف له أن ينساها ، يقول :

كَيْفَ السُّلُوُّ وَكُلُّ مَوْقِعٍ لَحْظَةٍ
أَثَرَ لِفَضْلِكَ خَالِدٌ بِإِزَائِي
فَعَلَاتُ مَعْرُوفٍ يَقْرَأُ نَوَاطِرِي
فَتَكُونُ أَجْلَبَ جَالِبٍ لِبُكَائِي
مَا مَاتَ مَنْ نَزَعَ الْبَقَاءَ ، وَذَكَرُهُ
بِصَالِحَاتٍ يُعَدُّ فِي الْأَحْيَاءِ
فَبَائِي كَفَّ اسْتَجِنُ وَأَتَقِي
صَرَفَ النَّوَائِبِ أَمْ بِأَيِّ دُعَاءِ
وَمَنْ الْمُؤَلُّ لِي مِنَ الْأَنْوَاءِ ؟
وَمَنْ الَّذِي إِنْ سَاوَرْتَنِي نَكْبَةً
كَانَ الْمُؤَقِّي لِي مِنَ الْأَسْوَاءِ ؟
أَمْ مَنْ يُلْطُّ عَلَيَّ سِتْرَ دُعَائِهِ
حَرَمًا مِنَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ^(٥)

فالشاعر يقرأ بمعروفها إذ حمته في أزمته التي سجن فيها والده بفارس، وهي الأم الرؤوم التي تمنحه الحب والحنان والإخلاص والعون والمساعدة عندما تضيق يده . وهي الأم الحنون التي كان ينتفع ببركة دعائها إلى الله تعالى ، فهي ملجؤه في زمن الشدة وأمنه من كل

(١) الديوان ١ : ٧٣ .

(٢) السكري - شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار العروبة ، القاهرة ١ : ١٠ .

(٣) انظر محمد حور - رثاء الأم في الشعر العربي ٣٨ .

(٤) المبرد - التعازي والمرثي ٦١ .

(٥) الديوان ١ : ٧٥ .

قلق . ولهذا وجد الشاعر أن وفاءه لأمه يكمن في دوام حزنه عليها ، حيث يعبر عن شدة حزنه وتحرقه بنبرة هائجة : يقول :

كَمْ أَمْرٍ لِي بِالتَّصَبُّرِ هَاجٍ لِي دَاءٌ ، وَقَدَّرَ أَنْ ذَاكَ دَوَائِي
أَوْيَ إِلَى بَرْدِ الظُّلَالِ كَأَنِّي لَتَحْرِقَنِي أَوْيَ إِلَى الرَّمَضَاءِ
وَأَهْبُ مِنْ طَيْبِ الْمَنَامِ تَفَرُّعًا فَرَعَ اللَّذِيعُ نَبَاً عَنِ الْإِغْفَاءِ^(١)

وَيَصِفُ الشَّاعِرُ حَجْمَ هَذِهِ الْفَاجِعَةِ وَالْمُصِيبَةِ الَّتِي أَلَمَتْ بِهِ يَقُولُ :

رُزَانٍ يَزْكُادَانِ طَوَّلُ تَجَدُّدٍ أَبَدُ الزَّمَانِ : فَنَاوُهَا وَبُقَائِي^(٢)

وَمِنْ صُورِ مَدْحِ وَالِدَتِهِ وَتَأْيِينِهَا ، يَعْضِضُ لَنَا الشَّاعِرُ صُورَتَهَا إِنْسَانِيَةً حَيْثُ تَتَصَفَّى بِالسَّمَوِ الْأَخْلَاقِي وَالنَّفْسِي ، وَعَمَقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَتِهِ ، وَالْعِفَّةِ وَالزَّهَادَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ أَسْلُوبٌ جَدُّ عِنْدَ شُعَرَاءِ الرَّثَاءِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَعْنَى مُسْتَطَهَمَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، حَيْثُ يَسْتَطِيعُ الشَّاعِرُ مَعْنَى الصَّبْرِ لِيُضْفِيهَا عَلَى وَالِدَتِهِ ، يَقُولُ :

أَنْصَبْتَ عَيْشَكَ عِفَّةً وَزَهَادَةً وَطَرَحْتَ مُنْقَلَةً مِنَ الْأَعْبَاءِ
بِصِيَامٍ يَوْمِ الْقَيْظِ تُلْهَبُ شَمْسُهُ وَفِيَّامٍ طَوَّلِ اللَّيْلِ اللَّيْلَاءِ
مَا كَانَ يَوْمًا بِالْغَيْبِ مِنْ أَشْرَافٍ رَغَدَ الْجَنَانِ بِعَيْشَةٍ خَشْنَاءِ^(٣)

فَهِيَ أُمٌ وَرَعَةٌ تَقِيَّةٌ ، تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ ، عَاشَتْ زَاهِدَةً مُنْقَشِفَةً عَفِيفَةً قَدْ اشْتَرَتْ بِهَذَا رَغَدَ الْجَنَانِ ، وَاثَرَتْ لِأَجْلِ ذَلِكَ الْعَيْشَةَ الْخَشَنَةَ ، حَيْثُ قَدِّمَتْ أَعْمَالَ بُرٍّ وَخَيْرٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَاشْتَرَتْ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا ضِيَاءً لَهَا فِي قَبْرِهَا وَتَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَصَلَاتَهُ عَلَيْهَا حَيْثُ يَقُولُ :

مَعْرُوفُكَ السَّامِيُّ أَنْيَسُكَ كَلَمًا وَرَدَ الظُّلَامُ بِوَحْشَةِ الْغُبَرَاءِ
وَضِيَاءُ مَا قَدَّمْتَهُ مِنْ صَالِحٍ لَكَ فِي الدُّجَى بَدَلٌ مِنَ الْأَضْوَاءِ
إِنَّ الَّذِي أَرْضَاهُ فَعَلَّكَ لَا تَرُلْ تُرَضِّيكَ رَحْمَتُهُ صَبَاحَ مَسَاءِ

(١) الديوان ١ : ٧٥ .

(٢) الديوان ١ : ٧٥ .

(٣) الديوان ١ : ٧٤-٧٥ .

صَلَّى عَلَيْكَ وَمَا فَقَدْتَ صَلَاتَهُ قَبْلَ الرَّدَى وَجَزَ الرَّأْيِ جِزَاءً^(١)

ثم يمتدح والدته بانتسابها إلى البيت النبوي ويفتخر بأجدادها مشيراً إلى جدها الناصر

الأصم الذي ملك بلاد الديلم و الجبل وكان شيخ الطالبين و عالمهم ولقب بالناصر للحق^(٢)، يقول :

أَبَاؤُكَ الْغُرُّ الَّذِينَ تَقَجَّرَتْ بِهِمْ يَنَابِيعُ مِنَ السُّعْمَاءِ
مِنْ نَاصِرٍ لِلْحَقِّ أَوْ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى أَوْ كَاشِفِ الْغَمِّاءِ
نَزَلُوا بِعُزَّةٍ السَّنَامِ مِنَ الْعُلَى وَ عَلَوْا عَلَى الْأَنْبَاجِ وَالْأَمْطَاءِ
مِنْ كُلِّ مُسْتَبِقِ الْيَدَيْنِ إِلَى النَّدَى وَمُسَدِّدِ الْأَقْصَالِ وَالْأَرَاءِ^(٣)

فأمه تختلف عن جميع الأمهات ، فإن لها شرفاً لا يدانيه شرف ، ولا يلحق شأوها النساء

فقد أورثته نسباً عريقاً حتى لقب بذي الحسبين كما ذكرنا ، وقد ورثت قيمها السامية عن آبائها

وأجدادها الهاشميين الكرام الذين أثروها بهذا الخلق الكريم . فهو ابن أمه كما يقول الدكتور زكي

مبارك مازحاً باللهجة المصرية^(٤) حيث أعطته عراقه النسب الهاشمي وأصالته فاستدل على

عراقته بعراقته هو كذلك فقال :

شَهِدَ الْخَلَائِقُ أَنَّهَُا لَنَجِيبَةٌ بِدَلِيلٍ مَنْ وَلَدَتْ مِنْ النُّجَبَاءِ^(٥)

أخذ هذا المعنى من المتنبي في رثائه لجده حيث يقول :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمٍ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمُ كَوْنُكَ لِي أُمًّا^(٦)

لكن قصيدة الشريف الرضي أكثر وجداناً^(٧) من قصيدة المتنبي هذه . وقد بين الدكتور

إحسان عباس حين وضّح التطور في شعر الرضي محاكاته للمتنبي منذ الصغر ، وكانت هذه

(١) الديوان ١ : ٧٧ .

(٢) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة ١ : ٣٢-٣٣ .

(٣) الديوان ١ : ٧٥-٧٦ .

(٤) زكي مبارك - عمقيرة الشريف الرضي ٢ : ٧٨ .

(٥) الديوان ١ : ٧٥ .

(٦) المتنبي - ديوان أبي الطيب المتنبي شرح أبي الغطاء العسكري ، ضبط نصه وصححه كمال طائب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،

ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٤ : ١٠٨ .

(٧) عبد الرحمن شكري - دراسات في الشعر العربي ٤٧ .

المحاكاة أبعد مدى من المحاكاة الشكلية^(١) ، ثم بيّن أن الرضي أخذ يقلل من اتباعه للمتنبّي حين تقدم به الزمن وأظهر استقلاله عنه^(٢).

ومن آثار موت والدته أن جرت الحكمة على لسانه عن حقيقة الموت والحياة ، وهي حكمة ولدتها تجربة الفقد ، إذ يدرك الشاعر أن حزنه لا يجدي في شيء ، فيستسلم ويقر بأن الموت قدر لا بد منه وأن الحياة لا قيمة لها وكأنه يعزي نفسه بهذا التسليم يقول :

وَخَلَّاقُ الدُّنْيَا خَلَّاقُ مُومِسٍ	لِلْمَنْعِ أَوْ نَسْءٍ وَلِلْإِعْطَاءِ
طَوْرًا تُبَادِلُكَ الصَّفَاءُ وَتَارَةً	تَلْقَاكَ تُتَكَرِّهُمَا مِنْ الْبُغْضَاءِ
وَتَدَاوُلُ الْأَيَّامُ يُبْلِيْنَا كَمَا	يُبْلِي الرُّشَاءُ تَطَاوُحُ الْأَرْجَاءِ
وَكَانَ طُولَ الْعُمُرِ رَوْحَةً رَاكِبٍ	قَضَى الْغُوبَ وَجَدَّ فِي الْإِسْرَاءِ ^(٣)

ولعل الشاعر لم يوفق في البيت الأول حين شبه الدنيا وتقلبها بالمومس المنحرفة لأن المقام مقام رثاء ولا تتناسب الصور المجونية مع الحديث عن الموت. وكان الشاعر متناقض مع نفسه من هول الفاجعة ، فنراه يكره الموت ويتحذاه في الوقت الذي غلب عليه التسليم لأمر الله تعالى والإيمان بالقضاء والقدر ، وخاصة أن الشاعر معروف بإيمانه وأن جميع القيم التي ذكرها في رثاء والدته مسئلة من القرآن الكريم، إضافة إلى فخره بانتساب والدته إلى الرسول الكريم _ صلى الله عليه وسلم _ إلا أننا نراه يتمنى أن يتحدى الموت ويقاومه لو يستطيع ، وكأنه لا يكتفي بالكتابة عن الموت وإنما يلجأ إلى الكتابة في مواجهة الموت كأنه يريد أن يهزمه أو يحسوه مع يقينه أن الموت لا يهزم ، وما كان ذلك إلا ليخفف من وقع هذه المصيبة على نفسه ، فتحدى الموت بفرسانه الملتئمين الذين كان يعدهم لثورته ، يقول :

(١) إحسان عباس - الشريف الرضي ١٦٧-١٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٨٧ .

(٣) الديوان ١ : ٧٤ .

لَوْ كَانَ يُدْفَعُ ذَا الْحِمَامِ بِقُوَّةٍ
بِمُدْرَيْنَ عَلَى الْقِرَاعِ تَفَيَّأُوا
قَوْمٌ إِذَا مَرُّهُوا بِأَغْبَابِ السَّرَى
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الدُّرُوعِ كَأَنَّهُمْ
بِبُرُوقِ أَذْرَاعٍ وَرَعْدِ صَوَارِمٍ
لَتَكْدَسَتْ عَصَبٌ وَرَاءَ لِيَوَائِي
ظِلُّ الرُّمَاحِ لِكُلِّ يَوْمٍ لِقَاءٍ
كَحَلُّوا الْعُيُونُ بِإِثْمِدِ الظُّلُمَاءِ
صُمُّ الْجَلَامِدِ فِي غَبِيرِ الْمَاءِ
وَعَمَامٍ قَسْطَلَةٍ وَوَبْلٍ دِمَاءٍ^(١)

والشاعر يصف هؤلاء الفتيان وشجاعتهم وأسلحتهم دون أن يذكر مكانهم فتبدو الأبيات أشبه ما تكون بالمقدمة الحماسية لكنها مصبوغة بالحزن والأنين ، إذ يظهر في هذه الأبيات فخره وحماسته، لكن حماسته هنا أقل من حماسته في قصائد فخره " وليس ذلك بغريب فلعل فرقاً ما بين الموقفين ينسى الشاعر ثورته وبكلمة أدق فإنه يجعله يمزج هذه الثورة بالنشيج ويصبغها بالندب والنواح"^(٢). فهو قائد ثورة يعتد بأشياعه ويعرف قوته بهم ، ويذكرهم في قصيدة رثائه لوالدته الصانعة لهذا الابن العظيم "وكانه يجمع في هذا الضرب من الرثاء بين طموحه وخيبة أماله ، طموحه بإعداد الفتية للقتال في سبيل المجد والعلا ، وخيبة أماله من واقع المرير الذي يكاد يكون كالموت الذي لا يمكن أن يغلب أو يقهر . فلا فائدة ترجى إذا من أماله ، ولا خير يحقق بفتيانه. فصورة الرثاء هذه هي رثاء لطموح الشريف الرضي نفسه وأماله"^(٣). ومن هنا نتضح لنا علاقة الشريف بأمه حيث فقد النصير بفقدائها والدرع الواقى ، فعلاقته بها إذا "كانت تتجاوز الأمومة المجردة لتصبح جزءاً من رؤيته الاجتماعية الكبرى التي تقوم على التمييز العرقي ، إضافة إلى المركب العقدي الشيعي ، فعلاقته بها كانت قائمة على أساس روحاني مغلف برؤية سياسية"^(٤). فكان من الطبيعي أن يرثى هذه الوالدة التي شكلت وفاتها صدمة عنيفة له ، فرثاها في وقت لم تكن الأم الرؤوم "تجد من يؤرخ فضلها في اللغة

^(١) الديوان ١ : ٧٣ - ٧٤ .

^(٢) محمد شلتح - الحماسة في شعر الشريف الرضي ١٨٢ .

^(٣) انتداح الصغار ، المؤلفات العامة في شعر الشريف الرضي - دراسات في ذكراه الألفية ٧٦ .

^(٤) إنعام روافة - الرؤية السياسية والاجتماعية في شعر الشريف الرضي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٨٤، ١١١ .

صدمة عنيفة له ، فرثاها في وقت لم تكن الأم الرؤوم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية ويذكر بين كتاب العربية من يقول : حدثتني أمي وأنبأتني أختي وأخبرتني زوجتي ، وإن كان من شعرائهم من يقبل النعال في أقدام الملاح^(١) . مع أن ذكر والدته لم يرد في شعره إلا في هذه القصيدة، وليس في الأمر قلة وفاء أو نكران للجميل ، وإنما الأمر أن الرضي في هذه المرحلة وظف شعره وصرفه تجاه قضايا تتعلق بمنهج في الحياة ، ذلك المنهج الذي التقى فيه بآبيه أكثر من أمه بكثير^(٢) . ومع هذا فقد أجمع النقاد الذين تناولوا شعر الشريف الرضي أن هذه القصيدة من أروع ما قيل في رثاء الأم ، ولعلنا نرى هذه الروعة في الألفاظ والموسيقى الجنائزية، أما في المضمون فإنها تساوي قصيدته في رثاء تقيّة بنت سيف الدولة ، ولا تقل هذه الأخيرة في "حسن معانيها عن قصيدته في رثاء أمه"^(٣) . فالشاعر في رثاء أمه "يلجأ إلى حروف المد اللينة ذات الإيقاع الهادئ مستخدماً قافية وروياً يخدمان المعنى ويلتزمان انفعالا ينحو تجاه التسليم بقضاء الله ، ويذكر الإنسان بضعفه وهوانه فترق نفسه وتلطف عباراته تجاه جبروت الخالق وعظمة المأساة"^(٤) . فموت أمه ترك ثلماً في حياته لا يبرأ أبداً حيث توفيت وهو شاب في مقتبل العمر ، فتمنى لو كان فداءً لها بقوله :

قَدْ كُنْتُ أُمْلُ أَنْ أَكُونَ لَكَ الْفِدَاً مِمَّا أَلَمْ أَكُنْتُ أَنْتَ فِدَائِي^(٥)

وكرر هذا المعنى بقوله :

قَدْ كُنْتُ أُمْلُ أَنْ يَكُونَ أَمَامَهَا يَوْمِي وَتَشْفِقُ أَنْ تَكُونَ وَرَائِي^(٦)

كيف لا وهي التي كانت له كالمجن يتقي به مصائب الأيام بإذن الله وتسدّ مسدّ الأب في

الحفظ والرعاية كما يقول :

(١) زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي ١ : ٧٨ .

(٢) عبد الطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومطلقاته المكرة ٤٨ .

(٣) المرجع نفسه ٤٨ .

(٤) المرجع نفسه ٦٨٣ .

(٥) الديوان ١ : ٧٤ .

(٦) الديوان ١ : ٧٥ .

لَوْ كَانَ مِثْلُكَ كُلُّ أُمِّ بَرَّةٍ غَنَى الْبَنُونَ بِهَا عَنِ الْبَكَاءِ^(١)

وفي ختام القصيدة يدعو الشاعر لأمه بالسقيا واصفا الغمام ورعده وبرقه وصفا رائعا، وكأنه يعبر عن حالته النفسية وما يشعر به من اضطراب وقلق بعد فقدان أمه فنراه يرمى نفسه باللووم إن أكل السقيا إلى الأنواء ولم يسقها بدمعه^(٢). ولهذا كان على الشاعر أن يختتم القصيدة ختاماً أليماً، ممضاً ويزرف دموعاً غزيراً، حتى يخيل إلينا أننا نرى بكاءه ونسمع نحيبه يقول :

لَوْ كَانَ يُبْلِغُكَ الصَّفِيحُ رُسَائِلِي أَوْ كَانَ يَسْمِعُكَ التُّرَابُ نِدَائِي
لَسَمِعْتَ طَوْلَ تَأَوُّهِي وَتَفَجُّعِي وَعَلِمْتَ حُسْنَ رِعَايَتِي وَوَفَائِي
كَانَ ارْتِكَاضِي فِي حَشَاكَ مُسَبِّحًا رَكُضَ الْغَلِيلِ عَلَيْكَ فِي أَحْشَائِي^(٣)

والبيت الأخير "يتضمن صورة حسية لا يصراح بها إلا شاعر يفهم الحقائق فهو يرى حياته في بطن أمه دينا واجب الأداء"^(٤).

وهكذا كانت كل أبيات القصيدة نخباً، لأن القصيدة اليتيمة أدخل في باب الشعر من غيرها ، فصاحبها يتلبث فيها ويصقلها ويهذبها فتأتي أفخم عبارة وأبداع تصويراً وأكثر رونقا وبهاء. وفي رثاء زوجته لم يوجّه الشاعر ركب القصيدة نحو مناقب الزوجة ووصفها بجمال الجسد وطيب الأصل ، بل أظهر تفجعه وحزنه لموتها في ثلاث مقطوعات ، وصفها في إحداها بالغصن الرطب ، فهو لا يأمن الدهر بعد أن رماه بهذه المصيبة ، يقول :

عَلَى أَيِّ غَرْسٍ أَمِنَ الدَّهْرُ بَعْدَمَا رُمِيَ فَادِحُ الْأَيَّامِ فِي الْغُصْنِ الرَّطْبِ
كَدَوَى قَبْلَ أَنْ تَدْوِيَ الْغُصُونُ وَعَهْدُهُ قَرِيبٌ بِأَيَّامِ الرُّبِيلَةِ وَالْخُصْبِ
كَفَى أَسْفًا لِلْقَلْبِ مَا عَشْتُ أَنْبِي بِكَفِّي عَلَى عَيْنِي كَثُوتُ مِنَ التُّرْبِ^(٥)

^(١) الديوان : ١ : ٧٥ .

^(٢) الديوان : ١ : ٧٦ - ٧٧ .

^(٣) الديوان : ١ : ٧٧ - ٧٨ .

^(٤) ركني مبارك - عبقرية الشريف الرمي : ٢ : ٨٠ .

^(٥) الديوان : ١ : ٢٣٧ .

والشاعر دائم الحزن لفرقتها يسوؤه أن تقرّ بلابل قلبه عليها ويريد لهذا الداء الذي أصابه

بموتها أن يطول ولا يقصر ليبقى دائم الحزن دائم الدموع يقول :

لَقَدْ سَاءَ نَبِيَّ أَنْ الْبَلَابِلَ رَوَّحَتْ
تَضَرَّعَتْ فِي أَعْقَابِ وَجْدٍ عَلَيْكُمْ
وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْخَلَى وَأَنْتُمْ
وَلَمْ أَزَجِرِ الْعَيْنَ الدُّمُوعَ لِنَتْنَتِهَا
وَأَنْ مِطَاطَ الدَّاءِ بَعْدَكَ أَقْصَرَا
وَمَنْ فَاتَهُ الْإِعْذَارُ بِالْأَمْرِ عَذْرَا
أَعَزُّ عَلَى عَيْنِي مِنْ طَارِقِ الْكَرَى
وَلَمْ أَعْذِلِ الْقَلْبَ اللَّجُوجَ لِيُصِيرَ^(١)

فهو دائم الذكر لها لا يذهل عنها ولهذا رثاها ثلاث مرات ليبقى حزنه دائما كلما تذكرها

حيث يعمل فكره في خلق الجوّ الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة ، يقول :

ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةً لَا دَاهِلَ
أَعَاوُدُ مِنْكَ عِدَادَ السَّلِيمِ
عَوَاطِفُ مِنْ مُقَلِّقَاتِ الْغُرَا
وَيَأْبَى الْجَوَى أَنْ أُسِرَّ الْجَوَى
وَلَا نَارِعُ قَلْبِيهِ وَالْجَنَانُ
فَيَا دَيْنَ قَلْبِي مَاذَا يُكَدَانُ
مِ يَوْمٍ دُمُوعِي بِهَا أُرُونَانُ
إِذَا مَلَى الْقَلْبُ فَاضَ اللِّسَانُ^(٢)

فغياب الزوجة ترك أثرا في حياته فغدا ضعيفا بفقدائها وحيدا ليس له مؤنس سوى الامه

وأحزانه ، فهو كعين خبا نورها ، أو يمني يد جذ بنائها ، وهي صورة تبرز مدى النقص الذي

أصبح يشعر به يقول :

وَمَا خَيْرُ عَيْنٍ خَبَا نُورُهَا
وَقَالُوا : تَسَلَّ بِأَتْرَابِهَا
وَيُمْنِي يَدِ جَذٍّ مِنْهَا الْبُنَانُ
فَأَيْنَ الشَّبَابُ ، وَأَيْنَ الزَّمَانُ^(٣) ؟

ولهذا فقد أصبح قلبه أهلا بها وإن خلا طرفه منها يقول :

وَمَا ضَرَّ قَلْبِي إِذَا غَدَا مِنْكَ أَهْلًا
تَأْمَلْ عَيْنِي مَنْزِلًا مِنْكَ مُقْفِرًا^(٤)

وقال في مقطوعة أخرى بالمعنى نفسه :

(١) الديوان ١١ : ٥٣٤ .

(٢) الديوان ١٢ : ٤٠٤ .

(٣) الديوان ٢ : ٤٠٤ .

(٤) الديوان ١١ : ٥٣٤ .

خَلَا مِنْكَ طَرْفِي وَأَمْتَلَا مِنْكَ خَاطِرِي كَأَنَّكَ مِنْ عَيْنِي نَقَلْتَ إِلَى قَلْبِي^(١)

وفي رثاء النساء تحدث الشريف الرضي عن شرف النسب وعراقة الأصل لدى المرأة العربية ، وركز على القيم العربية من تدين وورع وجمال وعفة ، وبما أن شقيقته قد ورثت فضائلها الجميلة وقيمها السامية عن آبائها وأجدادها الهاشميين الكرام، فإن نوار أرضها أصبح المجد وليس النبات الذي يذبل ويبس . فلا داعي إذا أن يستسقي لها الغمام ، لأن قبراً فيه الزلال العذب لا يظماً أبداً ، يقول :

أَجَلُ قَبْرِكَ عَنْ أَنْ	أَقُولَ حَيَّاهُ رُكْبُ
أَوْ أَنْ أَقُولَ سَقَاهُ	صَوَّبَ الْغَمَامِ الْمُرْبُ
إِلَّا لِحَاجَةِ نَفْسٍ	تَهْفُو إِلَيْكَ وَتَصْبُو
أَوْ أَنْ يُّغْلَى غَلِيْلٌ	إِنْ بَلَّ قَبْرَكَ شِرْبُ
وَكَيْفَ يَظْمَأُ قَبْرُ	فِيهِ الزُّلَالُ الْعَذْبُ
أَمْ كَيْفَ تُظْلِمُ أَرْضُ	أَجِنُّ فِيهِهَا الشُّهْبُ
نَوَارُهَا الْمَجْدُ لَأَحَدُ	وَهُ الرُّبُكَى وَالْعِرْبُ ^(٢)

ويتحدث عن مآثرها فيصفها بالعفاف والطهر ، يقول :

وَدُونَ كُلِّ حِجَابٍ	مِنَ الْعَفَافَةِ حُجْبُ
وَقَبْرِكَ الصَّوْنُ مِنْ قَبْ	لِ أَنْ يَضُمَّكَ تَرْبُ ^(٣)

وهذا الأصل العريق هو الذي جعل الحمدانيين سادة العرب لأنهم من معدن عدنان ، حيث النسب العريق الذي يحق لكل عربي أن يفخر به كما يقول في رثاء تقيّة بنت سيف الدولة الحمداني :

^(١) الديوان ١ : ٢٣٧ .

^(٢) الديوان ١ : ٢٣٠ .

^(٣) الديوان ١ : ٢٣٠ .

نَعَى النَّاعُونَ وَاضِحَةَ الْمُحْيَا أَوْفَ الْبَيْتِ ذِي الْعُمْدِ الطَّوَالِ

مِنْ الْبَيْضِ الْعُقَائِلِ مِنْ مَعْدٍ بَنِينَ قَبَابَهْنَ عَلَى الْجَلَالِ
نَعَوُا ظُبَّةً لِأَيُّضٍ مُشْرِفِي قَدِيمِ الطُّبَعِ عَادِي الصَّقَالِ
لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيِّ فِيهَا صَنِيعُ الْقَيْنِ قَامَ عَلَى النَّصَالِ^(١)

والحديث عن شرف النسب والأصل العربي لم يمنع الشريف الرضي من الإشادة

بالبويعيين ووصفهم بالعلا والمجد والكرم والشجاعة عند تعزيتة بهاء الدولة عن ابنته ، فلعل

الشريف الرضي كان يطمح إلى ولاية أو أمر لدى بهاء الدولة، خاصة وأن بهاء الدولة قلد أبا

أحمد والد الرضي قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبين. وكان التقليد بشيراز ولقبه

بالتاهر الأوحى ذي المناقب^(٢) ، أو لأنه أرضى مبادئ الدين التي تقضى بإكرام آل البيت كما

يقول الرضي :

لَقَدْ أَرْضَى قَوَامَ الدِّينِ فِينَا وَصَاةَ اللَّهِ وَالدِّينِ الْيَقِينَا^(٣)

وسيتضح هذا عند دراستنا لمراثي الرضي في بهاء الدولة.

أما حديثه عن مجد الحمدانيين ونسبهم العريق فإنه يوضح صلة الشريف الرضي بهم

وهو أنه وجد الحمدانيين "يسيرون في الاتجاه نفسه الذي ما فتئ الشريف الرضي يبحث عنه

وهو إنصاف العرب ورفض الخذلان والخضوع للعجم"^(٤) ، هذا وقد كانت تقية بنت سيف

الدولة الحمداني معجبة بشعر الرضي وأرسلت إلى بغداد من انتسخ لها ديوانه كاملاً وحمله إلى

مصر، وقد دفعت هذه الحادثة زكي مبارك إلى إرجاع علاقة الرضي بالحمدانيين إلى أصول

وجدانية هي عطفه على تقية هذه المعجبة بشعره^(٥) والأمر أبعد من ذلك بكثير ، فرثاؤه لتقية هو

مدح لقومها وذويها ، إذ لولا مكانتهم ما عظمت مكانتها وما عظم الحزن عليها ، فهذا هو يرثي

^(١) الديوان ٢ : ١٨٥ .

^(٢) ابن الأثير - الكامل ٨ : ٣٠ .

^(٣) الديوان ٢ : ٤٦٩ .

^(٤) إنعام روافقة - الرؤية السياسية والاجتماعية في شعر الشريف الرضي ٩٩ .

^(٥) أطول زكي مبارك ١ : ١٦٠ ، مقدمة القصيدة التي وضعها جامع الديوان .

مجيد الحمدانيين الذي أعلوه بأطراف العوالي مع أنه لم يدم طويلاً ، ويذكر أجداد بني حمدان ويمدحهم ، فهم فحول المجد رؤوسهم مرفوعة منذ القدم لا تعرف الخضوع ، وقد طوتهم المنايا ولن تلد الليالي مثلهم يقول :

عَمَانِرُ مِنْ رَبِيعَةٍ أَنْزَلْتَهُمْ	أَعَالِي الْمَجْدِ أَطْرَافُ الْعُوَالِي
هُمْ الرُّأْسُ الَّذِي رَفَعْتَ مَعْدُ	قَدِيمًا لَا يُطَاطَأُ لِلْفَوَالِي
فُحُولُ الْمَجْدِ جَعَجَعَهَا الْمَنَايَا	وَأَسْلَمَهَا الزَّمَانُ إِلَى الْعِقَالِ
وَلَمْ يَكْ عِزُّهُمْ إِلَّا اخْتِلَاسَا	كَصَفْقٍ بِالْيَمِينِ عَلَى الشُّمَالِ
كَقَوْمِكَ لَا يُعِيدُ الدَّهْرُ قَوْمًا	وَمِثْلُ أَبِيكَ لَا تَلِدُ اللَّيَالِي
لَقَدْ رُسَّتْ حَفَائِرُهُمْ جَمِيعًا	عَلَى هَامِ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ^(١)

ومع أن رثاء النساء مركب صعب ، إلا أن الشريف يركبه كما ذكرنا سابقاً حيث يعتمد على قدرته في توليد المعاني وتذليلها ، فيجمع بين الصورة المبتكرة والحكمة البالغة والعزاء الأسى . ومن الحكم البالغة قوله في رثاء تغية بنت سيف الدولة ليثبت عراقه نسبها راسماً ذلك بصور مستوحاة من البيئة البدوية ، حيث تستشف روح العروبة الخالصة من خلال حديثه عن الحمدانيين ، وهي صور تبرز حنينه إلى البادية يقول :

إِذَا مَا الْفَحْلُ أَنْجَبَ نَاجِيَاهُ	فَقَدْ ضَمِنَ النَّجَابَةَ لِلشَّخَالِ
وَمَا طَابَتْ غَوَادِي الْمُزْنِ إِلَّا	أَطْبَرَ وَقَائِعِ الْمَاءِ الزُّلَالِ
وَكُلُّ عَقِيلَةٍ لِلْجُودِ تَمْسِي	عَطُولُ الْجِدِّ حَالِيَةِ الْفَعَالِ
كَأَنَّ خُدُورَهَا أَصْدَافُ يَمٍّ	مَحْصَنَةٌ ضُمَّنَ عَلَى لَالِ
تَعْدُ النُّوقُ مِنْ شَرَفٍ فُحُولًا	إِذَا انْتَسَبَتْ إِلَى الْعَوْدِ الْجُلَالِ ^(٢)

كما أن الشاعر قد افتتح هذه القصيدة بمقدمة حكمية وعظيمة وأخذ يبين أن الحياة في

الدنيا إلى رحيل فالبقاء فيها غير مأمون والموئل فيها مغرور ، يقول :

(١) الديوان ٢ : ١٨٦ .

(٢) الديوان ٢ : ١٨٥-١٨٦ .

نُغَالِبُ ثُمَّ تَغْلِبُنَا اللَّيَالِي
هِيَ الْأَيَّامُ جَائِرَةُ الْقَضَايَا
يَمْنَيْنُ الْوُرُودُ ، فَإِنْ دُنُوْدُ
تَطْنَبُ لِلْمَقَامِ قَبَابِ حَيٍّ
وَنَسْرَحُ إِمْنَيْنُ وَلِلْمَنَآيَا
وَكَمْ يَبْقَى الرُّمَى عَلَى النَّبَالِ
وَمُلْحَقَةُ الْأَوَاخِرِ بِالْأَوَالِي
ضَرْبُنَ عَلَى الْمَوَارِدِ بِالْحَبَالِ
وَيُخْفِرُنَا الْمُنُونُ إِلَى الرَّحَالِ
شَبَابَيْنُ الْأَخَامِصِ وَالْتَعَالِ^(١)

أما التعزية فقد كانت عند بعض الشعراء تتحول إلى بكاء على الفقيد وإشادة به تنفيساً

عن المحزونين ومداواة للقرح بالقرح حتى تثوب نفوسهم إلى رشدتها ، وتسكن بعد ثورة النواح والأنين ، وتعود الحياة إلى طبيعتها^(٢) ، لكن العزاء عند الشريف الرضى كان في معظمه مواساة وفلسفة للموت والحياة وإعلاناً من الشاعر عن إيمان وعقيدة استسلامه للموت ، وغالباً ما يوجه هذا العزاء بوساطة الحكمة . قال يعزى صديقاً في ابنته :

عَجَزْنَا عَنْ مُرَاغَمَةِ الْحِمَامِ
وَأَيْنَ نَحْوُ عَنْ طُرُقِ الْمَنَآيَا
هِيَ الْأَيَّامُ تَأْكُلُ كُلَّ حَيٍّ
وَكُلُّ مُفَارِقٍ لِلْعَيْشِ يَلْقَى
فَمَنْ وَرَدَ الْمَنِيَّةَ عَنْ وَفَاةٍ
وَلَوْ أَمِنَ الْجَبَانَ مِنَ الْمَنَآيَا
وَدَاءُ الْمَوْتِ مُغْرَى بِالْأَنَامِ
وَفِي أَيْدِي الرَّدَى طَرْفُ الزَّمَامِ
وَتَعْصِفُ بِالْكَرَامِ وَبِالْتَّامِ
كَمَا لَقِيَ الرُّضِيعُ مِنَ الْفِطَامِ
كَأَخَرِ عَائِثِ الْعَزِينِ دَامَ
لَاغَمْدَ سَيْفِهِ الْبَطْلُ الْمُتَامِ^(٣)

إن صورة الموت في نظر الشاعر واجب محتم وقدر صائر وداء مغرى بالأنام ، فإذا جاء الأجل كان حذر الإنسان وجبنه غير دافع عنه الموت .

وفي تعزية صديق له عن بنت توفيت عقب أخرى يبدأ الشاعر القصيدة بهذه الحكم مؤكداً المعاني السابقة ، يقول :

نُخْطُو وَمَا خَطُونَا إِلَّا إِلَى الْأَجَلِ
وَالْعَيْشُ يُؤْذِنُنَا بِالْمَكُوتِ أَوَّلَهُ
تَدْعُو الْمُنُونُ جَبَانًا لَا عَنَاءَ لَهُ
وَنَنْقُضِي ، وَكَأَنَّ الْعُمُرَ لَمْ يَطْلُ
وَنَحْنُ نَرْغَبُ فِي الْأَيَّامِ وَالِدُولِ
مُحَلًّا عَنْ ظُهُورِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ

(١) الديوان ٢ : ١٨٤-١٨٥ .

(٢) انظر عبد الرشيد سالم - شعر الرثاء واستنهاض العرائس ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ٩٣ .

(٣) الديوان ٢ : ٣٣٠-٣٣١ .

وَيَسْلُمُ الْبَطْلُ الْمُوفِيُّ بِسَابِحَةٍ
وَالْمَرْءُ يَطْلُبُهُ حَتْفٌ فَيَدْرِكُهُ
لَيْسَ الْفَنَاءُ بِمَأْمُونٍ عَلَى أَحَدٍ
مَشْيًا عَلَى الْبَيْضِ وَالْأَسْلَاءِ وَالْقَلَلِ
وَقَدْ نَجَا مِنْ قِرَاعِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
وَلَا الْبَقَاءُ بِمَقْصُورٍ عَلَى رَجُلٍ^(١)

ويتساءل الشاعر بعد هذا الحديث عن حتمية الموت ما الذي يدفع الناس إلى الاغترار بالدنيا؟ هل بوردها أم بنعيمها ؟ أم ميعادها الممتطول ؟ فنحن نرجو البقاء وكأننا لم نختبر عادات هذا الزمان، فسلطان الليالي غالب، حيث يبيح كل ممنوع ويغض من طموح كل جليل، فيقول في تعزية أبي سعيد بن خلف عن اخته :

أَتُرَى بِمَا نَغْتَرُّ مِنْ أَيَّامِنَا
أَبُورِدَهَا الْمَطْرُوقِ أَوْ بِنَعِيمِهَا
نَرْجُو الْبَقَاءَ كَأَنَّا لَمْ نَخْتَبِرْ
لَكِنَّ سُلْطَانَ اللَّيَالِي غَالِبٌ
وَنُطِيلُ مِنْ أَمَلٍ لَهْنٍ طَوِيلٍ
مَمْدُوقٍ، أَمْ مِيعَادَهَا الْمَمْطُولِ
عَادَاتِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْبُولِ
عَزَمِي وَقَطَّاعٌ عَلَى سَيْلِي^(٢)

ولم تختلف التعزية في البنات عن التعزية في الأبناء عند الشريف الرضي كما كان الحال عند كثير من الشعراء السابقين ، إذ كانوا يظهرن حزنهم على الابن الفقيد وهم يعززون غيرهم بوفاته ولم يظهرن هذا الحزن عند التعزية بالبنات ، حيث بقيت النظرة الجاهلية مسيطرة على أذهان بعضهم ومنهم البحرري حين عزى أحد بني حميد بموت ابنته فاعتمد على الإنقاص من قيمة البنت ومنزلتها كما في قوله:

أَتَبْكِي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيِّءِ
وَالْفَتَى مَنْ رَأَى الْقُبُورَ لَمَّا طَا
لَسَنْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ كَعَدِّ النَّ
قَدْ وَلَدَنْ الْأَعْدَاءَ قَدَمًا وَوَرَثَ
لَمْ يَنْدُ كَثْرُهُنَّ قَيْسُ تَمِيمٍ
فِ مَشِيحًا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ
فَ بِهِ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْفَاءُ
لِ مِنْهَا الْأُمُورُ وَالْأَبْنَاءُ
نَ التِّلَادِ الْأَقَاصِي الْبُعْدَاءُ
عَيْلُهُ، بَلْ حَمِيَّةٌ وَإِبَاءُ^(٣)

(١) الديوان ٢ : ١٨٨-١٨٩ .

(٢) الديوان ٢ : ١٨٢-١٨٣ .

(٣) البحرري الديوان ١ : ٤٠ .

لكن الشريف لم ينطلق أبداً من هذه القيم وهو يعزّي غيره بموت ابنته إذ لنا بعد هذا أن نواجه في رؤى الرضي في المحور الاجتماعي نموذجاً فكرياً متميزاً نرى بواعثه كامنة في شخصيته المتميزة وثقافته العميقة وإيمانه الراسخ بقيم الأمة وتعاليم الرسالة الإسلامية السمحة^(١). فيها هو يجعل من الأجر المعدّ للأب عنصراً رئيساً في تعزيته أحد أصدقائه وهو يدعو به إلى عدم المغالاة بالحزن لأن فيه إثماً كبيراً يقول :

عَزَاءَكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، فَكُلُّ حُزْنٍ
يُؤُولُ بِهِ الْغُلُوُّ إِلَى الْأَثَامِ
وَعَمْرُ الْمَرْءِ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ
وَلَا عَمْرٍ يَقْرُ عَلَى التَّمَامِ^(٢)

وكثيراً ما نراه يميل إلى إقناع من يعزّيه في بناتهم بضرورة السلوان والتسليم لأمر الله والإيمان بقضائه وقدره ، ففي تعزيته لأبي سعد بن خلف عن أخته ينطلق من هذه العقيدة ، فيطلب منه أن يصبر على المصائب لأن الصبر جميل ، ويذكره بأن حكم الله ماض وأقداره جارية على الصعب والأذلّول كما في قوله :

صَبْرًا جَمِيلًا يَا عَلِيُّ قَرِيبًا
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ وَجْداً نَافِعاً
وَجَعَلْتُ تَصْعِيبَ الْمُصَابِ مُعْظِماً
لَكُنْهَا الْأَقْدَارُ يَمْضِي حُكْمُهَا
صَبْرَ الْفَتَى وَالصَّبْرُ غَيْرُ جَمِيلٍ
لَقَدَحْتُ فِيكَ بِزَفْرَةٍ وَغَلِيلٍ
مِنْ شَأْنِهِ بَدَلًا مِنَ التَّسْهِيلِ
أَبْدًا عَلَى الْأَصْعُوبِ وَالْأَذْلُولِ^(٣)

وفي تعزية صديق له عن ابنة توفيت عقب أخرى يعزّي والد المتوفاة بأن الدنيا مفارقة والإنسان يغتر بها إذا طال عمره، ثم يقول له : جاء الموت ابنتيك الثانية بعد الأولى فسقاك الأسى عللاً على نهل ، ويطلب منه أن لا يشكو زماناً هو رهن في يده وليس له بالأقدار من قبل ، يقول :

(١) محمود الجادر ، الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية ١٢٩ .

(٢) الديوان ٢ : ٣٣١ .

(٣) الديوان ٢ : ١٨٤ .

نَعَزَ مَا اسْطَعْتَ ، فَالدُّنْيَا مُفَارِقَةٌ
وَلَا تَسْكَ زَمَانًا أَنْتَ فِي يَدِهِ
عَادَ الْحِمَامُ لِأُخْرَى بَعْدَ مَاضِيَةٍ
مَنْ مَاتَ لَمْ يَلْقَ مَنْ يَحْيَا يَلَانِمُهُ
وَالْعُمَرُ يُعْنَقُ وَالْمَعْرُورُ رَفِي شُغْلِهِ
رَهْنٌ فَمَا لَكَ بِالْأَقْدَارِ مِنْ قَبْلِ
حَتَّى سَقَاكَ الْأَسَى عَلَا عَلَى نَهْلِهِ
فَكُنْ بِكُلِّ مُصَابٍ غَيْرِ مُحْتَقِلٍ^(١)

ومن القيم الإسلامية التي وردت في تعزية الشريف لصديقه في هذه القصيدة أن يدعو

إلى عدم المغالاة في الحزن والبكاء انطلاقاً من قول الرسول عليه الصلاة والسلام - عند وفاة

ولده إبراهيم : "إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا

إبراهيم لمحزونون"^(٢) . فقال في ختام القصيدة :

هَذَا الْعَزَاءُ وَإِنْ تَحْزَنَ فَلَا عَجَبٌ
وَكَيْفَ نَعْذُلُ مَنْ يَبْكِي لِمَيْتِهِ
إِنَّ الْبُكَاءَ بِقَدْرِ الْحَادِثِ الْجَلِيلِ
وَنَحْنُ نَبْكِي عَلَى أَيَّامِنَا الْأُولِ^(٣)

وقد اختلف الأمر قليلاً عند تعزية الرضى للملوك والوزراء في بنائهم وأمھاتھم ، إذ

كانت التعزية تقوم على التھوين من شأن المصاب ، فمتى سلم الملك أو الوزير ، ففي وجوده

خلف عن كل فائت . وليس في هذا إنقاص من قدر المرأة بقدر ما هو مديح للمعزى ، حيث

جمع الشاعر في هذه التعزية بين مدح المعزى ورتاء المتوفاة ، فعند تعزيتة للوزير أبي منصور

ابن صالح عن والدته ، نراه بعد أن يبدأ القصيدة بخواطر فلسفية حول الموت والحياة ، وأن

أرواحنا دين والزمان غريمها ، وأنفاسنا قضاء لهذا الدين ، ثم يعزي الوزير ويواسيه بأن البكاء

لا يجدي ويجب محاربتة ، ويمدحه مھونا من شأن هذه المصيبة بقوله : إن هذه الوالدة لا

يضيرها قدومها على الموت ما دمت أنت وراءها ، لأنك بعدها كالجبل الشامخ لا يرام ، فممتلك

فلتلد النساء وإلا فلا ، ثم يصفه بالشجاعة والإقدام ، يقول :

مَا ضَرَّ رَاحِلَةً ، وَأَنْتَ وَرَاءَهَا
مَنْ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُنُونِ قُدُومَهَا

(١) الديوان ٢ : ١٨٩ .

(٢) ابن حجر - فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٧٥١ - ١٧٥٢ .

(٣) الديوان ٢ : ١٩٠ .

هَلْ خُبِّرْتُ لَمَّا أَتَتْ بِكَ مَا الَّذِي
أَمْ هَلْ كَرِهْتُ أَنْ الْحَسَامَ جَنِينُهَا
وَكَاثَتْ فَلْتَلِدِ النَّسَاءُ نَبَاهُكَ
فِي مَهْدِهَا ، أَوْ مَا يَضُمُّ مَضِيمُهَا
طَلَقًا ، وَأَنْ أَبَا الْعَلَاءِ فَطِيمُهَا
أَوْ لَا ، فَمُنْجِبَةُ النَّسَاءِ عَقِيمُهَا^(١)

ومن صور المدح التي عزى بها الشريف الملك بهاء الدولة عن ابنته أن جعل وجود

الملك وحياته عوضاً عن موتها وما للناس من عوض عنه لو مات ، يقول :

لَهَا نَ الْغَمْدُ مَا بَقِيَ الْحَسَامُ
وَأَهْوَنُ بِالْمَنَاجِبِ يَوْمٌ يَبْقَى
وَمَا شَكْوَى الْمَنَاهِلِ حِينَ تُمْسِي
وَمَا شَرُّ تَطَاوَحٍ عَنْ زِنَادٍ
وَبَعْضُ النَّقْصِ ، أَوْ نَهْ ، تَمَامُ
لَنَا الرَّأْسُ الْمُقَدَّمُ وَالسَّنَامُ
مَغِيضَةٌ ، إِذَا بَقِيَ الْغَمَامُ
بِمُقْتَدٍ ، إِذَا بَقِيَ الضَّرَامُ^(٢)

ففي الأبيات دلالة على مكانة المرأة حين جعلها كالغمد للحسام وكالمنكب للرأس ، فلا

الحسام يستغنى عن غمده ولا الرأس يستغنى عن منكبيه ، كما أنه بدون الشرر لا يكون الضرام ،

وما تغنى الشاعر بملوك بني بويه وأمجادهم في هذه القصيدة وعلى رأسهم الملك بهاء الدولة إلا

ليبين لنا أن من ماتت وخلقت وراءها كل هؤلاء البهاليل ، وكل ذلك المجد ، فلا يضيرها موتها ،

إذا فليدم بهاء الدولة ما دام له بقاء في الدنيا ، وليكن أمامه التقدم في المعالي ، وفي الأجل

التأخر والمقام ، يقول :

قَدْ مَ مَا طَابَ لِلْبَاقِي بَقَاءُ
وَمَا حَسُنَ التَّلَوُّمُ وَالِدُومُ
فَلَا كَشَفَ الضُّيَاءِ عَلَى اللَّيَالِي
وَلَا عَدِمَ الْغِيَاثُ وَلَا الْقُومُ
يَكُونُ لَكَ التَّقَدُّمُ فِي الْمَعَالِي
وَفِي الْأَجْلِ التَّأَخُّرُ وَالْمَقَامُ^(٣)

هذا وقد استخدم الشاعر الحديث عن فناء الأمم السابقة عند تعزيزه في البنات كما فعل

ذلك في كثير من قصائده فضرب الأمثلة بهذه الأمم التي بلغت أقصى مجدها ثم اندثرت

^(١) الديوان ٢ : ٣٤٦ .

^(٢) الديوان ٢ : ٢٤٢ - ٢٤٣ .

^(٣) الديوان ٢ : ٢٤٥ .

وفنيت. فعندما عزى أخاه المرتضى عن ابنته أشار إلى هذه الأمم ومجدها، فكم دعموا القباب
وطبقوا السهول والجبال لا يرهبون العدا فجاءهم الموت كالسيوف القاطعة التي تبذر الرقاب ،
هذا الموت الذي قطع الأقران والأسباب وفرق الجيران والأحباب واستدرج العبيد والأرباب ،
كما يقول :

مَا غَابَ مِنَّا غَائِبٌ فَأَبَا
وَأَسْتَفْسَحُوا الْأَعْطَانَ وَ الرَّحَابَا
لَا يَرْهَبُونَ لِلْعُدَى ذُبَابَا
جَرَّ عَلَى دَارِهِمْ ذُنَابَا
كَمْ قَطَعَ الْأَقْرَانَ وَالْأَسْبَابَا
وَأَسْتَدْرَجَ الْعَبِيدَ وَالْأَرْبَابَا
وَرُبَّ حَيٍّ دَعَمُوا الْقَبَابَا
وَوَطَّبُوا السَّهُولَ وَالْعُقَابَا
أَمْسُوا لَقَاحَا ، وَغَدُوا نِهَابَا
وَأَتَبَعَ الْقَوَادِمَ الذُّنَابَا
وَفَرَّقَ الْجِيرَانَ وَالْأَحْبَابَا
سَيْلُ رُدَى قَدْ مَلَأَ الشَّعَابَا^(١)

كما يعزى الشاعر أبا سعيد بن خلف عن وفاة أخته ويواسيه بموت جذيمة (ملك الحيرة)
وردفيه (نديميه) مالك وعقيل ، وملوك اليمن التابعة حيث أنزلهم الموت من نجواتهم ، وال
المنذرين حيث ودعوا الحيرة البيضاء ، كما سطا الموت على ابني قيصر وأصحاب التيجان من
الجبابرة الذين رفعوا القباب وكانوا يظنون أن عهدهم دائم في العز والعلواء غير محيل ، إلى أن
نزل القضاء به فعاد كان لم يغن بالأمس يقول :

أَعْدَى جَذِيمَةَ بِالرَّدَى وَعَدَا عَلَى
وَأَسْتَنْزَلَ الْأَذْوَاءَ عَنْ نَجَوَاتِهِمْ
وَحَدَا بِأَلِ الْمُنْذِرِينَ ، فَوَدَّعُوا
وَسَطَا عَلَى أَبْنَاءِ قَيْصَرَ سَطْوَةٌ
وَأَعَادَ إِيَّوَانِ الْمَدَائِنِ مُحَرَّمَا
وَهَوَى بِتِيْجَانِ الْجَبَابِرَةِ الْأَلَى
مَنْ كُلُّ أَغْلَبَ كَانَ يَحْسِبُ عَهْدَهُ
نَزَلَ الْقَضَاءُ بِهِ ، فَعَادَ كَأَنَّهُ
رَدَفَى جَذِيمَةَ مَالِكٍ وَعَقِيلِ
فَغَدُوا نَوَى ضَرْعٍ وَطُولِ خُمُولِ
بِالْحِيرَةِ الْبَيْضَاءِ كُلِّ مَقِيلِ
أَمَّا ، فَأَجَلَتْ عَنْ دَمٍ مَطْلُولِ
عُرْيَانٍ مِنْ بَرْدِ الْعُلَى الْمَسْدُولِ
عَنْ كُلِّ مَطْرُورٍ الْغَرَارِ صَقِيلِ
فِي الْعِزِّ وَالْعُلْيَاءِ غَيْرِ مُحِيلِ
لَمْ يَغْنُ أَمْسٍ بِطَارِقٍ وَنَزِيلِ^(٢)

(١) الديوان ١ : ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) الديوان ٢ : ١٨٣ - ١٨٤ .

وهكذا فإن كثرة التأسي بموت السابقين في هذا المقام تعني أن الشاعر يلجّ على نفسه، ويشدّد في تعزية غيره مما يقوي الشعور بصدق العاطفة عند الشريف الرضي في قصائد رثائه.

الرثاء العام :

وهو النوع الثالث من الرثاء الاجتماعي، ونريد به رثاء الشخصيات البارزة في المجتمع، والتي لها دور بارز في الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية، من علماء وشعراء وفقهاء. وفي هذا النوع من الرثاء، بكى الشريف الرضي: أستاذه أبا علي الحسن بن أحمد الفارسي النحوي^(١)، وأبا محمد يوسف بن الحسن بن عبدالله بن أبي سعيد السيرافي النحوي^(٢)، كما رثى أستاذه من بني العباس، أبا عبدالله بن الإمام المنصوري (ت ٣٩١هـ)^(٣)، "وهو رجل هاشميّ متبحر في علوم اللغة"^(٤). وأستاذه أبا الفتح عثمان بن جني^(٥). ورثى من الفقهاء أحد فقهاء الشيعة لم يذكر اسمه^(٦). ورثى من الشعراء أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجاج ت(٣٩١هـ)^(٧).

^(١) الديوان ١: ٥٩٩-٦٠٠، وهو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد العمار الفارسي النحوي، ولد عامه مبنا، وكان إمام وفقيه في علم النحو، تقدم عند عضد الدولة الموبهي، وصف له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، ولد سنة (٢٨٨هـ)، وتوفي سنة (٣٧٧هـ). بغداد. ابن حليكان - وفیات الأعيان ٢: ٨٠-٨١، والسيوطي - نغية الوعاءة في طبقات اللغويين والمحاذاة، تحقيق محمد أبو الفصور إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩، ١: ٤٩٦.

^(٢) الديوان ١: ٦٤٨-٦٤٩، من علماء العربية، قرأ على والده وحلّقه في جمع علومه، له شرح أبيات الكتاب، وشرح أبيات العرب المصنف وغيرها، له تقدّم في اللغة العربية وبصاعة في العلوم النافية، توفي سنة (٣٨٥هـ). السيوطي - نغية الوعاءة ٢: ٣٥٥.

^(٣) الديوان ٢: ٣٩٢-٣٩٧.

^(٤) إحصان عباس - الشريف الرضي ٢٠٨. وذكر إحصان عباس في هذه الصفحة أن الشريف الرضي وباد بالفتبدة التي مطلعها:

فف موقف الشك لا بأس ولا طمع وعالم العسر لا حسر ولا حراج

وهو وهم وقع فيه الدكتور إحصان عباس، لأن تاريخ وفاة أبي عبد الله كان سنة (٣٩١هـ)، وهذه الفتبدة مؤرخة في الديوان سنة (٣٨٧هـ).

^(٥) الديوان ٢: ٥٨-٦١، وهو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي، كان إماماً في علم العربية، قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي، وكان أبود جني مملوكاً. له تصانيف كثيرة، توفي في بغداد سنة (٣٩٢هـ). ابن حليكان - وفیات الأعيان، ٣: ٢٤٦-٢٤٧. والمخطب العدادي - تاريخ بغداد ١١: ٣١١.

^(٦) الديوان ١: ٤٢٤.

^(٧) الديوان ٢: ٣٧٦-٣٧٧. هو شاعر مقلد، من سحرة الشعر وعلمائ العصر، وقد أجمع أهل الأدب على أنه اخترع طريقته في المحون والخلاعة وله مع ذلك أشياء حسنة لكنها قليلة. النحوي - معجم الأدباء ٣: ١٠٤٠. وابن كثير - البداية والنهاية، ١١: ٣٥١-٣٥٢.

سبق الحديث عن اهتمام الرضي بالنص على بلاغة الكتاب والأدباء ، فهذه حال الشريف عند رثائه للعلماء والأدباء والشعراء، فإن له مداخل في الرثاء يستمدّها من شخصية المرثي، وطبيعة حياته، وما قد أحاط بها، فتكون مرثاته مطابقة لمقتضى الحال، ففي رثائه للعلماء والأدباء "تطغى الوظيفة البلاغية، وتتحقّق غاية الفن الجمالية، وينحو الأسلوب منحى ممتعاً"^(١). وهذه الملاءمة واضحة عند رثائه لأستاذه أبي علي الفارسي أحد أقطاب النحو، فقد رثاه بأرجوزة "اختار لها رويًا يناسب مقام أبي علي العالي في النحو واللغة"^(٢)، وبدأها بالإشادة بقدرته على مقارعة الخصوم وكشفه عن الأقوال الصائبة، وحله لمعضل المشكلات، حيث تميز الصواب من الخطأ، وصقلت الأفهام بهذه الأقوال السائرة التي لا يجاريه فيها أحد، فهو مصعب للقول صعب الممتطي، أقواله سائرة، وشوارده ممتعة، يقول:

أَبَا عَلِيٍّ لِلْأَلَدِّ إِنْ سَطَا	وَلِلْخُصُومِ إِنْ أَطَالُوا اللَّغَطَا
تُصِيبُ عَمْدًا إِنْ أَصَابُوا غَلَطَا	وَلَمْعٌ تَكْشِفُ عَنْهُمْ الْغِطَا
كَشَفَكَ عَنْ بَيْضِ الْعَذَارِيِّ الْغِطَا	وَمُصْعَبٌ لِلْقَوْلِ صَعْبِ الْمُمْتَطَا
عَسَفَتْ حَتَّى عَادَ مَجْزُولُ الْمِطَا	دَامِي الْمِلَاطِ رَحْلُهُ قَدْ أُغْطَا
وَسَائِرَاتٍ بِالْخُطَى لَا بِالْخِطَا	شَوَارِدٍ عَنْكَ قَطَعْنَ الرُّبُطَا
كَمَا رَأَيْتَ الْخَيْلَ تَعْدُو الْمُرْطَى	أَلْبَسَتْ فِيهَا كُلَّ أَدْنٍ قُرْطَا ^(٣)

فالشاعر يعبر عن مقدرة الفارسي العلمية، فاختر الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك وأوردها في قالب تشبيهي ممتع، ويذكر فضله عليه بهذا العلم وعلى سائر المتعلمين، حيث وردت هذه المسائل إلى أفهامهم ورد القط، ويشبه أبا علي بالفحل الكريم من الإبل، حيث يهدر بأقواله فلا يستطيع أحد أن يجاريه، ويبعث في نفوس خصومه الملل فيعجزون عن مصاولته، فهو السابق بهذا العلم وهم له تبع يقول :

(١) عبد اللطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومطلقاته الفكرية ٢٦٨ .

(٢) عبد الفتاح الخلو - الشريف الرضي ١ : ٢٧٣ .

(٣) الديوان ١ : ٥٩٩ - ٦٠٠ .

قَدْ وَرَدَتْ أَفْهَامُنَا وَرَدَ الْقَطَا
عَطَالُهَا بِمَقُولٍ ، إِذَا عَطَا
غُلُّ مَا بَيْنَ الْعِقَاصِ الْمَشْطَا
مَلُّوا مُجَارَاةً فَنِيَقُ قَدْ مَطَا
مُلُّ الْمُطَيِّ الْقَرَبُ الْعُنْطُنُطَا
وَمُشْكَلاتٍ مَا نَشْطُنُ مَنَشْطَا
مَيَّرُ مِنْ كَيِّجُورِهَا مَا اخْتَلَطَا
ضَلَّ الْمُجَارُونَ وَمَا تَوَرَّضَا
قَرَمَ يَهْدُ الْأَرْضُ إِنْ تَحْمَطَا
تَطَرَّفُوا الْفَجَّ الَّذِي تَوَسَّطَا^(١)

ونص على بلاغة أستاذه ابن جني وتأسف لذهابها بموته، وقد وصفه " بسياسة القول، ولا

يلتفت الى سياسة القول إلا الشعراء المتقفون الذين راضتهم الأيام على وزن مقامات البيان"^(٢) .

ووصف ما تفرد به ابن جني في زمانه من شرح أوابي القول وبلوها وسوقها، ومن استنباط

المعاني والأفكار، لأن الرضي يؤمن بقوة الكلام البليغ، والفصاحة هي أحسن خصلة امتدحها

الشريف في الرجال وأحسن وصفها كما يقول :

فَمَنْ لِأَوَابِي الْقَوْلِ يَبْلُو عَرَائِهَا
إِذَا صَاحَ فِي أَعْقَابِهَا أَطَرَدَتْ لَهُ
وَسُومُهَا مُلَسَّ الْمُتُونِ كَأَنَّهَُا
تَغْلُغُلُ فِي أَعْقَابِهَا وَسُومُهَا
وَمَنْ لِلْمَعَانِي فِي الْأَكْمَةِ الْقِيَتْ
يُطَوِّحُ فِي أَثْنَانِهَا بِضُمِّيرِهِ
تُسَنَّمُ أَعْلَى طَوْدِهَا غَيْرُ عَائِرٍ
وَيَحْذِفُهَا حَذْفَ النَّبَالِ الْمَوَارِقِ
تَوَانِي بِالْأَعْنَاقِ طَرْدُ الْوَسَائِقِ
نَزَائِعُ مِنَ الْوَجِيهِ وَالْأَحْقِ
بِأَبْقَى بَقَاءٍ مِنْ وَسُومِ الْإِيَانِ
إِلَى بَاقِرٍ غَيْبِ الْمَعَانِي وَفَائِقِ
مَرِيرِ الْقَوَى وَلَا جِ تِلْكَ الْمَضَائِقِ
وَجَاوَزَ أَقْصَى دَحْضِهَا غَيْرُ زَائِقِ^(٣)

فالشاعر يصور لنا فداحة الخطب وعظم المصيبة بعالم اللغة ابن جني من خلال بيانه

أثر موته على ما له علاقة به.

(١) الديوان ١ : ٦٠٠ .

(٢) وكبي مبارك - عمقيرة الشريف الرضي ١ : ٦٤ .

(٣) الديوان ٢ : ٦٠ .

وإذا كان المتوفى من علماء الفقه ، فإنه يمدحه بإقامة عماد الدين، وإحكام عقده، حيث يلجم أفواه المجادلين. ولهذا يستسقى له عفو الله لأنه بعلمه وبفقهه كالغيث الذي يتنزل من السماء غزيراً ويعم جميع الخلق ، ويخبر أن النبي ورهطه محامون عنه لإقامته أحكام الدين، إذ قال في رثاء فقيه شيعي لم يذكر اسمه:

جَزَتْكَ الْجَوَازِي عَنْ عِمَادٍ أَقَمْتَهَا	وَعَنْ عَقْدٍ لِلدِّينِ أَحْكَمْتَهَا شَدَا
وَذِي جَدَلٍ أَلْجَمْتَ فَاهُ بَعْضَتُهُ	تَلْجُلُجٌ فِيهِ ، لَا مَسَاغَا وَلَا رَدَا
فَعَسَتْ لَهُ حَتَّى التَّقِيَتْ سِهَامَهُ	وَأُثْبِتَ فِي تَأْمُورٍ مِنَ الْحُجَجِ اللُّدَا
وَمَزَلَقَهُ لِلْقَوْلِ مَا شِئْتَ دَحْضَهَا	وَقَدْ زَلَّ عَنْهَا مَنْ أَعَادَ وَمَنْ أَبْدَى
وَإِنِّي لَأَسْتَسْقِي لَكَ اللَّهُ عَفْوَهُ	وَيَا لَكَ غَيْثًا مَا أَعَمَّ وَمَا أَنْدَى
وَأَخْلِقُ بِمَنْ كَانَ النَّبِيُّ وَرَهْطُهُ	مُحَامِينَ عَنْهُ أَنْ يَفُوزَ وَلَا يَرُدَى ^(١)

وإذا كان المتوفى شاعراً فإنه يصف قصائده ومضاء لسانه، كما فعل في رثاء ابن الحجاج، فإنه يبكيه لقصائده السائرات، التي تعبق أفاضها بالمعاني، ويعجب كيف تغل المنون مضارب ذاك اللسان الحاد، ويصف حدته بنصل السيف، فالشجاع يهاب غضبه، والملوك تعنو له خيفة يقول:

بَكَيْتُكَ لِلشَّرِّ رَدِّ السَّائِرَا	تِ تَعْبِقُ الْفَاضُهَا بِالْمَعَانِي
فَعَاقَبَهُنَّ تَشُنُّ الْحُتُوفَ	إِذَا هُنَّ أَوْ عَدُنَّ لَا بِالسَّنَانِ
وَمَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الْمُنُونِ	تَقُلُّ مَضَارِبَ ذَاكَ اللِّسَانِ
لِسَانُهُ هُوَ الْأَزْرَقُ الْقَعْظِي	تَضْمَضُ مِنْ رِيْقَةِ الْأَفْعُوَانِ
لَهُ شَفَا مِبْرَدِ الْهَالِكِي	أَنْحَى بِجَانِبِهِ غَيْرَ وَأَنْبِي
إِذَا لَزَّ بِالْعَرَضِ مِبْرَاتُهُ	تَصْدَعُ صَدْعَ الرُّكَاءِ الْيَمَانِي
يَهَابُ الشُّجَاعِ غَذَامِيرُهُ	عَلَى الْبَعْدِ مِنْهُ مَهَابُ الْجَبَانِ
وَتَعْنُو الْمُلُوكُ لَهُ خِيفَةً	إِذَا رَاعَ قَبْلَ اللَّظَى بِالْذُّخَانِ ^(٢)

(١) الديوان ١: ٤٢٤ .

(٢) الديوان ٢: ٣٧٦-٣٧٧ .

وقد اشتهر هذا الشاعر بالشعر الماجن، قال عنه الثعالبي: "كان في أكثر شعره لا يستتر
 من العقل بسجف، ولا يبني جل قوله إلا على سخف"^(١) وذكر الدكتور محمود غناوي الزهيري
 أن ابن سكرة وابن حجاج، أعظم شاعرين ماجنين بين شعراء العربية على الإطلاق^(٢). "إذ لم
 يتحرجا من أن يقولوا أقبح المعاني في أصرح لفظ، ومع ذلك جرى شعرهما في الناس"^(٣).

لكن الشريف الرضي يصف مجون ابن الحجاج بأنه خفة روح الزمان :

لِيَبْكُ الزَّمَانُ طَوِيلًا عَلَيَّكَ فَقَدْ كُنْتَ خِفَةً رُوحَ الزَّمَانِ^(٤)

ولا يعني هذا أن الشريف كان يحب الشعر الماجن أو يميل إلى مجون ابن الحجاج، لأنه
 عندما قام بجمع بعض شعر ابن الحجاج في كتاب أسماه: "الحسن من شعر الحسين"^(٥) اختار له
 أشعارا تخلو تماما من الفحش والخلاعة والمجون، لكنه يريد أن يسوغ علاقته بهذا الشاعر،
 القائمة على الولاء وصلته الفكر، والتي فضلها الشريف على صلة الدم يقول:

رَضِيعُ وَلَاءٍ لَهُ شُعْبَةٌ مِنْ الْقَلْبِ فَوْقَ رَضِيعِ اللَّبَانِ^(٦)

ولعل هذه الصلة كانت حسب رأي الدكتور زكي مبارك "لبعض الوفاق بين المذاهب
 الدينية أو السياسية، فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت"^(٧)، لكن هذه ليست كل الأسباب
 كما يقول الدكتور زكي مبارك، إذ كانت له وثبات شعرية قليلة الأمثال^(٨).

والشاعر وفي للعلماء، فهو وفي لأستاذه ابن جني، الذي علمه ثم أكرمه بشرح قصيدة

من قصائده، وهي القصيدة الرائعة في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني ومطلعها:

(١) الثعالبي - نعمة البحر ٣ : ٢٥ .

(٢) محمود غناوي الزهيري - الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، شارع الفحالة، مصر، ١٩٤٩، ٢٧٨ .

(٣) أحمد أمين - ظهير الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٦، ١٤١ .

(٤) الديوان ٢ : ٣٧٧ .

(٥) ابن عنترة - عمدة الطالب ١٨٤ .

(٦) الديوان ٢ : ٣٧٦ .

(٧) زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي ٨٥ : ١ .

(٨) المرجع نفسه ٨٦ : ١ .

أَلْقَى السَّلَاحَ رَبِيعَةَ بَنَ نِزَارٍ أَوْدَى الرَّدَى بِقَرِيعِكَ الْمَعْوَارِ^(١)

فصلّى عليه حين مات^(٢) ورثاه بهذه القصيدة التي أثبت فيها أنه أحب أساتذته إليه، حتى

قال إنه شقيقه، ليدل على عمق علاقته به، فكلمة شقيق أدخل في باب الأخوة من كلمة أخ يقول:

شَقِيقِي إِذَا التَّائِثُ الشَّقِيقُ وَأَعْرَضَتْ خَلَائِقُ قَوْمِي جَانِبًا عَنْ خَلَائِقِي^(٣)

والرّضى وفى لكل العلماء ليس فقط لأساتذته ، ففي مرثاته للسيرافي يشير إلى أنه قال

هذه القصيدة ليحافظ على ما ضيع الناس من الوفاء ، وتحدث عن غدر الناس، حيث نسي هذا

العالم الجليل من كان أسرع الناس إلى أمره نهضة، وكأنى به يريد أن يبين للناس أن عدم الوفاء

للعلماء الأجلاء، غدر بهم وبعلمهم ، يقول:

يَا يَوْسُفُ، ابْنُ أَبِي سَعِيدٍ دَعَاؤُهُ أَوْحَى إِلَيْكَ بِهَا ضَمِيرٌ مُوجَعٌ
إِنَّ الْفَجَائِعَ بِالرَّجَالِ كَثِيرَةٌ وَلَقَدْ مَنْ يَزْعَى وَمَنْ يَنْفَجَعُ
لَمَّا رَأَيْتَ النَّاسَ بَعْدَكَ نَكَبُوا سَنَنَ الْحِفَاطِ فَعَادُوا وَمُضِيعُ
قَرُطُسْتُ فِي غَرَضِ الْوَفَاءِ بِقَوْلِهِ لَا كُونَ بَعْدَكَ حَافِظًا مَا ضَيَعُوا
مَنْ كَانَ أَسْرَعَ عِنْدَ أَمْرِكَ نَهْضَةً قَدْ بَاتَ ، وَهُوَ إِلَى سُلُوكِكَ أَسْرَعُ
كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَمْ يَدُمْ لَكَ عَهْدُهُ قَدْ كَانَ مِنْكَ بِحَيْثُ تَنْتَلِي الْإِصْبَعُ^(٤)

ثم يشير إلى أن هذه المصيبة وقعت بعد مصيبتة بموت الصاحب بن عباد بأيام،

فأصبحت قرفا على قرح، والقرف على القرح موجه ، يقول:

لَمْ يَنْسِنَا كَافِيَ الْكُفَاةِ مُصَابِكُهُ حَتَّى رَمَانَا فِيكَ خُطْبٌ مِظْلَعُ
قَرَفٌ عَلَى قَرْحٍ تَقَارِبُ عَهْدُهُ إِنَّ الْقُرُوفَ عَلَى الْقُرُوحِ الْأَوْجَعُ^(٥)

(١) الديوان ١ : ٥١٩ .

(٢) إحسان عباس - الشريف الرضي ١ : ١٠٣ .

(٣) الديوان ٢ : ٦٠ .

(٤) الديوان ١ : ٦٤٨ .

(٥) الديوان ١ : ٦٤٨ .

وقد رثاه بقصيدة قصيرة بلغت خمسة عشر بيتاً، واعتذر عن قصرها بقوله:

مَا كُنْتُ أَبْخُلُ أَنْ أَطِيلَ لَوْ أَنَّكَ
يَجْدِي الْمَطِيلُ إِذَا أَطَالَ وَيَنْفَعُ
لَكِنَّهُ سَيَّانٌ مَنْ تُجْرِي لَكَ
عِنْدَ الْفَجَائِعِ دَمْعَةٌ أَوْ أَدْمَعٌ^(١)

وقد برزت في تلك القصائد ظاهرة شكوى الموت، حيث أخذ هذا الموت من كانوا يملؤون الأرض علماً، فتركوا بموتهم ثلماً لا يبرأ. ففي رثائه لابن جني شكا الموت بعد أن أحس بكثرة من يودعهم إلى القبر، فنحس في بداية قصيدته بهاجس الشعور بالوحدة والاعتراب، إذ يورق الشاعر موت أستاذه الذي استحال غربة في حياته، يقول:

أَلَا يَا لِقَوْمِي لِلْخُطُوبِ الطُّوَارِقِ
وَلِلدَّهْرِ يَجْرِي جَانِبِي مِنْ أَقَارِبِي
وَلِلنَّفْسِ قَدْ طَارَتْ شُعَاعاً مِنَ الْجَوَى
لَهَا كُلُّ يَوْمٍ مَوْفِقٌ مَعَ مُوَدَّعِ
نُجُومٍ مِنَ الْإِخْوَانِ يَرْمِي بِنَا الرَّدَى
وَاللِعَظْمِ يَرْمِي كُلُّ يَوْمٍ بِعَارِقِ
وَيَقْطَعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَصْدَاقِ
لِفَقْدِ الصَّفَايَا وَانْقِطَاعِ السَّعَادَاتِ
وَمُلْتَقَاتِ فِي عَقَبِ مَاضٍ مُفَارِقِ
مَقَارِبِهَا فَوْتُ الْعَيْنِ الزَّوَامِقِ^(٢)

فالموت يلقي ظلالاً من الحزن والفجعة في قلب الشاعر، يدفعه إلى البكاء والشكوى وإظهار الحزن والتفجع لفقد أحابيه، فضلاً عن تذكره نهايته المحتومة، هذه النهاية التي دفعته إلى القلق والخوف من مصيره لأن "القلق الأسمى الذي يخيم على الحياة كلها، إنما هو ما نسميه باسم الموت... بل هو قلق دفين يندس في خبايا الشعور، حتى إننا لنكاد نتذوق طعم الموت في كل شيء"^(٣)، ومن هنا بدا الشاعر في رثائه لابن جني كأنه يرثى نفسه، حيث لم يطب له العيش في غياب أستاذه مما شكل اضطراباً وقلقاً في نفس الشاعر يقول:

كَأَنِّي، إِذَا مَا تَبَعْتُ أَثَارَ غَارِبِ
كَأَنَا قَدْ يَرْمِي بِهِ السَّيْلُ كُلَّمَا
أَعْضُ بِنَانِي إِصْبَعًا ثُمَّ إِصْبَعًا
بَعِينِي لَمْ أَنْظُرْ إِلَى ضَوْءِ شَارِقِ
تَطَاوَحَ مَا بَيْنَ الرَّبِّيِّ وَالْأَبَارِقِ
عَلَى تَامِرٍ مِنْ فُرْعِ مَجْدٍ وَوَارِقِ

^(١) الديوان: ١: ٦٤٩.

^(٢) الديوان: ٢: ٥٨.

^(٣) زكريا إبراهيم، مشكلة الخفاء، دار مصر للصناعة والصحافة، مصر، ١٩٧١، ١٩٨١.

كَأَنِّي بَعْدَ الدَّاهِيَيْنِ رُذِيَّةٌ
وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَبْرُكٌ فِي مَنَاخِهِمْ
تَرْجَى وَرَاءَ الْمَاضِيَّاتِ السُّوَابِقِ
وَأَنِّي بِالْمَاضِيَيْنِ أَوْلُ لَاحِقِ^(١)

وفي رثائه للسيرافي شكا هذا الموت الذي يأخذ الفضلاء الواحد تلو الآخر ، ويقول :

واها له لو كان أسر يفتدى أو كان خرق يرقع، لكنه الموت الذي لا بد منه، ففي كل يوم نشيع

النعوش ، فكيف نغتر بالدنيا ويد المنون تشير ثم المطلع ، يقول :

وَتَلَحُّقُ الْفَضْلَاءَ أَعْظَمُ شَاهِدٍ
وَإِذَا لَهُ لَوْ كَانَ أَسْرٌ يُفْتَدَى
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلنَّعُوشِ مُشَيِّعٌ
كَيْفَ الْغُرُورُ وَلِلْفَنَاءِ تَنْبِيْةٌ
أَنَّ الْحِمَامَ بِغَيْرِ عِلْقٍ مُوَلِّعٌ
بِرَغِيَّةٍ أَوْ كَانَ خَرَقٌ يُرْقَعُ
مَنْ يَرَفُ وَرَاجِعٌ يَسْتَرْجِعُ
وَيَدُ الْمُنُونِ تُشِيرُ ثُمَّ الْمَطْلَعُ^(٢)

فايمان الشاعر بحتمية الموت يشكل اضطرابا وقلقاً في نفسه، وهما يفرعه ويقض

مضاجعه ، فينصحننا بعدم الاغترار بالدنيا، لأن الموت لنا بالمرصاد ، وكان لا طعم للحياة

مقرونة بالتفكير بالموت.

وقد شكا الموت وأحس بكثرة من يودعهم إلى القبر وبكثرة الرزايا عند رثاء أستاذه أبي

عبدالله ابن الإمام المنصوري، فيقول: يا لقومي لهذه الداهية، ولهذه الأيام الصعبة، كما قال في

رثائه لابن جني: " يا لقومي للخطوب الطوارق" ويتساءل الشاعر إن كان هناك من مجير من

الموت برمح أو حسام، أو معين بساعد أو بنان، والجواب معروف، لذلك لم يذكره الشاعر على

سبيل الإيجاز، يقول:

كُلُّ يَوْمٍ رَزِيْنَةٌ فِي فُلَانٍ
ثُمَّ تَنْشَى جَرَحَ الْحِمَامِ ، وَإِنْ كَا
كُلُّ يَوْمٍ تَزَايِلُ مِنْ خَلِيْطٍ
هَلْ مُجِيرٌ بِذَابِلٍ أَوْ حَسَامٍ
وَوُقُوعٌ مِنَ الرُّدَى بِفُلَانٍ
نَ رَغِيْبًا ، يَا قُرْبَ ذَا النَّسِيَانِ
بِالرُّدَى ، أَوْ تَبَاعُدٌ مِنْ دَانَ
أَوْ مُعِينٌ بِسَاعِدٍ ، أَوْ بَنَانٌ ؟

^(١) الديوان ١٢ : ٥٨ - ٥٩ .

^(٢) الديوان ١١ : ٦٤٨ - ٦٤٩ .

مُضَرِّبٌ مِّنْ مُّضَارِبِي ، فَلَهُ الدُّهْمُ
رُ وَغُصْنٌ أَبِينِ مِّنْ أَغْصَانِي^(١)

وقد تمنى الشاعر دفع المنية بالقتال دون صاحبه لو كان يملك هذا الدفع، بنفوس تقيه
الردى، من الشباب الذين كان يعدهم للثورة، أيديهم مليئة بالطعان، رجال إذا دعوا يوم الروع،
يشمرون استعدادا للقتال ، يقول:

لَوْ لَوْى عَنْكَ رَائِعُ الْخُطْبِ دَبُّ
أَوْ رُمَتْ دُونَكَ الْحِمَامُ يَدَانِ
لَوْ قَتَلَ الرَّدَى نَفُوسٌ عَزِيزَا
تَ وَأَيْدٍ مَّليئةٌ بِالطُّعَانِ
وَرِجَالٌ ، إِذَا دُعُوا غَدَاةُ الرُّوْ
عَ ، وَقَدْ خَفَّ جَانِبُ الْأَقْرَانِ
شَمَرُوا يُطْلَبُونَ نَاشِئَةُ الصُّوْ
تَ خَائِفِيذُ كَالْقَنَى اللَّدَانِ^(٢)

وهذه ظاهرة في أغلب مراثيه وقد عدها الدكتور إحسان عباس^(٣) استجلابا متكلفا للمعاني
حيث تصرف الشاعر عن العاطفة الصادقة. وهذا كله ات من طموحه الشخصى للخلافة،
وشعوره أنه صاحب حق مهضوم، جعله دائم التفكير بفتيته الملتئمين الذين سيثور بهم يوما ما،
لإعادة حقه المغصوب ، فذكر هؤلاء الفتية في رثائه لأعز الناس إليه أمه وصديقه أبى إسحاق
الصابى ، وأستاذه المنصوري "ولو استقصينا شعر الرضى من بدئه حتى نهايته لرأينا أن روح
الطموح والثورة تكاد تلازمه، وأن الفخر الحماسى بملكاته وقدراته وأمجاده وشعوره بالأنفة
والكبرياء يكاد يطغى على شعره في هذا الجانب حتى يبدو لنا وكأن هذا الشعور ولد معه لا
يتصنعه ولا يتكلفه"^(٤).

وقد تميزت مرثاته في ابن جنى على سائر قصائده في هذا الباب بالعاطفة المؤثرة إذ
جاءت القصيدة باكية حزينة، فرثى فيها المجد العربى واسترجع ماضى أمته الذهبى ، لأنه يرثى

(١) الديوان ٢: ٣٩٢-٣٩٣ .

(٢) الديوان ٢: ٣٩٥ .

(٣) إحسان عباس - الشيعر الرضى ٢١٥ .

(٤) محمد ششلان - الخلافة في شعر النعمان الرضى ١٩٨ .

أستاذًا وعالمًا باللغة العربية ، واستشعر معاني العظمة والبطولة والكبرياء ، من خلال عرضه لسلسلة من ملوك العرب الخالدين في التاريخ العربي، ووجدان الأمة، وقد جمع صور أولئك الأبطال في هذه المراثاة، حيث رثى فيها ملوك العرب الأقدمين أهل المكارم والاحساب، تحدوه عواطف الإجلال والاعتزاز والإكبار لهؤلاء الفحول وأهل التيجان، أصحاب الكرم والفخوة ومنع الضيم، يقول:

فَإِنَّ الْمُلُوكَ الْأَقْدَمُونَ تَسَانَدُوا
بِهَالِيلٍ مُنَاعُونَ لِلضُّيَمِ أَحْسَنُوا
عَوَّاصِبُ بِالنَّيْجَانِ فَوْقَ جَمَاجِمِ
فُحُولٍ أَطْلَنَ الْهَدْرُ وَالْخَطَرُ بِالْقَنَا
هُمْ اتَّعَلَوْا الْعُلْيَاءَ قَبْلَ نِعَالِهِمْ
تَرَى كُلَّ حُرٍّ الْمُطْمِئِنِّ كَأَنَّهُ
إِذَا قَامَ سَاوَى الرُّمَحِ حَتَّى يَمْسَهُ
وَرَأَى الدُّجَى يَعْشُو إِلَى ضَوْءٍ وَجْهَهُ
وَأَيْنَ الْمَلَاجِي الْعَاصِمَاتُ مِنَ الرَّدَى
مَصَاعِبٌ لَمْ تَعْطِ الرُّؤُوسَ لِقَائِدِ
فَشَنَ عَلَيْهِ الْأَزْلَمُ الْعُودُ غَارَةً
إِلَى جِذَمِ أَحْسَابِ كِرَامِ الْمَعَارِقِ
بَلَاءَهُمْ عِنْدَ النَّصُولِ الذُّؤَالِيقِ
وَضَاءِ الْمَجَالِي وَاضِحَاتِ الْمَفَارِقِ
ضَوَارِبُ لِلْأَذْقَانِ مِيلُ الشَّقَائِقِ
وَدَاسُوا طَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَ النَّمَارِقِ
عَتِيقُ الْمَهَارِي مِنْ جِيَادِ عَتَائِقِ
بَغَارِبِ مَمْطُوطِ النَّجَادِ وَعَاتِقِ
كَانَ عَلَى عَرْشِهِ ضَوْءٌ بِأَرَقِ
إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِطَارِقِ
وَلَا اسْتَوْسَقَتْ قَبْلَ الْمَنَابِ لِسَائِقِ
بَلَا قَرْعِ أَرْمَاحٍ وَلَا نَقْعِ مَازِقِ^(١)

وكان لزاما على الرضى أن يفعل الأمر نفسه فى رثاء أستاذه الهاشمى من بنى العباس،

أبى عبدالله ابن الإمام المنصورى، فيتأسى بموت الماضين ويرثى المجد العربى، فمضى مكثرا من تساؤله (أين)، مثل: أين رب السدير والحيرة البيضاء؟ أين صاحب الإيوان؟ أين السيوف الحداد من آل بدر، والقنا الصم من بنى الديان؟ أين المواضى من آل جفنة، الذين كانوا يكرعون الخمر بالذهب الخالص، وقد كانت تحييتهم أبيت اللعن؟ وأراد بهم ملوك الحيرة، فأشار إلى سماحتهم وحلومهم، ليدلل على أنهم ذهبوا بخيرهم وشرهم، فلم تثن عنهم المنية يد، بل تثنتهم

المنايا في عنان التسليم، فعطلت قدور الضيافة. وخدمت نارهم التي ما كانت تخدم ليلاً أو نهاراً.

إشارة لكرمهم يقول:

أَيْنَ رَبُّ السُّدِيرِ وَالْحِيرَةِ الْبَيْتِ —
وَالسُّيُوفِ الْحِدَادِ مِنْ آلِ بَكْرِ —
طَرَدْتَهُمْ وَقَانِعُ الدَّهْرِ عَنْ لَعْنِ —
وَالْمَوْاضِي مِنْ آلِ جَفْنَةَ أَرْسَى —
يُكَرِّعُونَ الْعَقَارَ مِنْ فُلُقِ الْإِبْشِ —
مِنْ أَبَاةِ اللَّعْنِ الَّذِينَ يُحَيُّو —
فِي رِيَاضٍ مِنَ السَّمَاحِ حَكْوَالِ —
ما شئت عنهم المنون يد شو —
عَطَلَتْ مِنْهُمْ الْمُقَارِي ، وَبَاخَتْ —
ضَاءَ أَمْ أَيْنَ صَاحِبِ الْإِيَّانِ ؟
وَالْقَنَا الصَّمِّ مِنْ بَنِي الدِّيَّانِ
لَع طَرْدَةُ السُّفَارِ عَنْ نَجَّرَانَ
طُنْبًا مُلْكُهُمْ عَلَى الْجَوَّالِ
رَبِيزِ كَرْعِ الظَّمَاءِ فِي الْغُدْرَانِ
نَ بِهَا، فِي مَعَاقِدِ التَّيْجَانِ
وَجِبَالِ مِنَ الْحُلُومِ رَزَانَ
كَاءَ، أَطْرَافِهَا مِنَ الْمَرَانِ
رَفَى حَمَاهُمْ، مَوَاقِدُ النَّيِّرَانِ^(١)

وهكذا ، فالشاعر من خلال مأساة موت العلماء يحاول أن ينفذ إلى المأساة الإنسانية،

حيث يجسم موت أستاذيه ، فيحيل هذا الموت إلى موت الإنسانية كلها، مبتعداً عن الفواح

والندب، فنرى مشاعره متجهة نحو المصير الذي الت إليه الإنسانية.

والحديث عن موت الإنسانية والأمم السابقة كثير في رثائه كما مر بنا سابقاً، لكن

الشاعر يأخذ هذه المأساة الإنسانية كوحدة كلية، ويتحدث عن موت السابقين حتى الأمم التي

بادت واندثرت، وغالب ما يأخذ هذه المأساة، كوحدة جزئية بالنسبة للإنسانية، فيرثي المجد

العربي كما في هاتين القصيدتين، لأمر سبق تعليله.

وهذا ضرب من العزاء أكثر منه الرضى كما مر سابقاً. وقد تعزى بفناء الحيوان عند

رثاء أستاذه أبي عبدالله المنصوري مع ندرة هذا النوع من العزاء في شعره . " وربما اختار

هذا المنحنى لأن المرثي من علماء العربية فهو يحاكي فيه طريقة العرب ويستعمل الألفاظ

العربية " ^(٢) ، يقول :

^(١) الديوان ٢: ٣٩٣ - ٣٩٤ .

^(٢) إحسان عباس - الشرف الرمي ٢١٣ .

لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرِيءٌ
لَا شَبُوبٌ مِنَ الصَّوَارِ ، وَلَا
لَا وَلَا خَاضِبٌ مِنَ الرُّبْدِ يَخْتَلَا
يُرْتَمَى وَجْهَهُ الرِّئَالُ ، إِذَا
وَعُقَابُ الْمَلَأِ تَلَحَّمَ فَرْخِيئُ
فِي إِبَاءٍ ، وَعَاجِزٌ فِي هَوَانٍ
أَعْنَقُ يَرْعَى مُنَابِتَ الْعُلْجَانِ
لِ بَرِيْطٍ أَحْمُ غَيْرِ يَمَانٍ
نَسَ لَوْنُ الْإِظْلَامِ وَالْإِنْجَانِ
هَذَا بِإِزْزِيفَةٍ زُلُولُ الْفَنَانِ^(١)

فالشاعر يميل إلى المعاني البدوية ويتشبث بها، عند رثائه لعربي هاشمي من بني

العباس. وقد علل الدكتور مخيمر ظاهرة اختفاء قصص الحيوان واستخدامها ضرباً من ضروب

العزاء عند الشعراء بعد الإسلام، بأن القيم الإسلامية صقلت أفكار الشعراء فاستغلوا هذه القيم في

شعرهم، فجاء تأسيهم متلائماً مع موقف دينهم. فاختلفت قصص الحيوان والتعزي بها ، لأن

مصير الحيوان جاء بانساً في قصصهم ذات الطابع الجاهلي، فهو مصير اليأس ومن شأنه أن

يكون منفراً وليس هكذا مصير المسلم حيث الجزاء وحسن المآب^(٢).

وأخيراً فإن هذه النصوص في معظمها خالية من العواطف الجياشة التي تغمرها

الأحزان، وتعلوها الدموع واللوعة والأنين فهي مجرد تعبير عن التسليم للقضاء والقدر الذي

فرض على الإنسان ، ونتائج ذلك على العلم والمعرفة، باستثناء مراثيه لابن جني ، حيث كانت

تربطه به روابط متينة ، وقد أكرمه بشرح قصيدة من شعره.

^(١) الديوان ٢ : ٢٦٥ .

^(٢) انظر مخيمر صالح : رثاء الأساء في الشعر العربي ١٢٥ .

الفصل الثاني

الرثاء السياسي

- رثاء العباسيين .
- رثاء البويهيين .
- رثاء الحسين بن علي .
- رثاء الأمراء والمتغلبين على السلطة خارج بغداد .
- رثاء المجد الغابر .

لقد خلد شعر الرثاء الكثير من الشخصيات السياسية الإسلامية في العصور السابقة ووقف الشعراء عند الكثير من الخلفاء والقادة وأرباب السلطة ومسيّري سياستها ، فبكواهم ، ومجّدوا أعمالهم ، وخلّدوا شمائلهم ، وقد رأوا كل ما حولهم حزيناً لمأساتهم من الطبيعة الساكنة والمتحركة وجسدوا صفات مقوّدِيهم وسماتهم الخالدة ، كالشجاعة ، والكرم ، وطاعة الله تعالى والقيام بأمره والعدالة ، وبكوا ضياع هذه الصفات خالطين ذلك بالحسرة والتلف والتعظيم كما يقول ابن رشيق : "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً" (١) .

ومع أن الحسرة والتلف ظاهرة عامة في أشعار الرثاء ، إلا أنها في رثاء الأهل والأصدقاء تكون أشد منها في رثاء الشخصيات السياسية ، لأن الشاعر يرتبط بهم برابطة أقوى من رابطة بالخليفة أو الملك أو الوزير ، وقد رثى الشريف الرضي أفاضل عصره من خلفاء وملوك وكتاب وزراء وأمراء من العباسيين والبويهيين والمتغلبين على السلطة خارج بغداد ، حيث شملت هذه المراثي : معاني الرثاء وقيمه من مدح للميت وتعداد صفاته وحديث عن المصيبة وإبراز قيمة شخصية المرنى ، كما تمثلت في هذه المراثي صور الوفاء والمحبة والتسامح ، إذ خلد فيها الشاعر المثل العربية العليا عند العرب من كرم ونخوة وشجاعة وأنفة ولا يعنى كون هذه القصائد في رثاء الشخصيات السياسية أن تكون فائرة عاطفة ، بل إنها جاءت في معظمها صادقة عاطفة ، لأن صدقها مرتبط بعلاقة الشاعر بالشخصية التي يرثيها فإن كان الشاعر يرتبط به بعلاقة متينة صافية مخلصاً في وده ومحبه جاءت العاطفة صادقة ، أما إذا كانت العلاقة قائمة على المنفعة والمداراة فإن العاطفة تأتي فائرة.

رثاء العباسيين :

رثى الشريف الرضى من العباسيين : الخليفة الطائع لله عند وفاته سنة (٣٩٣هـ)^(١) .
وفي الديوان قصيدتان في رثاء صديق لم يصرح فيهما الرضى باسم الطائع ، أما الأولى^(٢) فقد ذكر ابن الأثير أنها في رثاء الطائع^(٣) ، والثانية جاء في مقدمتها : "وقال يرثي صديفا له وقيل إنها في رثاء الطائع لله ، وأخفى ترجمتها لما كان يراقبه"^(٤) . والذي يقرأ القصيدة يرى حديثا عن عزّ الخليفة وجلاله ومهابته وعبيده وإمائه في الأبيات (٢٥-٣٢) مما يعنى أنها في رثائه .
كما رثى الشريف أيام الطائع عندما خلعه بهاء الدولة^(٥) ، ورثى أبا الفتح ابن الخليفة الطائع وعزّاه عنه^(٦) كما رثى نقيب العباسيين أبا القاسم علي بن الحسين أبا تمام الزينبي^(٧) وقاضى القضاة أبا محمد بن معروف وعزّى الخليفة الطائع عنه^(٨) كما عزّاه عن وفاة عمر بن إسحاق ابن المقتدر آخر ولد بقي للمقتدر^(٩) .

من أهم ما يطالعنا في رثاء الرضى للعباسيين هو افتخاره بهم وتمجيدهم رغم اختلافه معهم وعدم إيمانه بشرعية خلافتهم ، وذلك ليحافظ على الوجه العربى للخلافة من جهة ، ومن

^(١) الديوان ١٧١ : ٢ ، ١٧٥ .

^(٢) الديوان ١٨٧ : ٢ ، ١٨٨ .

^(٣) ابن الأثير الكامل ٨ : ٢٤ .

^(٤) الديوان ١١ : ٧٨ ، ٨٢ ، وأظهر عبد الصالح الخلو - الشريف الرضى حياته ودراسة شعره ١ : ١٢٦ .

^(٥) الديوان ١٦٦ : ٢ ، ١٧١ .

^(٦) الديوان ٦٨ : ١ ، ٧٣ .

^(٧) الديوان ٢٠٥ : ١ ، ٢١٠ ، وهو علي بن القاسم أبو تمام الرضى ، وأمه الحسين بن محمد بن عبد الوهاب . أبو القاسم القاضى ، ولى

نقابة العباسيين ، ولد سنة (٣٢٧هـ) وتوفى سنة (٣٨٤هـ) . الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ١١ : ٣٨٧ - ٣٨٨ .

^(٨) الديوان ١١ : ٦٤٤ - ٦٤٦ . وهو أبو محمد قاضي القضاة عبد الله بن أحمد بن معروف البغدادي ، ولد سنة (٣٠٦هـ) ، كان فاضلاً

عظيماً ، وكان معتزياً ، وفد قدامى عليه عمدة الدولة مع أبي أحمد وأحمد الرضوي وعمه أبي عبد الله وسبعة من عائلته ، توفى سنة (٣٨١هـ) .

ابن العماد شذرات الذهب ، مسوّدات دار الأماق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ٣ : ١٠١ ، الديوان الكامل ٢ : ٣٥١ ، ٧ : ٤٦٦ .

^(٩) الديوان ١٦٦ : ٢ ، ١٦٩ .

جهة أخرى ، فإن العباسيين أعمامه ، ففي تمجيدهم تمجيد لنفسه ، كما أنه مؤمن

بوجوب الطاعة للخليفة العباسي لأن طاعته تجلب النجاة في الدنيا والآخرة كما يقول للطائع :

هِيَهَاتَ طَاعَتِكَ النِّجَاةَ وَحُبُّكَ الْـ تَقْوَى وَشُكْرُكَ أَفْضَلُ الْأَقْسَامِ^(١)

فالشاعر يسعى إلى سيادة الجنس العربي حتى يرد للخلافة هيبتها فاهتم بتخليد صفات

العلي والمجد والشجاعة والكرم للعباسيين ، وهي صفات تنبئ عن الشعور بالعظمة والكبرياء

في الانتساب إلى بني هاشم فقال وهو يرثي الخليفة الطائع:

نَسَبٌ كَالشَّمْسِ أَوْفَيْتَ بِهِ فِي الْمَعَالِي بَيْنَ نَجْمٍ وَهَلَالٍ
زَلِقَ الْمَرْقَى بَعِيدُ الْمَنْتَمَى فِي قِنَانٍ لِلْمُسَاعَى وَفِلَالٍ
فِي الرَّوَابِي مِنْ مَعْدٍ وَالذُّرَى نَهَزَ الْمَجْدُ بَعَادِي السَّجَالِ
مَعَشَرٌ إِنْ غَابَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ لَمْ يَغْيَبُوا عِنْدَ مَجْدٍ وَفَعَالٍ
كُلَّمَا أَرْدَدْتُ بَلَى أَعْظَمَهُمْ نَشَرْتُهُمْ سَمْعٌ غَيْرُ بَوَالٍ^(٢)

أما موت نقيب العباسيين فقد رمى هاشم في صميمها فحلوا الحبا لهذا المصاب الجلل

وزالت الأقدام عن مستقرها كما يقول :

مُصَابٌ رَمَى مِنْ هَاشِمٍ فِي صَمِيمِهَا فَامْسَتْ ذُرَاهَا خُسْعًا وَالْغَوَارِبُ
وَأُطْلِقَ مِنْ وَجْدٍ حَبَاهَا وَلَمْ تَكُنْ لِهَاشِمٍ لَوْلَاهُ الْعُقُولُ الْعَوَارِبُ
وَزَالَتْ لَهُ الْأَقْدَامُ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا كَمَا مَالَتْ لِلْبُرْكِ الْمَطِيُّ اللَّوَاغِبُ^(٣)

ولهذا أنساه موت هذا الرجل ، ما في نفسه تجاه العباسيين فمال إلى مجاملتهم وتحدث

عن شموخهم وذكر وشائج الرحم والقرابة بينه وبينهم ، وما الخلافات معهم سوى هبوات لا

يخلو منها أي ود كما يقول :

أَلَسْنَا بَنَى الْأَعْمَامِ دُنْيَا تَمَارَجَتْ بِأَخْلَاقِهِمْ أَخْلَاقُنَا وَالضَّرَائِبُ
جَمِيعًا نَمَانًا فِي رَبِّي الْمَجْدِ هَاشِمٍ وَأَنْجَبَ عِرْقَيْنَا لَوَى وَغَالِبُ

^(١) الديوان ٢ : ٢٨٥ .

^(٢) الديوان ٢ : ١٧٤ - ١٧٥ .

^(٣) الديوان ١١ : ٢٠٧ .

إِذَا عُمِّمُوا بِالْمَجْدِ لَأَنْتَ بِهِامِنَا
وَكَمْ دَاخِلٍ مَا بَيْنَنَا بِنَمِيمَةٍ
رَسَوَى هَبَوَاتٍ شَابَتِ الْوُدَّ بَيْنَنَا
لَنَا الدُّوْحَةُ الْعُلْيَا الَّتِي نَزَعَتْ لَهَا
عَمَائِمُهُمْ ، أَعْرَاقُنَا وَالْمُنَاسِبُ
تَقَطَّرَ لَمَّا زَاخَمَتْهُ الْمَصَاعِبُ
وَأَيُّ وَدَادٍ لَمْ تُشَبِّهْ الشُّوَانِيبُ
إِلَى الْمَجْدِ أَغْصَانُ الْجُدُودِ الْأَطْيَابِ^(١)

أما مراثي الرضى للخليفة الطائع ففيها وفاء عجيب ، وقد قال الرافعي : "والشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء فيقضى الشاعر حقوقاً سلفت"^(٢) . فالطائع كان ممن غضبت عليهم السياسة وانقلب الناس ضدّهم حيث أقصاه بهاء الدولة عن الخلافة ، ونصب القادر مكانه ، إلا أن الرضى ظل وفياً لمن كان يوده ، ولم يتنكر للجميل ، فرثي الطائع المخلوع ، رثي أيامه يوم خلع كما رثاه عند موته بأكثر من قصيدة ، فقال الرضى مشيراً إلى أيام الود والصفاء تلك ، وأنه وفياً لها :

قَدْ كَانَ عَاقِدُنِي الصَّفَاءَ فَلَمْ أَرْلُ
وَلَقَدْ حَفِظْتُ لَهُ ، فَأَيْنَ حِفَاطُهُ
عَنْهُ ، وَمَا بَقِيَ عَلَى صِفَاؤِهِ
وَلَقَدْ وَفَّيْتُ لَهُ فَأَيْنَ وَفَاؤُهُ^(٣)

"ولعلّ هذا الود ينبثق من مواقف الطائع من آل الرضى ، حين اعتقل والد الرضى بأمر من عضد الدولة البويهى ، وبعدها عندما أعاد له نقابة الطالبين وكل الوظائف التي فقدتها عند اعتقال أبيه"^(٤) . فقال الرضى مشيراً إلى هذه المنة وذلك الفضل ، مع ندمه الشديد أنه الآن ينصره بالأقوال والأشعار ولم ينصره ببده ، وقد حضر مشهد خلعه :

إِنَّ لِلطَّائِعِ عِنْدِي مَنَّةً
لَيْسَ يُسَبِّحُهَا وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
فَاتَتْنِي مِنْكَ أَنْتِصَارٌ بِيَمِينِي
وَحِمِّي قَدْ بَلَّغَهَا لِي بِلَالِي
مَرَّ أَيَّامٌ عَلَيْهَا وَلَيْسَ
فَتَلَاقَيْتُ أَنْتِصَارًا بِمَقَالِي^(٥)

^(١) الديوان : ٢٠٨ : ٣٠٩ .

^(٢) مصطفى صادق الرافعي - تاريخ أدبات العرب ، دار الكتب العرب ، بيروت ، لبنان ، ط ٤ ، ١٩٧٤ ، ٣ : ١٠٦ .

^(٣) الديوان : ٧٨ : ١ .

^(٤) محمد نحر العلوم ، الشاعر المخلوع - مجلة نوايا ، العدد الخامس : ٢٣٠ - ٢٣١ .

^(٥) الديوان : ٢ : ١٧٣ .

فقد شاء قدر الله ، أن يكون الرضى في مجلس الخليفة ، ويشهد فتك الفرس به " وقد سلبت ثياب أكثر الأشراف والقضاة وانتهبوا وامتحنوا ، فأخذ هو بالحزم ساعة ، ووقف على الصورة وبادر إلى نزول دجلة ، وكان أول خارج من الدار" (١) . وليس أدلّ على وفاء الرضى للطائع من رثائه لمجده بعد هذه الحادثة، غير هيباب من السلطتين القانمتين، وتلفه على تلك الأيام الماضية والملك الذي لم يتوقع أحد زواله ، إذ الممّ أن يرى الطائع مخلوعاً ، فشبهه بجبل خرب بعد طول شموخ وقد كان سيداً يمتثل لأمره السادات ، يرى عزيزاً أينما حلّ ولا يرى إلا ذليلاً فهو كالأسد إلا أنه اتخذ العلا والمجد غيلاً ، ويشبهه بسيف صارم فلت مضاربه، وكوكب أحساب أعجله الدجى بالأفول يقول:

إِنْ كَانَ ذَاكَ الطُّودُ خَرَّ	كَرَّ فَبَعْدَ مَا اسْتَعْلَى طَوِيلًا
قِرْمٌ يَسْدُدُ لَحْظُهُ	فَقَرَى الْقُرُومَ لَهُ مَثُولًا
وَيَرَى عَزِيزًا حَيْثُ حَلَّ	لَ وَلَا يَرَى إِلَّا ذَلِيلًا
كَالْبَيْتِ إِلَّا أَنَّهُ	اتَّخَذَ الْعُلَى وَالْمَجْدُ غِيْلًا
يَا صَارِمَ الْمَجْدِ الَّذِي	مَلَنْتَ مُضَارِبُهُ فُلُولًا
يَا كَوْكَبَ الْأَحْسَابِ أَعْه	جَلَّكَ الدَّجَى عَنَّا أَفُولًا (٢)

وكل عظيم عباسي هو أسد أدلى في القبر أو حسام أغمد فيه كما يقول في رثاء نقيب العباسيين:

كَأَنَّهُمْ أَدْلُوا إِلَى الْقَبْرِ ضَيْغَمًا	يَنُوءُ ، وَتَشْبِيهِ الْأَكْفُ الْحَوَاصِبُ
وَأَيُّ حَسَامٍ أَغْمَدُوا فِي ضَرْجِهِ	كَهَمَّكَ لَا يُعْصَى بِهِ الْيَوْمُ ضَارِبُ (٣)

وكانى به بيكى الخلافة العربية الإسلامية التي انهارت في ساحة التسلط البويهي ، يبيكيها

من خلال خليفة المسلمين الطائع لله ، ومن خلال نقيب العباسيين ، وتلك الصفات التي أسبغها

عليهما هي الصفات التي كانت عليها الخلافة من العلا والمجد والشموخ ، إذ كانت سيفاً قاطعاً

(١) المعالي - حكمة الدهر - ١٦٠ : ٣ .

(٢) الديوان - ١٦٩ : ٢ .

(٣) الديوان - ٢٠٨ : ١ .

إلا أنه فلت مضاربه بسيطرة البويهيين عليها ، فأفلن كوكبها الذي كان يضيء الدنيا بالعز
والشموخ، فتلهف الشاعر لذلك الماضي بقوله:

لَهْفِي عَلَى مَاضٍ قَضَى أَلَا تَرَى مِنْهُ بَدِيلاً
وَزَوَالِ مُلْكٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا يُفَكِّرُ أَنْ يَزُولَا
وَمَنَازِلَ سَطَرَ الزَّمَا نَ عَلَى مَعَالِمِهَا الْحُؤُولَا
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ عَلَى أَيَّامِ مَرْيَاةٍ زُلُولَا^(١)

ويؤيد هذا الدكتور زكي مبارك الذي ذهب إلى أبعد من الوفاء في رثاء الرضى للطائع،

فقال في شأن علاقته بالطائع : إنه "كان يراه بقية من بقايا بني العباس الذين أذاعوا معاني
العظمة في الأمم الإسلامية زمنا غير قليل ، وكان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة
فعلية ترتفع بها العروبة وتنهار أمامها الشعوبية"^(٢) .

فلا يمكن بعد هذا أن يقال : إن الرضى لم يكن مخلصا للطائع في حياته وكان يسايره،

لأنه قد رثاه بثلاث قصائد وبكى مجده بقصيدة حين عزل ، على ما في ذلك من مخاطر ، ولو
كان مداحيا لاكتفى بهذه القصيدة التي بكى فيها مجده أو أن لا يقول فيه الشعر ابدا ، إلا أنه
أصر على بكانه عند موته وبعد أن طال أمده بالموت، إذ مرَّ بقبره فناداه ولم يسمع سوى
الصدى :

وَلَقَدْ مَرَرْتُ بِبَرْزَخٍ فَسَأَلْتُهُ أَيْنَ الْأُولَى ضَمَّتْهُمْ أَرْجَاؤُهُ
مِثْلُ الْمَطِيِّ بَوَارِكَا أَجْدَائِهِ تُسْفَى عَلَى جَنَابَاتِهَا بُوْغَاؤُهُ
نَادَيْتُهُ فَخَفِيَ عَلَى جَوَابِهِ بِالْقَوْلِ إِلَّا مَا زَقَّتْ أَصْدَاؤُهُ^(٣)

وفي هذا كله دليل على صدق شعور الرضى تجاه الطائع لله ، ولذا عبّر عن أساءه كلما

مرّت به ذكرى وفاة الطائع ، يقول :

^(١) الديوان ١٢ : ١٧٠ .

^(٢) زكي مبارك - عظمة العرب والعجم - ١ : ١٤٩ .

^(٣) الديوان ١ : ٨٠ .

وَإِذَا أَعَادَ الْحَوْلُ يَوْمَكَ عَادَنِي
دَاءٌ بِقَلْبِي لَا يَعُودُ طَبِيبُهُ
فَاذْهَبْ فَلَا بَقَى الزَّمَانُ وَقَدْ هَوَى
مِثْلُ السَّلِيمِ يَعُودُهُ اتِّسَاؤُهُ
يَأْسًا إِلَيَّ وَلَا يُصَابُ دَوَاؤُهُ
بِكَ صُرْفُهُ وَقَضَى عَلَيْكَ قَضَاؤُهُ^(١)

والشاعر كلف بترديد صفات الشموخ في رثائه للطائع ، ففي القصيدة التي رثاه فيها عند وفاته عام (٣٩٣هـ) راه جبلا يسير على أيدي الرجال ، وتساءل الشاعر عن هذا الجبل الذي دك، من أي الجبال هو ، أي إن كان عزيزا شامخا فصفة قومه من قبله العز والشموخ ، وهو كالبازل وكالليث ، وهي صور فريدة في التعبير عن حزن الشاعر ووجدده وألمه ، وهذه الصفات نفسها التي ذكرها في القصيدة السابقة أعاد ذكرها هنا ليبين لنا أن خليفة المسلمين عزيز شامخ في حياته وفي مماته لأنه من قوم أعزة شامخين ، فقال :

أَيُّ طَوْدٍ ذُكِّ مِنْ أَيِّ جِبَالٍ
مَا رَأَى حَيَّ نِزَارٍ قَبْلَهَا
حَمَلُوهُ بَازِلًا مُحْتَفِرًا
إِنْ غَدَا مَجْدُوعَةً أَشْرَافُهُ
عَقَرُوا لَيْثًا وَلَوْ هَامُوا^(٢) بِهِ
لَقَحَتْ أَرْضٌ بِهِ بَعْدَ جِبَالٍ
جِبَلًا سَارَ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ
دَلَجَ اللَّيْلُ وَلَزَاتِ الْجِبَالِ
قَالَ بَنَى وَأَفِيَّةٌ وَالْمَجْدُ عَالٍ
كَانَ بَعْدُ الْعَقْرُ أَرْجَى لِلصِّبَالِ^(٣)

وقد جاء رثاء الشريف هذا صادقا لا تملق فيه ولا رياء لخليفة جديد ، بل نراه يلمز الخليفة الجديد وهو يعبر عن أساه لموت الطائع ، ويرى أن دمعه ليس كفاء لهذا الحزن بعد أن أنزله الثرى وهجره رغما عنه يقول :

لَا أَرَى الدَّمْعَ كِفَاءً لِلْجَوَى
وَبَرَّغَمِي أَنْ كَسَوْنَاكَ الثَّرَى
وَهَجَرْنَاكَ عَلَى ضَنْ هَمَوَى
كُنْتُ فِي الْأَحْجَالِ أَرْجُوكَ وَلَا
لَيْسَ أَنْ الدَّمْعَ مِنْ بَعْدِكَ غَالٍ
وَفَرُّشْنَاكَ زُرَابِي الرَّمِيَالِ
رُبَّ هُجْرَانٍ عَلَى غَيْرِ تَقَالِ
أَرْتَجِي الْيَوْمَ عَظِيمًا فِي الْحِجَالِ^(٤)

^(١) النجاشي : ١١ : ٨٢ .

^(٢) هاهوا له : رجوده غه لهم : هاهما

^(٣) النجاشي : ٢ : ١٧٩ - ١٧٨ .

^(٤) النجاشي : ٢ : ١٧٩ .

ويلفت الانتباه إشارة الشاعر إلى العادات العربية القديمة وهو يرثي خليفة عربياً هاشمياً، وبما أن هذه العادة جاهلية تؤدي إلى الشرك بالله ، فإن الشاعر يتقيها جاعلاً دمه أبد الليالي بديلاً عن إسالة دم الإبل على قبر الطائع، كما يقول:

لَوْلَا اتَّقَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ سُقْتُهُ ذُوْدَا تَمُورُ عَلَى ثَرَاكَ دِمَاؤُهُ
وَأَطْرَتُ تَحْتَ السَّيْفِ كُلَّ عَشِيَّةٍ عُرُقُوبٌ مُغْنِبِطٌ يَطُولُ رُغَاؤُهُ
لَكِنْ سَيُخْلَفُ عَقْرَهَا وَدِمَاءُهَا أَبَدَ اللَّيَالِي مَدْمَعِي وَبُكَاءُهُ^(١)

هذا وقد عبر الرضي عن حزنه لوفاة الطائع بقصيدة ثالثة ، وتساءل الشاعر كيف ينسى الطائع قلب صدعته المصائب ، ويطلب من قلبه الصبر فلا أحد ينجو من الموت ، لا المقدم ولا التالي ، فتجدد الليل والنهار ينقص الأعمار ، ويجب على الإنسان عدم الاغترار بالدهر ، ويشعرنا أنه يرثي أماله بموت الطائع لله ، لأن صلته بالخليفة الجديد "كانت قلقة خالطها بعض المجاملة المفتعلة ووصلت في نهايتها إلى ذروة الجفوة والياس"^(٢) . وكان الشاعر ودّع في الأرض شطر أعضائه وأوصاله ويتعجب كيف لم يلحق به بسبب حزنه الشديد ، فعواطف الهم تجدد له الحزن ويعزي نفسه بأن الزمان يودي بالولد والوالد ، ويمضي بالأساد والأشبال ، يقول:

مَضَى الَّذِي كُنْتُ فِي الْأَيَّامِ أَمْلُهُ مِنْ الرِّجَالِ فَيَا بَعْدَا لِأَمَالِي
قَدْ كَانَ شُغْلِي مِنَ الدُّنْيَا فَمُدُّ قَرَعْتُ مِنْهُ يَدِي زَادَ طُولَ الْوَجْدِ أَشْغَالِي
كَأَنِّي لَمْ أَدْعُ فِي الْأَرْضِ يَوْمَ ثَوَى مُودَعًا ، شَطْرَ أَعْضَائِي وَأَوْصَالِي
مَا بَالِي الْيَوْمَ لَمْ أَلْحَقْ بِهِ كَمَدًا أَوْ أَنْزَعَ الصَّبْرَ وَالسُّلْوَانَ مِنْ بَالِي^(٣)

ويتابع الشاعر تعزية نفسه بالمواعظ والعبر فيتحدث عن تقلبات الدهر بالإنسان ، فكم أنزل من علياء شاهقة ، وشال من قعر نائي الغور، وكم هوى بعظيم في عشيرته، كريم يطعم

^(١) الديوان ١ : ٨١ .

^(٢) محمد شلتن - الحماسة في شعر الشريف الرضي ٦٦ .

^(٣) الديوان ٢ : ١٨٧ .

الضيف، شجاع يطعن الأبطال، عال على نظر الأعداء كالصقر يرقب الفريسة من فوق المربأ العالي ، ويقول أخيراً لا تغترّ بإكثاري و غنائي ولا تغتمّ بفقرّي وإقلالي فالدنيا غرورة غدارة :

فَلا يَسْرُكَ إِكْثَارِي وَلَا جِدَّتِي وَلَا يَغْمُكُ إِقْتَارِي وَإِقْلَالِي
قُبِّحَتْ يَا دَارُ مِنْ دَارٍ نَغَرُ بِهَا فَأَنْتِ أَغْدَرُ مِطْعَانٍ وَمِخْلَالٍ^(١)

وعزاء الرضى للطائع تذكير بحقيقة الموت والحياة والعظة والعبرة منيها ، مع ذكر مناقب المتوفى ومدح الخليفة ، فالشاعر من أصحاب "النظرة المتأملّة في الكون والحياة"^(٢) ، ولم تكن نظرته تشاؤمية أبداً كما هي الحال عند المعري ، بل كانت رؤيته للموت مليئة بالآفكار الإيجابية التي كانت تعبّر عن الموقف في حياة الشريف الرضي^(٣) ، وإذا ما لمحنا بعض التشاؤم في تعزية الطائع عن عمر بن إسحق بن المقتدر كما في قوله :

لِمَاذَا تُرَبِّي الْمَرْضِعَاتُ طُمَاعَةً لِمَاذَا تُخَلِّي بِالنِّسَاءِ بُعُولُ
أَلَيْسَ إِلَى الْأَجَالِ نَهْوِي ، وَخَلَفْنَا مِنْ الْمَوْتِ حَادٍ لَا يَغْبُ عَجُولُ^(٤)

فإن مثل هذا الشعر نادر في رثاء الرضي ، ولا يقصد به التشاؤم بقدر ما يقصد أن الموت غاية كل حي ، وأن الدنيا ما هي إلا طريق إليه ، فلا داعي للاغترار بها إذا ، ونحن نهوي إلى الآجال ، لذا نراه يدعو أن يكون العقل قائداً لصاحبه نحو الفهم الصحيح ، وإلا فإن أضيع شيء في الرجال عقل لا يعرف حقيقة الموت والحياة ، فيقول في هذه القصيدة:

نَقُولُ مَقِيلٌ فِي الْكَرَى لِحُبُونِنَا وَكَمْ غَيْرُ أَحْشَاءِ الْقُبُورِ مَقِيلُ
دَعِ الْفِكْرَ فِي حُبِّ الْبَقَاءِ وَضَوْلِهِ فَهَيْمُكَ ، لَا الْعُمَرَ الْقَصِيرَ ، يَطُونُ
وَلَا تَرْجُ أَنْ تُعْطَى مِنَ الْعَيْشِ كَثْرَةٌ فَكُلُّ مُقَامٍ فِي الزَّمَانِ قَبِيلُ
وَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بَعِيْنَ حَقِيقَةٍ كَرَى أَنَّ ظِلًّا لَمْ يَزُلْ سَيَرُولُ^(٥)

^(١) الديوان ١: ١٨٨.

^(٢) عند الرضيد سام - شعر الرثاء العربي واستيعاض العرائم ١٢٦ .

^(٣) تحرير حاتم - الاعتبار في حياة وشعر الشريف الرضي ٣٩ .

^(٤) الديوان ٢: ١٦٧ .

^(٥) الديوان ٢: ١٦٦ .

وفى هذا تذكير من الشاعر للخليفة بالموت واقتداره على الحكاء والمحكومين ، حتى تكون رحلة الموت مقبولة من العظماء والخلفاء ، فحياتهم ليست دائمة ، لذا عمد الشاعر عند تعزية الطائع عن ولده أبي الفتح إلى تذكيره بالعظماء الماضين ، وقد هجروا الديار ، وعطلوا الأبناء فأين هم الآن :

أَيْنَ الْمَقَاوِلُ ، وَالْغُصَارِفَةُ الْأُولَى
فَاخْلُطْ بِصَوْتِكَ كُلَّ صَوْتٍ وَاسْتَمِعْ
وَكَذَا مَضَى قَبْلِي الْقُرُونُ يَكْبَهُمْ
هَجَرُوا الدِّيَارَ وَعَطَلُوا الْأَفْنَاءَ
هَلْ فِي الْمَنَازِلِ مِنْ يُجِيبُ دُعَاءَ
صَرَفُ الزَّمَانِ تَسْرُعًا وَنَجَاءً^(١)

بل دعاه إلى التلفت إلى أبنائه الغر ليلتمس في فنائهم العزاء ، فالعزاء الجميل يكون بحسن استخدام العقل ، والصبر أفضل ما يكون عند اشتداد البلاء ، فقال عند تعزية الخليفة عن عمر بن إسحاق بن المقدّر :

تَلَفْتُ إِلَى آبَائِكَ الْغُرِّ هَلْ تَرَى
تَقْدُّ كُنْتُ أَوْصِي بِالْبُكَاءِ مِنَ الْجَوَى
كَفَامًا وَلَا وَجْدٌ يَزُولُ بِعَبْرَةٍ
مَنْ الْقَوْمِ بَاقٍ جَاوَزَتْهُ حُبُولُ
لَوْ أَنَّ غَرَامًا بِالدَّمُوعِ غَسِيلُ
فَصَبِرُ الْفَتَى عِنْدَ الْبَلَاءِ جَمِيلُ^(٢)

وقد اغتنم الشريف الرضي وفاة أبي الفتح بن الطائع فرصة لتعزيته ومدحه ليحظى بالقبول عنده ، ويدنيه من مجلسه ، حيث أظهر في تعزيته تلك المشاعر الدافئة ، وكأنه يتكلم بمشاعر الحزن والأسى على لسان الخليفة ، ويدعوه إلى الصبر والسلوى ، مع أن موت أبي الفتح قد أطار القلوب ، إذ عندما نعى الناعيان أبلج من ذؤابة هاشم مشى الجوى بين القلوب وضعضع الأحشاء حتى عم البكاء كل حي ، ورأى الشاعر هذا اليوم أسود ، والشمس فيه ترجف ، والغمام يقف باكيا فوق القبر يقول :

وَمُصَابُ أَبْلَجٍ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
وَنَجِ الْقُبُورِ وَأَرْعَجِ الْخُلَفَاءِ

^(١) الديوان ١ : ٦٩ .

^(٢) الديوان ٢ : ١٦٧-١٦٨ .

لَمَّا نَعَاكَ النَّاعِيَانِ مَشَى الْجَوَى
بَيْنَ الْقُلُوبِ وَضَعُوعَ الْأَحْيَاءِ
وَاسْوَدَّ شَطْرُ الْيَوْمِ تَرَجُّفُ شَمْسِهِ
قَلَقًا وَجَرَ ضِيَاؤُهُ الظُّلُمَاءِ
وَأُرْتِجَ بَعْدَكَ كُلُّ حَيٍّ بِأَكْيَا
فَكَانَمَا قَلْبَ الصَّبِيرِ رُغَاءُ^(١)

وهكذا يسبق الشاعر مشاعره على الوجود بما يشبه الحس الرومانسي ، فقد كان الرومانسيون يسقطون عواطفهم على أشياء الطبيعة وعناصرها ، لأنهم لم يجدوا العزاء والسلوى لدى الأحياء من بني البشر ، فخاطبوا الجماد وأكسبوه روحاً جديدة ، وأصفوا عليه حساً وحياة ، هما حسهم وحياتهم بالذات^(٢) .

وقد جمع الشاعر في هذه المراثاة بين تعزية الخليفة ومدحه ، ومن صور المدح التي عزى بها الشاعر الخليفة أن جعل وجود الأب أفضل عوض ، لأن الابن يمكن أن يؤتى بمثله أما الأب فلا يمكن تعويضه ، فليسلم الخليفة إذا ، وليكن ابنه فداء له ، لأن الابن للأب أولى الأنام بأن يكون وقاء يقول :

فَأَسْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَزَلْ
تَجْرِي الْجِيَادُ وَتُحَرِّرَ الْغُلُوءُ
فَإِذَا سَلِمْتَ مِنَ النَّوَائِبِ أَصْبَحْتُ
تَرْضَى ، وَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ فِدَاءُ
وَالصَّبْرُ عَنْ وَلَدٍ يَجِيءُ بِمِثْلِهِ
أُولَى ، وَلَكِنْ نَسَبُ الْأَبَاءِ
وَالْأَبْنِ لِلأَبِ إِنْ تَعَرَّضَ حَادَثٌ
أُولَى الْأَنَامِ بِأَنْ يَكُونَ وَقَاءُ^(٣)

وقد جعل بقاء الخليفة أفضل منية عند تعزيتة عن وفاة عمر بن إسحاق ، وعن وفاة قاضي القضاة ابن معروف ، فقال في القصيدة الأولى مخاطباً الخليفة وقد بدا فيها حكيماً واعظاً يفضل حياة العز على حياة الدل :

مَضَى وَالَّذِي يَبْقَى أَحَبُّ إِلَى الْعُلَى
وَأَهْدَى إِلَى الْمَعْرُوفِ حِينَ يُنِيلُ

^(١) الديوان ١ : ٧٠ .

^(٢) عادل الفريجات - إصابات في الفقد الأدبي ، دار أسامة ، دمشق ، ١٩٨٥ ، ١٧٥ .

^(٣) الديوان ١ : ٧١ - ٧٢ .

بِقَاءِكَ نِيَّوِي وَحَدَّهُ دُونَ غَيْرِهِ
فَدَعَ كُلَّ نَفْسٍ مَا سِوَاكَ تَسِيلُ^(١)
وَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ
إِذَا جَاوَرَ الْأَيَّامَ وَهُوَ ذَلِيلُ^(٢)

ويبدو من البيت الثالث أن الشاعر يعيش حالة من الخوف على الوجود القومي ، لذا لجأ إلى استشارة مروءة الخليفة وهو يقصد من وراءه من العرب كي يعيدوا إلى الخلافة هيبتها ويلفظوا حياءً الدل التي يحيونها ، والخليفة أمله في تحقيق حياة العز هذه ، لذا يدعو الله أن يطيل بقاءه ويعطيه من الملك مالم يعط غيره ، يقول :

يَقُولُونَ : لَوْ أَمَلْتُ فِي النَّاسِ غَيْرَهُ
بَقِيتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّمَا
وَأَعْطَيْتَ مَالَهُ يُعْطَى فِي الْمُلْكِ مَالُكَ
وَكُلُّ فَوْقَهُ السَّائِلِينَ مُسُولُ^(٣)
بَقَاؤُكَ بِأَنْعَزِ الْمُقِيمِ كَفِيلُ^(٤)
فَإِنَّكَ فَضْلٌ وَالْأَنَامُ فَضُولُ^(٥)

وفي القصيدة الثانية مدح الخليفة وعزاه عن موت ابن معروف قاضي القضاة ، مشيراً إلى أن من مناقب الفقيه أنه كان السابق إلى عقد البيعة لأمير المؤمنين ، يقول مشيراً إلى هذه البيعة ويدعو لأمير المؤمنين :

تَعَزَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَرِيْمَةً
أَمِينُكَ لَمْ يَذْخُرْكَ نَصْحًا إِذَا حَنَا
هُوَ السَّابِقُ الْهَادِي إِلَى عَقْدِ بَيْعَةٍ
بَقِيتَ أَمِينَ اللَّهِ عَوْدًا لِمَفْزَعٍ
مِنْ أَنْعَزٍ عَنْ مَاضِي الصَّرَائِدِ أَرْوَعٍ
رِجَالٌ عَلَى الْغُثِّ الْقَدِيمِ بِأَضْلَعٍ
رَأَى النَّاسَ فِيهَا بَيْنَ حُرَّى وَظُلْعٍ
وَمَرَعَى لِإِخْفَاقٍ وَوَرْدًا لِمَطْمَعٍ^(٦)

رثاء البويهيين :

مرّ بنا فيما سبق موقف الشريف الرضي المعارض للحكم البويهي، بسبب شعوره بخطر الشعوبية، واستفحال شأن العجم، في الوقت الذي كانوا فيه على رأس السلطة والخليفة العباسي ليس له من هذه السلطة إلا الاسم. وقد هاجم هؤلاء السلاطين في كثير من قصائده، ومثال ذلك قوله :

^(١) الديوان ٢ : ١٦٧ .

^(٢) الديوان ٢ : ١٦٨ - ١٦٩ .

^(٣) الديوان ١ : ٦٤٦ .

أَلَا إِنِّي حَسْرَةُ الْحَاسِدِينَ وَمَا حَسْرَةُ الْعُجَمِ إِلَّا الْعَرَبُ
فَلَا لِبَسْوَا غَيْرِ هَذَا الشَّعَارِ وَلَا رُزْقُوا غَيْرَ هَذَا اللَّقَبِ^(١)

ووصل به الأمر أن يسمت بهم بأسلوب غير مباشر في مدائحهم ، فيها هو يمدح بهاء الدولة ، ثم يذكر في القصيدة وقبعة العرب بالفرس في حرب ذي قار ، ويذكر أمجاد العرب في تلك الحرب وتغلبهم على الفرس ، يقول :

أَذْكُرُونَا يَوْمَ ذِي قَارٍ وَقَدْ أَقْبَلُوهُ عَارِضَ الضَّعْنِ بِرَدِ^(٢)

إلا أننا رغم كل هذا نرى الشريف الرضي يتصل بالسلطين البويهيين ، يمدحهم بغرر القصائد ويرثيهم ، مع أن مديحه لهم كان بدافع الخوف والتقية^(٣) ، ولم يكن بدافع المحبة والتقدير ، كما يقول :

وَمَا مَدَحْتُهُمْ أَنِّي رَجَوْتُهُمْ لَكِنَّهُ عَوْدٌ مِنْ شَرِّهِمْ وَرُقَى^(٤)

أما رثاؤه للبويهيين فقد كان رثاء لأماله ، إذ كان الحديث فيها منصبا على عليه القوم من ملوك ووزراء فقط ، فلا شأن له بغيرهم . لأن علاقته بهم قائمة على الطموح والمنفعة الذاتية . إلا أن عاطفته حية في هذه القصائد ، وقد تصدّح قلبه لوفاء شرف الدولة وبهاء الدولة ، وهذه الازدواجية في المشاعر وإن كانت ضارة بشخص الرضي مقلقة له ، فإنها هي التي خلقت هذا الإبداع في شعره .

وقد رثى الرضي من البويهيين الملك شرف الدولة بن عضد الدولة ت(٣٧٩هـ) ^(٥) ،

^(١) الديوان : ١ : ١٦٥ .

^(٢) الديوان : ١ : ٣٣٦ .

^(٣) " مبدأ التقية من المبادئ التي تنتج عليها السبعة ، وهو أن تسدي لعينك غيباً وتغطي عه غيباً آخر " - سبيل أبو حنيفة - التفرق الإسلامية فكرياً وشعراً ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٠ ، ١٦٧ .

^(٤) الديوان : ٢ : ٧٤ .

^(٥) الديوان : ١ : ٣٥١-٣٥٣ .

كما رثى ولده أبا شجاع ت (٣٩١هـ) ^(١) ، ورثى الملك قوام الدين (بهاء الدولة) بقصيدتين ^(٢) ، وعزاه عن ولده أبي منصور بويه ت (٣٧٢هـ) ^(٣) . كما وردت قصيدة للرضي يثمت فيها بموت عضد الدولة ^(٤) ورثى من وزراء بني بويه الصاحب بن عباد ^(٥) ، والصاحب عميد الجيوش أبا علي ^(٦) .

وهكذا يتقرب الرضي من أرباب السلطة البويهيين ليصل إلى أحلامه، فهو يعلم أن السطوة والقوة بأيديهم، وهم الذين يوصلون إلى الخلافة من يشاؤون، ويخلعون منها من يريدون خلعهم، وهذا ما حصل بالفعل مع المطيع لله والطائع . وقد خلع الطائع والرضي في مجلسه، فلم يكن اتصال الرضي بالبويهيين إذا لمطمع مادي كالمال وغيره . إنما من أجل العلا والكرامة وتحقيق الطموح. فعندما قدم شرف الدولة بغداد وبصحبه والد الرضي، سرّ به كثيراً، وعلق عليه الأمل ، فقال :

إِنَّا لَنَرْجُوكَ وَالْأَيَّامُ رَاغِمَةٌ
وَالرَّوَضُ يَرْجُو نَوَالَ الْعَارِضِ الْخَصِلِ ^(٧)

وقال من قصيدة يمدح فيها بهاء الدولة آملاً أن تكون له منزلة عنده

يَا أَيُّهَا الْبَحْرُ بِنَا غُلَّةٌ
فَهَلْ لَنَا عَنْدَكَ مَن مَّكَرَعٍ ^(٨) ؟

^(١) الديوان ١ : ٢١٩-٢٢١ . وهو أبو شجاع مكر من آل العباس الموحدي حارث بنك خلال الدولة ، توفي براسد سنة (٣٩١هـ) .

من الأثير - الكامل ٨ : ١٩ .

^(٢) الديوان ١ : ٦٣٠-٦٣٣ ، ٢ : ٤٠٢-٤٠٣ .

^(٣) الديوان ١ : ١٤٨-٢٠١ .

^(٤) الديوان ١ : ٣٢٩ .

^(٥) الديوان ٢ : ١٧٥-١٨٢ . وهو أبو القاسم إسماعيل بن عباد الوزير الملقب بالصاحب كان الكفاء ولد بالطائف سنة (٣٢٦هـ) وقد

أحد من كل العصور بالنسبة لوفاء وبيع من الخلافة ما بعد في البحر . وزير مؤيد الدولة . وحيه فجر الدولة . توفي سنة (٣٨٥هـ) .
الخموي - معجم الأدباء ٢ : ٦٦٢-٦٦٣ ، والتعالي - نعمة النهر ٣ : ٢٢٥ .

^(٦) الديوان ١ : ٢٠١-٢٠٥ . وهو أبو علي الحسن بن أبي جعفر أستاذ هرمز . ولد سنة (٣٥٠هـ) ولاد هذه الدولة ووزارة سنة

(٣٩٢هـ) والشعور كثيرة متشرة معبد الملاد وأحاف العبارين ، توفي سنة (٤٠١هـ) بعدد وتولى تعييزه والصلاة عليه الشريف

الرضي . من كثير - البداية والنهاية ١١ : ٣٦٧ . ومن الأثير - الكامل ٨ : ٦٤ .

^(٧) الديوان ٢ : ١١٥ .

^(٨) الديوان ١ : ٦١٢ .

أما رأي الرضى في الوجود البوينى ، فكان واضحا في جميع شعره ، بالتصريح أحيانا وبالتلميح في أحيان كثيرة، لذا نراه يستيق الأحداث ويعلن معاداة كل من سيخلف عضد الدولة في القصيدة التي شمت فيها بموته، وقد بعثها إلى والده في السجن حيث يقول:

أَبْلَغَا عَنِّي الْحُسَيْنَ الْوُكَا	أَنَّ ذَا الطُّودَ بَعْدَ عَيْنِكَ سَاخَا
وَالشَّيَابَ الَّذِي اصْطَلَبْتَ لَضَاهُ	عَكَسَتْ ضَوْؤَهُ الْخُطُوبُ فَيَاخَا
وَالْفَنِيْقَ الَّذِي تَدَّرَعَ طُولا	أَرْضٍ خَوَّيَ بِهِ الرَّدَى فَنَاخَا
وَالْعُقَابَ الشَّغْوَاءَ أَهْبَطَهَا النَّيْبُ	قُ، وَقَدْ أَرَعْتَ النُّجُودَ سَنَاخَا
أَعْجَلَتْهَا الْمَنُونُ عَنَّا، وَلَكِنْ	خَلَفْتُ فِي دِيَارِنَا أَفْرَاخَا ^(١)

وكان الشاعر لم يجرؤ على التصريح باسم عضد الدولة فكفى عنه بالطود والشهاب والفنيق والعقاب، قاصدا منها السخرية، مع أنها ألفاظ تدل على الترموخ والرفعة في رثائه للعظماء. ولم يقف الشريف عند هذا الحد، بل نراه يثمت كذلك بموت وزير عضد الدولة المظفر بن عبد الله^(٢)، الذي نفذ الأمر بحبس والده، فقال من قصيدة يمدح فيها أباه أرسلها إليه في السجن، وقد شمت فيها بموت هذا الوزير الذي أهان والده بعبارة سبقت الإشارة إليها، يقول:

وَجَبَانَ لَوَيْتُ عَنْهُ فَأَمْسَى	وَجِدَّ الْعَيْنِ مِنْ قِرَاعِ الرَّقَادِ
لَا أَقَالَ إِلَهٌ مِنْ خَانَكَ الْعَيْ	دَ، وَجَازَاكَ بَغْضَةً بِالْوِدَادِ
قَصَرَ الدَّهْرُ مِنْ خِرَادٍ وَقَدْ كَا	نَ بِتِلْكَ النُّظْبَى طَوِيلَ النَّجَادِ
وَأَذَلَّ الزَّمَانُ بَعْدَكَ عَظْفِي	هَ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَعَزِّ الْعِبَادِ ^(٣)

لكن الرضى عند رثاء شرف الدولة وبهاء الدولة، كان يرثي أماله التي تحطمت بموتهما، فقد كانت أيامهما نعمة وخيرا عليه، فشرف الدولة هو الذي أطلق سراح والده واستصحبه إلى بغداد ، أما بهاء الدولة فكان من أكثر البوينيين إكراما للرضى وأسرته، فهو

^(١) الديوان ١ : ٣٢٩ .

^(٢) هو المظفر بن عبد الله . قتل نفسه سكين فقطع فيها شراطين ذراعه ، حين أحرق في حرب مع الحسن بن عمران بن شاهين . وقد سبغ أن تقص مراثيه عند عضد الدولة ، ويثمت به أعداؤه . وكانت هذه الحادثة عام (٣٦٩هـ) . ان الأثير - الكامل ٧ : ٣٨٥ .

^(٣) الديوان ١ : ٣٥٦ - ٣٥٧ .

الذي قلده نقابة الطالبين بالعراق كاملاً سنة (٣٩٦هـ) ، ولقبه بالرضي ذي الحسين ، ولقب أخاه المرتضى ذا المجدين^(١) ، وفي سنة (٤٠٣هـ) قلده نقابة الطالبين في سائر الممالك، وقرئ تقليده في دار الوزير فخر الملك وخلع عليه السواد، وهو أول طالب يخلع عليه السواد^(٢) لذا فقد كانت نفس الرضوي تضطرب إزاء الأحداث المتعلقة ببهاء الدولة، وكان حريصاً عليه من الحدثان كما يقول:

أَضْمَ عَلَيْهِ الرَّاحَتَيْنِ تَعَلُّقًا وَقَدْ نَزَعَتْهُ مِنْ يَدَيَّ نَزْوَعٌ^(٣)

فهو الذي أكرمه بعد أن حاربه الزمان بطموحاته وأحلامه، فأنثر ذلك في "نفس الشريف وخلق منه شاعراً حساساً، يجيد الرثاء، ويحسن البكاء والعويل"^(٤). وقد سطر الرضوي لشرف الدولة أية العرفان بالجميل، فهو الذي أطلق سراح والده بعد معاناة طويلة، وأعاد له عزه القديم، وبكى أماله التي رجاها عند شرف الدولة فقال:

أَعَادَ عِزَّ أَبِي غَضًّا وَخَوَّلَهُ مَا شَاءَ مِنْ بَذْلِ إِعْزَازٍ وَإِكْرَامٍ
وَكُنْتُ أَجْمَمُهُ لِلْعِزِّ أَطْلُبُهُ وَإِنَّمَا كَانَ لِلْمَقْدُورِ إِجْمَامِي^(٥)

فشرف الدولة عظيم في نظر الشاعر، لكن هذا العظيم العزيز، قد عصفت بأعلى عزه يد لا تعلوها يد، إذ لم يستطع دفعها بما سوّم من عدد، وما تعمد من نقض وإبرام، ولم يثبها بالسمر مشرعة، وهكذا المقادير تملي أعماراً وتسخياً كما يقول:

أَبَا الْفَوَازِ مَا أَعْلَى يَدَا عَصَفَتْ مِنَ الْمُنُونِ بِأَعْلَى عِزِّكَ السَّامِي
كَرَّتْ فَلَمْ تَنْتَهِ بِالسُّمْرِ مُشْرَعَةً وَلَمْ تَرَعْهَا بِإِسْرَاحٍ وَإِجَْامٍ
أَلَا انْقَبَتْ بِمَا سَوَّمْتَ مِنْ عُدَدٍ وَمَا تَعَنَّمْتَ مِنْ نَقْضٍ وَإِبْرَامٍ
هَيَّيَاتَ أَلْقَى حِمَامٌ كُلَّ مَارِنَةٍ تَدْمِي، وَأَبْطُلَ مَوْتُ كُلِّ إِقْدَامٍ

^(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١١: ٣٥٨. وابن الأثير - الكامل ٨: ٣٦.

^(٢) ابن كثير - البداية والنهاية ١١: ٣٧١.

^(٣) الديوان ١: ٦٣٢.

^(٤) محمود غلاوي الزهيري - الأدب في ظل بني بويه ١٨٠.

^(٥) الديوان ٢: ٣٥٣.

تملى المفادير أعماراً وتسخيها ويضرب الدهر أياماً بأيام^(١)

وإزاء هذا يعود الشاعر إلى الماضي القريب، فهو يرثي الملك بدموعه، ويأتي بصورة جديدة من الربط بين حياته الماضية، وقد كان جواداً شجاعاً بطلاً في ساحة الوغى، وتحدث عن موته، وكيف أنه يستحق البكاء والرتاء، إذ لا يملك أحد في مثل هذا الموقف إلا البكاء. فقد ملأ الشاعر قصيدته بالفاظ هي من مورد الحزن على فقدان الندى والخير، والعطف على الأرحام المجفوة، فربط ماضيه المشرف، بحاضره المؤلم المفزع، يقول:

أَيْنَ الْجِيَادِ تَنَزَّى فِي أَعْنَتِهَا	يَطْلُبْنَ يَوْمًا قَطُوبًا وَجَيْشُهُ دَامَ
أَيْنَ الْوَفُودِ عَلَى الْأَبْوَابِ مُذَكِّرَةٌ	بِاتْفَرُطٍ مِنْ مَجْدِ أَخْوَالٍ وَأَعْمَامَ
أَيْنَ الْقِيُولِ كَانَ الْمُتَطِينُ لَهَا	عَلَى ذَوَائِبِ أَطْوَادٍ وَأَعْلَامَ
مَضَى وَلَمْ يُغْنِ مَا عَدَّتْ عَنْهُ وَلَا	كَسَبُ الْعُلَا وَاجْتِنَابُ النَّوْمِ الدَّامِ
وَعَادَ أَعْظَمُ مَنْ فِي جَيْشِهِ جُرَّةً	وَلَيْسَ يَمْلِكُ إِلَّا عَضُّ إِبْهَامِ
يَحْنُو عَلَى رَحِمِ مَجْفُودٍ وَيَسْرَى	قَطَعَ الرَّقَابِ وَلَا قَطْعًا لِأَرْحَامِ ^(٢)

وقد انتهزت آمال الشاعر عند موت بهاء الدولة، إذ أحدث هذا الموت جرحاً لا يبرأ في قلب الشريف، فعبّر عن خيبتة في تحقيق أحلامه من بداية قصيدته التي رثاه بها بعد موته، وهي كاملة تعرب بوضوح عن الأمل الذي بدأ يافئ، فقد كان يرجو في حياة بهاء الدولة عزاً ومجداً، فتقوَّض هذا العز، وغربت شمس ذلك المجد، وأصبحت نفس الشريف مضطربة بين اليأس والرجاء، فقال مودعاً أحلامه وأماله، لأنَّ انتهاء بهاء الدولة وموته، يعنى انتهاء الشريف وأقول نجمه :

دَعِ الذَّمِيلَ إِلَى الْغَايَاتِ وَالرُّنْكََا	مَاذَا الطَّلَابُ، أَتَرْجُو بَعْدَهُ دَرَكَا
مَا لِي أَكْلَفُهَا التَّهْجِيرَ دَاتِبَكَّةً	عَلَى الْوَجَى وَقَوَامِ الدِّينِ قَدْ هَلَكَا
حُلَّ الْغَرُوضِ، فَلَا دَارَ مُلَانِمَكَّةً	وَلَا مَزُورٍ إِذَا لَاقِيَتْهُ ضَحْكَا

^(١) الديوان ٢ : ٣٥١ .

^(٢) الديوان ٢ : ٣٥٢ .

أَمْسَى يَقْوَضُ عَنَّا الْعِزُّ خَلْفَهُ
وَتَوَرَّ السُّجْدُ عَنَّا بَعْدَمَا بَرَكْنَا
الْيَوْمَ صَرَخَتْ الْجُلَى، وَقَدْ تَرَكْتُ
بَيْنَ الرَّجَاءِ وَبَيْنَ الْيَأْسِ مُعْتَرِكًا^(١)

ولهذا شعر الرضي أن الحياة قد انتهت بموت بهاء الدولة ولا قيمة لها، إذ الحياة في نظره أن يعيش "بطلا منقذا للعرب، لينقذهم من حياة الدل واليوان"^(٢)، ولأجل هذا قضى حياته كلها ظمآن إلى أمال عراض كان محلاً عنها، فمن يحققها له بعد بهاء الدولة ؟ ، يقول:

بِمَنْ تَدْفَعُ الْجُلَى، بِمَنْ تَرْفَعُ الْعُلَى
بِمَنْ يُنْقِضُ الظَّمَانَ وَهُوَ مُحَلَّلٌ
بِمَنْ تَحْفَظُ الْأَمَالَ وَهِيَ تَضِيعُ
بِمَنْ يُؤْمِنُ الْمَضْرُوءُ وَهُوَ مَرْوَعٌ^(٣)

فبهاء الدولة كان بينه وبين سياد الأياد، كالمجن يتقى به الخطوب، فغالب الموت أطماعه فيه وقارع أماله كما يقول :

رَمَيْتِي سِيَادُ الْيَأْسِ بِعُذْكَ جَهْرَةً
وَزَالَ مِجَنُّ مَانِعٍ كُنْتُ أَتَقِي
وَأَنْبَضَ نَحْوِي عَاجِزٌ وَجَزُوعٌ
بِهِ الْخُطْبُ، وَالْخُطْبُ الْجَلِيلُ قُصُوعٌ^(٤)

لقد كان يأمل فيه عز الدنيا، فجاء هذا الموت الذي كان:

رَزِيئَةٌ لَمْ تَدَعْ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا
وَلَا غَمَامًا وَلَا نَجْمًا وَلَا فَلَكَ^(٥)

فقضى على كل ابتسام وكل ضحك في الدنيا، أو هكذا أصبحت حال الشاعر:

لَا تُبْصِرُ الدَّهْرَ بَعْدَ الْيَوْمِ مُبْتَسِمًا
إِنَّ اللَّيَالِي أَنْتَ بَعْدَ الضَّحِكَا^(٦)

ولا يملك الشاعر إزاء هذا القدر المحتوم إلا أن يدعو على الناعي الذي حمل إليه الخبر، فيقول:

أَقُولُ لِنَاعِيهِ عُقْرَتَ ، وَجَرَبَتَ
وَوَغْلَغَلَ مَا بَيْنَ الْحَبَائِيْنِ وَالْحَشَا
بِشَلْوِكَ فَدَعَاءُ الْيَدَيْنِ خَمُوعٌ
سِنَانٌ كَمِصْبَاحِ السَّلَيطِ وَقِيعٌ^(٧)

^(١) الديوان ٢: ٩٠-٩١ .

^(٢) عجم عند علي - الإحساس بالعروبة في شعر الشريف الرضي ، مجلة آداب المستعصرية ، عدد (٥) ، مطبعة المعارف ، بغداد .

١٥٥٨ ، ٢٥٨ .

^(٣) الديوان ١: ٦٣١ .

^(٤) الديوان ١: ٦٣٢ .

^(٥) الديوان ٢: ٩١ .

^(٦) الديوان ٢: ٩٣ .

^(٧) الديوان ١: ٦٣١-٦٣٢ .

لهذا فقد أحس الشاعر بفقدته مبيناً أن قلبه لو كان صخرة لتصدع من شدة الشوق إليه وقت

ذكره ذكر العاضات ورودها ، يقول :

ذَكَرْتُكَ ذَكَرَ الْعَاضَاتِ وَرُودَهَا تَحَرَّقُ أَكْبَادُ لَيْلَا وَضُلُوعُ
تَقَافُنَ يَطْلُبِنَ الرَّوَاءَ عَشِيَّةً فَرَائِعُ أَدْنَى وَرُدِّهِنَّ نَزِيْعٌ^(١)

وإذا ما تأملنا قصائد الرثاء في البويهيين ترى الشاعر ينتقى ليه من قيم التأبين القوة

والنباس والكرم والشجاعة، ولا يمدحهم بأصالة النسب إلا نادراً. يقول في رثاء شرف الدولة :

وَكَانَ أَقْطَعَ مِنْ صُمَامَةٍ طَبَّةً فِينَا، وَأَمْضَى مَضَاءٍ مِنْهُ فِي الْيَامِ
لَمْ يَجْرُ يَوْمًا بِأَطْرَافِ الْعِرَاقِ دَمًا إِنَّا وَرَاعَ دِمَاءَ الْقَوْمِ بِالشَّامِ
وَكَانَ إِنْ حَافَ عَدَمٌ ثُمَّ عُدَّتْ بِهِرٌ مَلَأَتْ أَرْضَكَ مِنْ خَيْرٍ وَأَنْعَامِ^(٢)

ويمدح البويهيين كافة عند رثاء أبي شجاع بن شرف الدولة بهذه القيد ، فيقول :

مِنْ الْقَوْمِ الْأُولَى مَلَأُوا اللَّيَالِي إِلَى أَصْبَارِهَا كَرَمًا وَإِذَا
وَرَسُوا فِي قَوَائِرِ كُرٍّ خَطْبٍ صُدُورُ الْبَيْضِ وَالزُّرْقِ الْجَدَا
لَيْدٌ أَنْفٌ يَكْذِبُ الضَّيْدَ عَنْهُمْ وَرَأَى يُفْرِجُ الْكُرْبَ الشَّدَادَا
وَأَيْمَانٌ إِذَا مُطِرَتْ عَطَاءً حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ جَوَادَا^(٣)

وكما جمع الشاعر بين قيمتي الاقتدار والسخاء، في رثاء شرف الدولة وابنه، فإنه يكرر

المعاني نفسها في رثائه لبهاء الدولة ، يقول :

فَأَيْنَ قِوَامُ الدِّينِ لِلْخُطْبِ بَعْتَرِي وَلِدَهْرٍ يَغْدُو بِالْأَذَى وَيَرْوَعُ
وَأَيْنَ قِوَامُ الدِّينِ لِلْبَيْضِ وَالْقَنَا إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْيَقِينُ دُرُوعُ
وَأَيْنَ قِوَامُ الدِّينِ لِلنَّيْلِ وَالْقِرَى إِذِ الْجَدْبُ مُعْطَرٌ وَالسَّحَابُ مَنُوعُ^(٤)

ويرسم الشاعر صورة السخاء من خلال تصوير قسوة الحياة، عندما يعيش الناس بجذب

عفاة مرملين ، فيقوم بهاء الدولة بدوره في الحذب على هؤلاء ، يقول :

أَلَا مَنْ لِأَضْيَافِ الشَّتَاءِ يَلْفَهُمْ سَقِيطٌ ظَلَامٌ قَطِطٌ وَصَفِيعُ

^(١) الديوان : ١ : ٦٣٣ .

^(٢) الديوان : ٢ : ٣٥٢ .

^(٣) الديوان : ١ : ٤١٩ - ٤٢٠ .

^(٤) الديوان : ١ : ٦٣١ .

تَجَانِبُهُمْ أَيْدِي السَّمَالِ رِيَاضُهُمْ
فَيَسْقُطُ سَبُّهُ أَوْ يَضِلُّ قَطِيعُ^(١)
وَمَنْ لِلْعُقَاةِ الْمَرْمَلِينَ يَشْلَهُمْ
مِنْ الدَّهْرِ قَرْنٌ لَا يُرَامُ مُنِيعُ^(٢)

فالناس بعد بقاء الدولة كالإبل الضمأى، لا راعي يحفظها، وما أضل الشريف يعني إلا

نفسه، فكلمة الضمأ هذه كثيرة الترداد في شعره للتعبير عن طموحاته التي لم تتحقق، يقول :

فَيَا رَاعِي الدَّوْدِ الضَّمَاءِ تَرَكْتَهَا
وَاحْفَظْ رَاعٍ مَذْنَابَتَ مُضِيعُ^(٣)

أما تعزية الشريف الرضي للبويهيين، فقد كانت مما توجبها رسميات التعامل مع الملوك،

وقد أبدع وهو يعزي سلطان الدولة عند وفاة والده الملك بقاء الدولة في قصيدة هنا فيها حين

عقد له أمر الملك، فجمع الشاعر بين عاطفتين متناقضتين، هما فرح التهنئة وحزن التعزية،

وهو من أصعب المواقف، حيث يقول ابن رشيق القيرواني: "ومن صعب الرثاء أيضا جمع

تهنئة وتعزية في موضع"^(٤) فقال الرضي مهللا فرحا وباكيا حزينا في أن :

تَمْضِي الْعُلَى وَإِلَى ذُرَاكُم تَرْجِعُ
عَيْنَانِ، عَيْنٌ لِلْمَزِيدِ قَرِيرَةٌ
وَإِذَا أَضْمَانٌ مِنَ الْعُضِيَّةِ مَضَجَ
فَلَيْتَ فَرَحَنَا إِنْ ذَلِكَ مُفْرَحٌ
لِلْمَجْدِ مِنْ عَلَيَاكُمُ وَمَصَابِكُمُ
يُوسَى وَنُعْمَى أَعْقَبَتْ فَكَأَنَّمَا
شَمْسٌ تَغِيبُ لَكُمْ وَأُخْرَى تَطْلُعُ
مِنَّا، وَعَيْنٌ لِلنَّقِصَةِ تَدْمَعُ
يَوْمًا أَقْضَى مِنَ الرَّزِيَةِ مَضَجَ
وَلَيْتَ جَزَعَنَا إِنْ ذَلِكَ مُجْزَعٌ
أَنْفٌ بِهِ شَمَمٌ، وَآخِرُ أَجْدَعُ
رُنَّتْ عَلَى أَعْقَابِنِ الْأَدْمَعِ^(٥)

وقد عزى الرضي بقاء الدولة عن ولده أبي منصور بويه، في قصيدة عدتها أربعون بيتا

بدأها كعادته في تعزية الخلفاء والملوك، بالتهوين من شأن المصائب، فالأمر قضاء من الله

مكتوب، ومتى سلم الملك فإن وجوده خلف عن كل فائت، ويدعوه أن يصبر لهذا المصائب مذكرا

إياه بصبر يعقوب على فقد يوسف عليهما السلام، ويذم الزمان الذي رمى هذا الفتى الأعجمي

^(١) الديوان ١ : ٦٣١ .

^(٢) الديوان ١ : ٦٣١ .

^(٣) الخيرون - العمدة ٢ : ١٥٥ .

^(٤) الديوان ١ : ٦١٢ - ٦١٣ .

الأصول، ويمدح المتوفى ويصفه بالشجاعة والكرم، ثم يعود الشاعر لتكرار المعنيين السابقين، مع ضرب الأمثال والإكثار من الحكم لتأكيد ما سبق، كما يقول:

إِذَا السِّنَانُ الطَّرِيرُ دَامَ لَنَا	فَدَعَاهُ يَسْتَبْدِلُ الْأَنْبِيَا
وَكُلُّهُ يَخُونُ الطَّعَانَ يَوْمَ وَغَى	أَنْ نَقْصُ السَّمَّهَرِيِّ أَنْبُوبَا
كَمَا هَيَّيْتُ السِّيفَ بِالْغُمُودِ، وَلَا	أَهْيَبَ مَنْ أَنْ تَرَاهُ مُسْلُوبَا
وَالْبَدْرُ مَا ضَرَّهْ تَفَرُّدُهُ	وَلَا خَبَا نُورُهُ وَلَا عِيَا
وَمَا افْتَرَقَ الشُّبُولُ عَنْ أَسَدٍ	بِمَنْعٍ أَنْ يَكُونَ مَرْهُوبَا ^(١)

وفي نهاية القصيدة يدعو للملك بالسلامة، وأن يحفظ الله الباقيين من أبنائه، وأن لا تروعه المنون، ولا يجد الدهر طريقاً إليه، ولا تدخل المصائب رواق مجده.

أما علاقة الشريف الرضي بوزراء الدولة البويهية، فقد أشار بعض الباحثين^(٢) إلى أنها كانت نفعية، وقد يصح هذا على الوزراء الذين أقام معهم علاقات صداقة، ليستطيع من خلالها التنفيذ إلى ما يطمح إليه، إلا أننا لم نلمح هذه النفعية في رثائه للوزيرين: صاحب عميد الجيوش، والصاحب بن عباد. ولعل علاقته بالأول كانت ضيقة، لم تصل إلى حد الصداقة، وعندما توفي كان من الواجب الرسمي عليه أن يرثي هذا القائد، وأن يمدح الملك من خلال رثائه. وقد جاءت قصيدة الرثاء هذه بصورة عزاء لنفسه ولأصحاب المصيبة، ليخفف عنهم وطأة الواقعة، فعاطفته في متن هذه القصيدة بعيدة عن الحرقرة واللوعة وذرف الدموع. فهي لذلك تزخر بالصور الرائعة والحكم البالغة، يقول:

كَذَا يَهْجُمُ الْقَدْرُ الْغَائِبُ	وَلَا يَمْنَعُ الْبَابُ وَالْحَاجِرُ
تَغْلَغُلُ يَصْدَعُ شَمْلَ الْعُلَى	كَمَا دَعَّخَ الْإِبِلُ الْخَارِبُ
وَقَدْ كَانَ سَدَّ ثَنَائَا الْعَدُوِّ	فَمَنْ أَيْنَ أَوْضَعَ ذَا الرَّاكِبِ
وَهَابَتْ جَوَانِبُهُ النَّائِبَاتُ	زَمَانَا، وَقَدْ يَفْدِمُ الْهَائِبُ

وَكَمْ نَحْنُ إِلَّا مَرَامِي السَّهَا
مُحْفَرُهُمَا نَابِلٌ دَائِبٌ
نُسْرُ إِذَا جَارُنَا طَائِرُ
وَنَجْرُعُ إِنْ مَسْنَا صَانِبُ^(١)

وفي تآيين هذا القائد يذكر الشاعر مكانته وصفاته المتمثلة في كونه العماد لهدم، وأنه جيش العلى وسرج الوغى، ويمدحه بالكرم والقوة والبأس، مشيراً إلى ماضيه حيث القنا مضمخة بالدماء، والخيول والإبل كالجراد لا تخبى بغزو، والصاحب عميدها وعمادها، يقول:

فَسَرْجٌ وَغَى مَا لَهُ وَاضِعٌ
وَجَيْشٌ عَلَا مَا لَهُ غَالِبٌ
وَكُنْتُ الْعَمِيدَ لَهَا وَالْعِمَادَ
فَضَاعَ، الْحِمَى، وَوَهَى الْجَانِبُ
فَمَاذَا يُشِيدُ هُتَافُ النُّعَيْدِ
رِي فِيكَ وَمَا يَنْدُبُ النَّكَادِبُ^(٢)

ويختتم القصيدة بمدح بهاء الدولة مهنوا من شأن هذه المصيبة، فما دام الملك جبلاً

شامخاً، فلا يضيرنا الجبل الواجب، كما يقول:

وَمَا بَقِيَ الْجَبَلُ الْمُشْمَخِرُ
فَمَا ضَرَرْنَا الْجَبَلَ الْوَاجِبُ
وَمَا يَنْقُضُ التَّنْجُ فِي الْمَضْرِبِينَ
إِذَا اهْتَزَّ فِي الْقَائِمِ الْقَاضِبُ
لَهُنَّ عَلَيْنَا ذَهَابُ الرَّيْبِ
فِي مَا بَقِيَ الظُّهْرِ وَالرَّاكِبُ^(٣)

أما الوزير الثاني فهو الصاحب بن عباد، الذي رثاه بأطول قصيدة في مراثيه، وقد بلغت مائة وأثنى عشر بيتاً، حيث كان الشريف يحله لعلمه وأدبه، وعندما بلغه أن الصاحب معجب بشعره وأرسل إلى بغداد من ينسخه له، طار فرحاً لذلك. والذي يبرئ علاقة الرضي بالصاحب من أن تكون نفعية، أنه لم يلتق به في حياته، ولم يمتحن نفسه وبذلها لأعطياته، حيث أشار في هذه القصيدة أنه كان يتمنى لقاءه والاجتماع به ليعرض عليه شعره ويقتبس من أدبه، لكنها أمنية لم تتحقق، حيث يقول:

قَدْ كُنْتُ أُمِّلُ أَنْ أُرَاكَ فَاجْتَسِي
فَضلاً، إِذَا غَيْرِي جَنَى أَفْضالاً

^(١) الديوان ١: ٢٠١-٢٠٢.

^(٢) الديوان ١: ٢٠٣.

^(٣) الديوان ١: ٢٠٤-٢٠٥.

وَأَقِيدُ سَمْعَكَ مَقُولِي وَفَضَائِلِي
وَتَقِيدُنِي أَيَّامُكَ الْإِقْبَالَ^(١)

وعندما بلغه النعي تمنى أن لا يكون الخبر يقينا، إذ ساور الناس الشك في بداية الأمر،

إلا أنه عند تأكيده صدع القلوب وأسقط الأحمالا ، كما يقول :

خَبَرٌ تَمَخَّضَ بِالْأَحْبَةِ ذِكْرُهُ
حَتَّى إِذَا جَلَى الظُّنُونُ يَقِينُهُ
قَبْلَ الْيَقِينِ ، وَأَسْلَفَ الْبَلْبَالَا
صَدَعَ الْقُلُوبَ وَأَسْقَطَ الْأَحْمَالَا^(٢)

وقد نظر في هذا إلى قول المتنبي^(٣) :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ أَمَلَا
فَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي^(٤)

لكن شاعرنا رغم تيقنه من وفاة الصاحب، لم يزل يخاطبه وكأنه حي لم يميت، وهذا دليل

على أن الصاحب ما زال يملأ نفسه، وكأنه لم يميت من خاطره ، فقال: موجهًا الخطاب إليه:

يَا طَوْدُ ! كَيْفَ وَأَنْتَ عَادِيُ الذُّرَى
إِنْ قَطَعَ الْأَمَالُ مِنْكَ ، فَإِنَّهُ
أَلْقَى بِجَانِبِكَ الرَّدَى زَلْزَالَا
مِنْ بَعْدِ يَوْمِكَ قَطَعَ الْأُمَالَا
وَسَمَا إِلَى نُظْرَائِهِ، فَتَعَالَى^(٥)

وقد بدأ الشاعر هذه القصيدة بمقدمة جزلة قوية، مكرراً فيها الاستفهام (أكذا) ست

مرات، حيث تكرر مرة في بداية كل بيت، وهو تكرر ينم عن نفسية الشاعر، ويعبر عن

حسرتة على بطل جندله الموت، وجبل شامخ ضعضة الزمان، وأسد كان يحمي الحمى والأشبال،

فهوت الأمجاد والمكرمات بموته، وذلك ليشعر الناس بمدى الخسارة التي حلت بهم بسبب فقده،

إذ وجد الشاعر بتكرار الاستفهام ما يؤثر في سامعيه ويشعرهم بحرارة مشاعره ،

فقال :

(١) الديوان ٢ : ١٨١ .

(٢) الديوان ٢ : ١٧٦ .

(٣) انظر إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٠٣ .

(٤) المتنبي - الديوان ١ : ٩٩ .

(٥) الديوان ٢ : ١٧٦ .

أَكْذَا الْمَنُونُ تُقْنَطِرُ الْأَبْطَالَ
 أَكْذَا تُصَابُ الْأُنْدُ وَهِيَ مُذَلَّةٌ
 أَكْذَا تُقَامُ عَنِ الْفَرَائِسِ بَعْدَمَا
 أَكْذَا تُحَطُّ الزَّاهِرَاتُ عَنِ الْعُلَى
 أَكْذَا تُكَبُّ الْبُزْلُ وَهِيَ مَصَاعِبٌ
 أَكْذَا تُغَاضُ الزَّاهِرَاتُ وَقَدْ صَغَتْ
 أَكْذَا الزَّمَانُ يَضَعُضُ الْأَجْبَالَ ؟
 تَحْمِي الشُّبُولَ وَتَمْنَعُ الْأَغْيَالَ ؟
 مَلَأَتْ مَمَاهِمُهَا الْوَرَى أَوْجَالَ ؟
 مِنْ بَعْدِ مَا شَاتِ الْعَيُونُ مَنَالًا ؟
 تَطْوِي الْبُعِيدَ وَتَحْمِلُ الْأَنْقَالَ ؟
 لَجَجًا، وَأُورِدَتْ الظَّمَاءُ زُلَالًا^(١) ؟

وهكذا يكثر الشاعر من إضفاء صفات العظمة على الصاحب، وقد كانت القصيدة "صورة صادقة من شخصية الصاحب في أبهى وعظم سلطانه وسعة معرفته ووفرة علمه وأدبه، وفي منزلته من قلوب معاصريه"^(٢). فنوه بقوة الفقيه الأدبية ووصف بلاغته، وكان الأقلام لم تخلق إلا لبنان كفه، حيث وصف سحرها بيد الصاحب، وقد اعتز الملك به، فاستغل الحاسدون موته، وأخذوا يتكبرون ويجررون الأذيال، بعد ذهاب عظيم كان "الملك يتدبر برأيه"^(٣)، يقول:

وَاهَا عَلَى الْأَقْلَامِ بَعْدَكَ إِنِّهَا
 أَفْقَدَنْ مَلِكَ شُجَاعٍ كُلِّ بِلَاغَةٍ
 سُلْطَانٍ مُلْكٍ كُنْتَ أَنْتَ تُعِزُّهُ
 إِنْ الْمُسْمَرُ ذِيلُهُ لَكَ خِيفَةٌ
 لَمْ تَرْضَ غَيْرَ بَنَانٍ كَفَّكَ إِلَّا
 إِنْ قَالَ جَلَى فِي الْمَقَالِ وَجَالًا
 وَلَرُبَّ سُلْطَانٍ أَعَزَّ رَجَالًا
 أَرْخَى وَجَرَ بَعْدَكَ الْأَذْيَالَ^(٤)

وقد أكثر الشاعر الحديث عن مناقب الفقيه مازجا بين خصلتي الشجاعة والكرم اللتين كانتا أكثر الخصال ترددا في رثائه للسياسيين، وبين أن الصاحب حجة في الدين عاش مدافعا عن الإسلام، فكان الشريف مخلصا في رثائه للصاحب بن عباد، إذ أفرغ كل معانيه البديعة في هذه القصيدة التي كانت صدى حقيقيا لنفسه المكلومة، ولم ينس أن يمزج حزنه بحزن كافة الناس الذين افتقدوا رجلا عزيزا تمثلت فيه القيم الرفيعة، فيقول:

(١) الديوان ٢: ١٧٥ .

(٢) محمد مهدي الصير - في الأدب العباسي ٤٣٩ .

(٣) الحموي - معجم الأدباء ٢: ٦٦٤ .

(٤) الديوان ٢: ١٧٩-١٨٠ .

قَالُوا وَقَدْ فَجَّيْنَا بِنَعْتِكَ سَائِرًا مِنْ مَيْلِ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ فَمَالَا
وَتَبَادَرُوا عَطَّ الْجُيُوبِ، وَعَاجَلُوا عَضْنَ الْأَنَامِلِ يَمْنَةً وَ شِمَالًا^(١)

وقد سيطرت النعمة الخطابية^(٢) والمبالغة في هذه المرثاة، فخرج الشاعر إلى مبالغات

غير لائقة تؤخذ عليه، إذ قال في وصف عظمة الصاحب :

يَا أَمْرَ الْأَقْدَارِ كَيْفَ أَطَعْتَهَا أَوْ مَا وَقَاكَ جَلَالُكَ الْأَجَالَا
أَلَّا أَقَاتُكَ اللَّيَالِي عَشْرَةً يَامَنْ، إِذَا عَثَرَ الزَّمَانُ أَقَالَا^(٣)

لكن هذه المغالاة، دليل حزن وألم قد اكتنف قلب الشاعر وهو يجد نفسه وجهاً لوجه،

أمام هذا الموت الفاجع، الذي لم يتوقع أن يأتي بهذه السرعة على عظيم كالصاحب بن عباد،

لكنه سرعان ما يعود إلى صوابه، ويعزي نفسه بأن الموت قدر كل حي، لا يفلت من قبضته أحد

يقول :

إِنَّ الَّذِي أَنْحَى إِلَيْكَ بِسَهْمِهِ قَدَرٌ يَنَالُ ذِبَابُهُ الرَّئِبَالَا
لَا مُسِمِعُ الْإِنْبَاضِ مِنْهُ فَيَتَّقَى يَوْمًا، وَلَا مَالِي الْجَفِيرِ نِبَالَا^(٤)

وصفات العظمة هذه توحى أن الشريف كان يرى في الصاحب بطلاً مرتقياً لإعادة الحق

إلى أهله العلويين، وهكذا كانت الشيعة تراه، فقد ذكر الثعالبي أن الشيعة روت " أن بالطالقان

كنزاً من ولد فاطمة يملأ الله به الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، والصاحب من الطالقان من قرى

أصبهان، فلما رزق سبطاً فاطمياً تأولوا له هذا الخبر"^(٥) . وهذا ما يفسر رثاء الشريف

للحضارات العربية الغابرة، والبطولة العربية التي أحس بفقدائها، والمجد العربي الذي يحلم به ليل

نهار، فخلد في هذه القصيدة ملوك اليمن، وملوك المناذرة الذين أذلوا الفرس في معركة ذي قار،

واصفاً أمجادهم وبطولاتهم، مؤكداً عروبتهم بقوله:

^(١) الديوان ٢ : ١٨١ .

^(٢) إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٠٤ .

^(٣) الديوان ٢ : ١٧٦-١٧٧ .

^(٤) الديوان ٢ : ١٧٧ .

^(٥) الثعالبي - نعمة الدهر ٣ : ٢٩٧ .

عَرَبٌ ، إِذَا دَفَعُوا الْجِيَادَ لِنِغَارَةٍ هَزُّوا الْعَبَابَ وَخَضَّخُوا الْأَوْشَالَ^(١)

وفي المقابل لا يذكر لملوك الفرس مجدا ولا بطولة، مع أنه يرثي أعظم وزراء الدولة البويهية^(٢) . والفضيلة التي أثبتتها للبويهيين في هذه الأبيات هي الإسراف في الترف والنعيم، وهي أقرب إلى التجريد منها إلى الفضائل، فقد ذكرها في قصائد رثائه مثالا للرجل الجبان الذي يحرص على الحياة ونعيمها، وهي مما تبعده عن السعي نحو المجد. وكيف لا وهو الذي كان يأمل فيه إنقاذ العلويين من ظلمهم لأنه " كان يتشيع لآل البيت، ويعطف عليهم، حتى إنه ألف كتاب الإمامة في فضائل علي بن أبي طالب"^(٣) ، لكن المنية عاجلته، ولن تلد الليالي مثله كما يقول :

يَا طَالِبًا مِنْ دَا الزَّمَانِ شَبِيهَهُ هَيْهَاتَ كَلَفَتِ الزَّمَانُ مُحَالَا
إِنَّ الزَّمَانَ أَضْنُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مَنْ أَنْ يُعِيدَ لِمِثْلِهِ أَشْكَالَا^(٤)

وكل هذا وليد إحساس الشاعر بالذل وهو يرى الخليفة العربي لا قيمة له، والحاكم البويهي الذي هو أدنى منه منزلة وشرفا، قد تسلط عليه، وما هو إلا مجرد العوبة في يديه، فتجسد شعوره بالظلم " وقلة الشأن في مجتمع ارتفع فيه من لا نسب يعليه، ولا مواهب ترفعه، وهو الموهوب الشاعر، والفقيه العالم، والعربي العلوي، الذي يسمو بنفسه إلى الإمام علي، فيتضخم في نفسه الشعور بالعزلة، وبعلو المنزل"^(٥) .

^(١) الديوان ٢ : ١٧٨ .

^(٢) انظر الأبيات (٣٢-٥٥) ، الديوان ٢ : ١٧٧-١٧٨ .

^(٣) محمود غنأوي الزهيري - الأدب في ظل بني بويه ١٧٥ .

^(٤) الديوان ٢ : ١٨٠ .

^(٥) محمد شلش ، من صور البطولة والحماسة في شعر التعريف - دراسات في ذكراه الألفية ١٠ .

رثاء الحسين بن علي :

رثاء الحسين بن علي وآل البيت من الرثاء المذهبي العقدي، لكن الهدف الذي كان ينشده شعراء الشيعة في مثل هذه الأشعار، هو هدف سياسي، فالإمامة والإمام، والاختلاف حولهما هي مسائل سياسية، وإن كان الشعراء يطالبون بحقهم على أساس عقدي، كما يقول شوقي ضيف "والطريف في هذه المراثي الشيعية أن شعراءها ينافحون فيها عن عقيدة، ومن أجل هذه الناحية البارزة في تلك المراثي نجدها تمتاز بحيوية قوية، إذ العاطفة فيها تتعمق الشاعر، ومن هنا تصبح مشاعره فوارة، تقذف سيلاً ملتهاً" ^(١)، ومن هنا يمكننا القول: إن التشيع مذهب سياسي وديني في الوقت نفسه، وقد اتخذ الشريف الرضي من يوم عاشوراء "منطلقاً للتعبير عن موقف سياسي" ^(٢) حيث مضى على هذا اليوم مئات السنين وبقيت هذه المأساة ماثلة في نفوس الشيعة "لأن السياسة الجائرة هي التي شاعت أن تبعث الفتن النائمة جذعة، فجعلت من يوم عاشوراء رمزاً للحزن المقيم عند هذه الطائفة، ومصدراً خصباً لأدب شك عند الشريف وعند غيره من أدباء الشيعة" ^(٣). فعبر الشاعر عن حبه لآل البيت وحقهم في الإمامة المغتصبة، مدافعاً عن هذا الحق في ذكرى عاشوراء، إذ رثى الحسين بن علي في خمس قصائد "وربما كان من أبرع شعراء الشيعة في تصوير الأهموم ومآسيهم" ^(٤) فيها. إلا أن عبد اللطيف عمران عدّه من شعراء الشيعة المقتصدين، لأن شعره لم يحمل إلا القليل من الإشارات الشيعية، وبالتالي فلا يمكن وضعه بين شعراء الشيعة الكبار، لأنه لم يكثر من تناول موضوع التشيع في شعره ^(٥). وهذا رأي له ما يبرره لأن قصائده الخمس في يوم عاشوراء قليلة بالنسبة لحجم ديوانه الكبير، وبالنسبة لحجم مراثيه، وإن كان قد عبر عن تشيعه في كثير من قصائد رثائه وقصائد فخره، إلا

(١) شوقي ضيف - الرثاء ٣٧.

(٢) محمد شلش - الحماسة في شعر الشريف الرضي ١٨٣.

(٣) محمود غناوي الزهيري - الأدب في ظل بني بويه ١٨٤.

(٤) المرجع نفسه ١٧٩.

(٥) انظر عبد اللطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية ٢٤١.

أن هذا لا ينم عن مذهب التشيع بقدر ما هو فخر بالانتساب لآل البيت الكرام، مع أن الدفاع عن آل البيت هو أصل النظرية العقدية عند الشيعة، فهم باعتقادهم أحق الناس بالإمامة. هذا وقد شكك كثير من الباحثين في نسبة القصيدة الخامسة المقصورة إلى الرضي وقالوا إنها منحولة، وذكر عبد الفتاح الحلو أنها من زيادات أبي حكيم الخبري، صدرت في النسخ المخطوطة بما يشكك في نسبتها إليه، لأنها لينة لا تشبه شعره^(١)، لكن الحلو لا يصف القصيدة كلها بالليونة، بل في بعض أبياتها التي لا تشبه شعر الرضي كقوله :

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا فَاطِمَةَ	يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَضَى
كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلْ اللَّهُ لَهُمْ	بِانْقِلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَاءِ
لَوْ بِسِبْطِي قَيْضِرٌ أَوْ هِرْقُلٌ	فَعَلُوا فِعْلَ يَزِيدٍ مَا عَكَدَا ^(٢)

وقد قارن الحلو بينها وبين قصائد الرضي في رثاء الحسين، وأثبت بعد الصلة بينها وبين تلك القصائد، بسبب الشكوى التي تتضح بها هذه القصيدة، والاستغاثة بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وخصومته لبني أمية في الدار الآخرة، ووقوفه موقف المظلوم، وتعداد الأئمة واعتبارهم الشافين من العمى والشفعاء مع الرسول يوم القيامة. وبين أن هذا كله غير معهود من الرضي في رثاء الحسين، وإنما المعهود أنه شاعر تلمع نصول السيوف في أشعاره وتتطاول الرماح فيها مهدداً بيوم تجرد فيه الخيل للوغي^(٣).

ويرى إحسان عباس كذلك، أنها منحولة لأنه ليس فيها شيء الكافي من روح الشريف، وفيها يخاطب بني هاشم مستشفعاً بجاههم، وهذا غير موجود في شعره^(٤).

ولكن نقول: ربما أراد الشريف أن ينهج في هذه القصيدة نهجا مغايراً لباقي قصائده في

الحسين، يهدف إلى النواح بعيداً عن الحماسة والثورة المعهودة. وهذا ما يراه شوقي ضيف الذي

(١) انظر عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ٢ : ١٢ .

(٢) الديوان ١ : ٩٥-٩٦ ، وانظر عبد الفتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ٢ : ٢٦ .

(٣) انظر المرجع نفسه ٢ : ٢٥-٢٧ ، والديوان ١ : ٩٥-٩٦ .

(٤) انظر إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٢٢ .

ذكر أن الشريف عني برصف كلماتها بحيث لا تعلق على أفهام العامة في سهولة مقصودة،
لتخف على السنة الناحية والناس. ذكرا أنها ليست من الانتحال في قليل أو كثير^(١)، ثم إنه ربما
يكون بعض أبيات هذه القصيدة منحولاً، ولا يدفع هذا إلى الشك في القصيدة كلها، فقد تزايد
بعض الأبيات على الشاعر لهدف معين.

وقد شملت مراثي الرضى هذه:

- التعبير عن حزنه وتوجعه لما أصاب جده الحسين .

- مدح آل البيت والدفاع عن حقهم والتهديد بالشار لهم .

- التعريض بالأمويين والعباسيين .

وقد عبر الشاعر عن حزنه وألمه لما أصاب جده الحسين، فكلما مرت به هذه الذكرى

الآلئمة تتوقد أحشاؤه فيصبح كالمذوغ، لياليه مضيفة كما يقول:

يَا يَوْمَ عَاشُورَاءَ كَمْ لَكَ لُوعَةً	تَتَرَقَّصُ الْأَحْشَاءُ مِنْ إِيقَادِهَا
مَا عُدْتُ إِلَّا عَادَ قَلْبِي غَلَّةً	حَرَى، وَلَوْ بَالِغَتْ فِي إِبْرَادِهَا
مِنْهُ السَّلِيمُ مَضِيضَةٌ أَكَاوُدُ	خَزَرُ الْعُيُونِ تَعُودُهُ بَعْدَادِهَا ^(٢)

ويبقى داء الهم هذا يعاوده كلما مرت به ذكرى هذه المأساة المفزعة:

تَأْوِبُنِي دَاءُ مِنْ الِهِمِّ لَمْ يَكُنْ	بِقَلْبِي حَتَّى عَادَنِي مِنْهُ عَائِدِي
تَذَكَّرْتُ يَوْمَ السَّبْطِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	وَمَا يَوْمُنَا مِنْ آلِ حَرْبٍ بِوَاحِدٍ ^(٣)

فالشاعر ليس باكياً حزيناً فحسب، وإنما يستدر الدمع من عيون قد جفت عبر استجابة

الدفق الشعري له، من خلال طواعية القافية والبحر، فيقول مخاطباً جده:

يَا جَدُّ لَا زَالَ لِي هَمٍّ يَحْرُضُنِي	عَلَى الدَّمُوعِ وَوَجْدٍ غَيْرِ مَقْهُورٍ
---	--

^(١) نوفي صيف - عصر المول والإمارات، الحرية العربية - العراق - إيران، دار المعارف، مصر، ط ٣، ١٩٩٠، ٣٧٤-٣٧٥.

^(٢) الديوان ١: ٤١٠.

^(٣) الديوان ١: ٤١١.

والدمع تحفره عين مؤرقة
إن السلو لمحظور على كيدي
حفز الحنية عن نزع وتوير
وما السلو على قلب بمحظور^(١)

ويرسل الشاعر هذه الأناث المحزنة عبر الحكمة " التي غالبا ما ترتبط بمناسبات الحزن والرتاء "^(٢) لتكون متنفسا لهذه المعاناة التي يعيشها الشاعر، وليضعنا في جو هذه المأساة الحزينة، فنعايشها ويحرك في نفوسنا الشعور نحوها، فقال بنغمة حزينة، وكل مراثيه لجده الحسين، فيها " كلام الحزين الحكيم "^(٣) .

راحل أنت، والليالي نزل
لا شجاع يبقى فيعتيق الـ
غاية الناس في الزمان فناء
إنما المرء للمنيّة مخبـو
من مقيّل بين الضلوع إلى طو
فهو كالغيم ألقته جنوب
فالليالي عون عليك مع البيـ
هي دنيا إن وصلت ذا جفت ها
كل باك يبكي عليه، وإن طا
ومضر بك البقاء الطويل
بيض ولا أمل، ولا مأمول
وكذا غاية الغصون الذبول
وللطعن تستجم الخيول
لـ عناء وفي التراب مقيـل
يوم دجن، ومزقته قبول
نـ، كما ساعد الذواب طول
ذا ملالا، كأنها عطلول
لـ بقاء، والناكيل المتكول^(٤)

وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه الأبيات بقوله " والقارئ يعجب من وفرة الخيال في هذه الأبيات: فنعيم الدنيا غيم ألقته ريح الجنوب، ثم مزقته ريح القبول، والناس يستريحون حيناً ليواجهوا بعد الراحة تعب الموت، كما تستجم الخيول لأيام الطعان، وغاية الناس الفناء كما أن غاية الغصون الذبول، والليالي عون على المرء مع البين، فكانها الطول في الرماح الذوابل، والدنيا كالحسناء الغادرة، تواصل هذا وتجفو ذاك "^(٥) .

^(١) الديوان ١: ٥١٨ .

^(٢) مصطفى الشكعة - الشعر والشعراء في العصر العباسي ٤٣٥ .

^(٣) حنا الماحوري - تاريخ الأدب العربي، المكتبة اليونانية، بيروت، لبنان، ط ١٢، ١٩٨٧، ٦٧٠ .

^(٤) الديوان ٢: ١٦٣ .

^(٥) زكي مبارك - المذاهب البيوتية في الأدب العربي، دار الخيل، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٢، ١١١-١١٢ .

وفي هذا المجال من تصوير الحزن والألم يطالعنا عاملان قويان في تفجير ذلك المخزون من الأسى واللوعة، هما: تصوير مصرع الحسين ، وتصوير ما حلّ بنساء وأطفال آل الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سبي وقتل . وأكثر صورة يلح عليها الشاعر في تصوير مصرع الحسين، هي موته ظامئاً محلاً عن ماء الفرات، وهذه " الفكرة تجدها قوة السيطرة عليه حتى لتكون العمود الفقري للقصيدة كلها"^(١) . لقد وصف لنا هذا المشهد الأليم في قصيدته الأولى التي قالها سنة (٣٧٧هـ) ناسباً الحسين إلى أمه فاطمة في قوله : " لابن فاطمة " ، " لتكون الذكرى أوجع "^(٢) ويصوره وقد سقى النجيع الذي سلاه عن الماء العذب :

ظَمَانٌ سَلَى نَجِيعَ الطَّعْنِ غَلَّتَهُ عَنْ بَارِدٍ مِنْ عُبَابِ الْمَاءِ مَقْرُورِ

ثم يرسم لوحة مؤلمة لسبط النبي - عليه الصلاة والسلام - وهو ملقى على الأرض تستره الرمال وتحن عليه الربي فتظلمه، ليثبت في نفوسنا، أن حجارة الربي وحصى رمال الصحراء، أرق من قلوب الأمويين، بل إن الوحوش أراف بسبط النبي، من هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون، إذ بقي جثمانه الطاهر بالقلاة ثلاثة أيام لم تقربه الوحوش لمكانته من رسول الله ، يقول:

لِلَّهِ مُلْقَى عَلَى الرَّمضاءِ عَضَّ بِهِ فَمُ الرَّدَى بَيْنَ إِقْدَامٍ وَتَشْمِيرِ
تَحَنُّوْ عَلَيْهِ الرَّبِيُّ ظِلًّا وَتَسْتَرُهُ عَنِ النَّوَظِرِ أَذْيَالُ الْأَعَاصِيرِ
تَهَابَهُ الْوَحْشُ أَنْ تَدْنُو لِمَصْرَعِهِ وَقَدْ أَقَامَ ثَلَاثًا غَيْرَ مَقْبُورِ^(٣)

ومثال آخر لهذه الصورة الأليمة من قصيدته التي قالها سنة (٣٩٥هـ) بين فيها صورة الإمام يموت عطشاً فلا يسقى إلا بحد السيف، يطلب الماء البارد، فلا يجد إلا مر الموارد، يقول:

وْظَامٌ يُرِيغُ الْمَاءَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ سَقَوْهُ ذُبَابَاتِ الرِّقَاقِ الْبَوَارِدِ

^(١) حمودي - أهل البيت عليهم السلام في بعض شعر الشريف الرضي ، مجلة تراثنا ، عدد (٥) ، ٢٩٠ .

^(٢) زكي مبارك - المدائح النبوية ، ١٠٩ .

^(٣) الديوان ، ٥١٧ : ٥١٨ .

أَتَّاحُوا لَهُ مَرَّ الْمَوَارِدِ بِالْقَنَّا عَلَى مَا أَبَاحُوا مِنْ عَذَابِ الْمَوَارِدِ^(١)
منعوه الماء والفرات أمام ناظريه كما يقول :

شَغَلَ الدَّمُوعَ عَنِ الدِّيَارِ بُكَاءُنَا لِبُكَاءِ فَاطِمَةَ عَلَى أَوْلَادِهَا
لَمْ يَخْلُفُوهَا فِي الشَّهِيدِ وَقَدْ رَأَى دَفَعَ الْفَرَاتِ يَذَادُ عَنْ أَوْلَادِهَا^(٢)
فكيف يلتذ الشريف بطعم الماء ولم يرو منه غليل الحسين :

أَتَرَانِي أَلَذُّ مَاءً ، وَلَمَّا يَرَوْ مِنْ مُهْجَةِ الْإِمَامِ الْغَلِيلِ^(٣)

و" لما " هنا لها مدلولها، فإن مات عطشا من ماء الدنيا، فإن الله سيرويه من حوض جده
رغم أنوف الظالمين، الذين تحجرت في قلوبهم كل معاني الإنسانية ، فليسقه السحاب إذا، فإنه
أرأف بسبط رسول الله منهم ، يقول :

لَا أَغَبُّ الطُّفُوفَ^(٤) فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ طِرَاقِ الْأَنْوَاءِ غَيْثٌ مَطُولٌ
مُطَرٌّ نَاعِمٌ وَرِيحٌ شَمَالٌ وَنَسِيمٌ غَضٌّ ، وَظِلٌّ ظَلِيلٌ^(٥)

وليس هذا هو أعمق ما في المأساة، فإن صورة فزع النساء وهن سبايا تدمي كل قلب،
وقد تشاكين بالبكاء وتتادين بالعويل، وسلبت الأقنعة عن وجوههن فتتقين بالأنامل، لكن " الصون
بديل من القناع في أوجه من سلبن القناع من نساء الحسين"^(٦) . كما يقول وهو يصف مقتل
الحسين :

وَالسَّابَايَا عَلَى النَّجَائِبِ تَسَا قُ ، وَقَدْ نَالَتِ الْجُيُوبُ الدِّيُولُ
مِنْ قُلُوبٍ يَدْمَى بِهَا نَاضِرُ الْوَجْهِ دِ وَمِنْ أَدْمَعٍ مَرَاهَا الْهُمُولُ
قَدْ سَلَبْنُ الْقِنَاعَ عَنْ كُلِّ وَجْهِ فِيهِ لِلصَّوْنِ مِنْ قِنَاعٍ بَدِيلُ
وَتَتَقَبَّنَ بِالْأَنَامِلِ ، وَالدَّمُ عَ عَلَى كُلِّ ذِي نِقَابٍ دَلِيلُ

^(١) الديوان ٤١١ : ١ .

^(٢) الديوان ٤٠٨ : ١ .

^(٣) الديوان ١٦٤ : ٢ .

^(٤) الطُّفُوفُ : (الطف) وهي أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية ، فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه - وهي أرض بادية

قرية من الريف، فيها عدة عيون ماء حارية . الحموي - معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ ، ٢ : ٥١٧ .

^(٥) الديوان ١٦٥ : ٢ .

^(٦) ركني مبارك - المذاهب السنية ١١٣ .

وَتَشَاكِيْن ، وَ الشَّكَاءُ بُكَاءٌ وَتَنَادِيْن ، وَ النَّدَاءُ عَوِيْلٌ^(١)

وفي قصيدة " كربلاء" يعرض لنا الشاعر لوحتين من الحزن والألم ملونتين بأحاسيسه ومشاعره ، ويجعلنا بمقدرته الشعرية وصدق تجربته نعيش معه تلك الذكرى الأليمة التي أسماها (ذكرى كرب وبلاء)، فيرسم لنا صورة حية مؤثرة للفتيات العفيفات، يبكين الحسين ويمسحن التراب عن نحره، وفي الصورة الثانية يخاطب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويخبره بحال أحفاده في كربلاء، وهم بين القتل والأسر والسبي ، وهو منظر يثير الحزن والألم، وهذا طغيان وبغي لا يليق بمقام آل البيت الكرام ، يقول:

كَمْ حَصَانِ الذَّيْلِ يَرْوِي بِمُعْهَا	خَذَهَا عِنْدَ قَتِيلٍ بِالظَّمَا
تَمْسَحُ التُّرْبَ عَلَى إِعْجَالِهَا	عَنْ طُلَى نَحْرٍ رَمِيلٍ بِالْدَمَا
يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَايَنْتَهُمْ	وَهُمْ مَا بَيْنَ قَتْلَى وَسَبَا
مَنْ رَمِضَ يُنْعِ الظِّلَّ وَمِنْ	عَاطِشٍ يُسْقَى أَنْابِيبَ الْقَنَا
وَمَسُوقٍ عَائِرٍ يُسْعَى بِهِ	خَلْفَ مَحْمُولٍ عَلَى غَيْرِ وَطَا
لَرَأَتْ عَيْنُكَ مِنْهُمْ مَنْظَرًا	لِلْحَشَى شَجَّوَا ، وَلِلْعَيْنِ قَذَى
لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ، يَا	أُمَّةَ الطُّغْيَانِ وَالبَغْيِ جَزَا ^(٢)

فالشاعر يقصد من هذه الصورة المحزنة إظهار تفجعه لمصاب آل بيت رسول الله، ثم استحضار هذه الصورة في مخيلة المسلمين، كل المسلمين من شيعة وغيرهم، ليضمن تعاطفهم مع هذه الرؤية، ولهذا عرض هذه الصورة على أصل لا يختلف عليه المسلمون ، وهو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مبينا أنه لا يصح أبدا أن يكون جزاء ما قدم رسول الله للأمة من خير أن يذبح سبطه وينكل باله.

ثم ينتقل حزن الشاعر هذا، من حزن يستدر الدموع، إلى موقف البطولة والصمود لأن "القصيدة تتألف من وثبات لا من أبيات"^(٣) ، فينقلنا الشاعر من مشاهد مليئة بالأسى والألم

(١) الديوان ١٦٤ : ٣ .

(٢) الديوان ٩٤ : ٩٣ .

(٣) حسن أحمد عيسى - الإبداع في الفن والعلم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ١٥٤ .

وبأسلوب بارع مبتكر، إلى مشاهد البطولة التي صور فيها الشاعر هذا البطل ينافح حتى قتل دون أن يستسلم لأعدائه ، ومن براعته الشعرية تبدو هذه المزاوجة في البيت الواحد أحياناً، كما في قوله:

يَا حُسَامًا قَلَّتْ مَضَارِبُهُ الْهَـَا مَ وَقَدَ قَلَّ لَهُ الْحُسَامُ الصَّقِيلُ
يَا جَوَادًا أَدْمَى الْجَوَادَ مِنَ الطَّعْـ مِنْ وَوَلَّى ، وَنَحَرَهُ مَبْلُـ
حَجَلَ الْخَيْلُ مِنْ دِمَاءِ الْأَعَادِي يَوْمَ يَبْدُو طَعْنٌ ، وَتَخْفَى حُجُولُ^(١)

وفي قصيدة أخرى يصفه بالبطولة وأنهم ما ظفروا به إلا بعد أن تلقى القنا بجبينه، وسحب النقع أذياله، يقول:

يَلْقَى الْقَنَا بِجَبِينِ شَانَ صَفَحَتَهُ وَقَعَ الْقَنَا بَيْنَ تَضْمِيخٍ وَتَغْفِيرِ
مِنْ بَعْدِ مَا رَدَّ أَطْرَافَ الرُّمَاحِ بِهِ قَلْبٌ فَسِيحٌ وَرَأَى غَيْرَ مُحْصُورِ
وَالنَّقْعُ يَسْحَبُ مِنْ أَذْيَالِهِ وَلَهُ عَلَى الْغَزَالَةِ جَيْبٌ غَيْرُ مَزْرُورِ^(٢)

والجانب الآخر في قصائد رثاء الحسين هذه، هو رثاء آل البيت، والدفاع عن حقهم بالإمامة والتهديد بالتأثر لهم، حيث نتبين من خلال القصائد مدح آل البيت، فالشاعر يصفهم أنهم صفوه الله من خلقه، أطاعوا أو امره وكان أزهدهم وأحلمهم أشدهم على الأعداء ، كما يقول:

هِيَ صَفْوَةُ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَى لَهَا وَقَضَى أَوْامِرَهُ إِلَى أَمْجَادِهَا
أَخَذَتْ بِأَطْرَافِ الْفَخَارِ فَعَادِرُ أَنْ يَصْبِحَ التَّقْلَانُ مِنْ حَسَادِهَا
الزُّهْدُ وَالْأَحْلَامُ فِي فِتَاكِهَا وَالْفَتْكُ لَوْلَا اللَّهُ ، فِي زُهَادِهَا^(٣)

^(١) الديوان ٢ : ١٦٤ .

^(٢) الديوان ١ : ٥١٧ .

^(٣) الديوان ١ : ٤٠٩ .

والمقارء أن يتسم روح الفتوة في هذا الشعر البليغ، وأن يتأمل كيف يكون النجاد قماط الوليد، وكيف تكون الجياد مباد الأطفال^(١). ونثنين من هذه الأشعار كذلك، خاصة التأكيد على مكانة علي وذريته، وقرابتهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما يقول في قصيدته (كربلا):

قَتَلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ خَامِرُ أَصْحَابِ الْكِسَا^(٢)
نَبُو رَسُولُ اللَّهِ يَحْيَا بَعْدَهُ قَعَدَ الْيَوْمَ عَلَيْهِ الْعَزَا^(٣)

ويعدد الشاعر الأئمة الاثني عشر واحدا واحدا في هذه القصيدة، ويمدحهم بأنهم جبال المجد وبدور الأرض، ويمدح علياً مثيراً إلى استشهاد ولديه واحدا بالسم وهو الحسن، والآخر بالسيف وهو الحسين، ثم يذكر بقية الأئمة الشهداء^(٤). وهذه الأبيات صريحة إن صحت نسبتها إليه أنه من الإمامية الاثني عشرية^(٥).

ولا يفوتنا أن نذكر رثاء الشريف لأهل بيته ونشوقه لمراى قبورهم، وطلب السقيا لهذه القبور، من خلال قصيدة موضوعها الفخر^(٦)، إذ "الفخر عند الشريف حافل بالحنن الأليم. حزن يحمل الشاعر على إحياء ذكرى من قتل من آل البيت، ولا سيما الحسين، وعلى الحنين إلى مراى قبورهم في لهفة وحرقة"^(٧).

لهذا كله نذر الشريف نفسه للدفاع عن آل البيت، فأنفاس الحسين الحرى وإن هي أخدمت ستظل تعمّر أفق الظالمين بدخان، فهي هم يحرض الشريف وكل من والاه، ووالى آل البيت

^(١) ركي مارك - انداخ النوبة ١١٥.

^(٢) يشير في هذا البيت إلى اخدميت الشريف الذي ترويه ألسنة أن النبي صلى الله عليه وسلم: "حلل علي علي واحسن وأحسن".
ومعينة كساء، ثم قال: النبي هؤلاء أهل بيتي وحاشي". أحمد بن حسن - المسند، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ص ٢.

١٩٧٨، ٦: ٣٠٤.

^(٣) الديوان ١: ٩٥-٩٦.

^(٤) الديوان ١: ٩٦-٩٧.

^(٥) قال ابن تغري بردي "كان على مذهب القوم إماماً للشيعة، هو وأبو وأخوه". ابن تغري بردي - المعجم الزاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣، ٤: ٢٤٠. وقد "تموا بدلت مدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثاني عشر من سبه إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه" البغدادي - الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٥، ٤٣.

^(٦) الديوان ١: ١٧٥-١٧٦.

^(٧) عبد القاهوري - تاريخ الأدب العربي ٦٧١.

على الثورة . فنراه يتهدد بني أمية ويتوعددهم بأن المهدي المنتظر^(١) شاهر سيفه في أقاصي الأرض ومن ورائه شيعته يقول :

بَنِي أُمِيَّةَ ! مَا الْأَسْيَافُ نَائِمَةٌ
وَالْبَارِقَاتُ تَلَوَّى فِي مَغَامِدِهَا
إِنِّي لَأَرْقُبُ يَوْمًا لَا خَفَاءَ لَنَاهُ
وَلِلصَّوَارِمِ مَا شَاعَتْ مَضَارِبُهَا
عَنْ شَاهِرٍ فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ مَوْتُورٍ
وَالسَّابِقَاتُ تَمْطِي فِي الْمَضَامِيرِ
عُرْيَانٌ يَقْلَقُ مِنْهُ كُلُّ مَغْرُورٍ
مِنَ الرَّقَابِ شَرَابٌ غَيْرُ مَنْزُورٍ^(٢)

" لقد تهدد بني أمية وتوعددهم، ولا أمية في البلاد، وإنما كان يرمز بذلك إلى أبناء عمومته من بني العباس"^(٣) . ولكنه في قصيدة أخرى صريح بتهديده لبني العباس، إذ عكست قضية الحسين التي هي قضيته، أشعة البطولة في أعماقه، وكانت حافزا له أن يدعو للثورة، ويتمنى أن يبقده الله حتى يعيد الحق إلى نصابه :

يَا بَنِي أَحْمَدَ إِلَى كَمْ سِنَانِي
وَحِيَادِي مَرْبُوطَةٌ ، وَالْمَطَايَا
كَمْ إِلَى كَمْ تَعْلُو الطُّغَاةُ وَكَمْ يَحُ
لَيْتَ أَنِّي أَبْقَى ، فَأَمْتَرُ النَّاسَ
وَأَجْرُ الْقَنَائِصَاتِ يَوْمَ الطَّفِّ
غَائِبٌ عَنْ طِعَانِيهِ مَمْطُولٌ
وَمَقَامِي يَرْوَعُ عَنْهُ الدَّخِيلُ
كَمْ فِي كُلِّ فَاضِلٍ مَفْضُولٌ^(٤)
سَ وَفِي الْكَفِّ صَارِمٌ مَسْلُولٌ
فَ يَسْتَلْحِقُ الرَّعِيلَ الرَّعِيلُ^(٥)

هذا وقد هجا الشريف في هذه القصائد الأمويين، وعرض بهم كما عرض بالعباسيين، خلافا لما يقوله الدكتور إحسان عباس من أنه " لا يعرض بأحد سوى بني أمية"^(٦) ، لكنه عف

(١) هو الامام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية الأنبياء عظمية ، واسمه محمد بن الحسن العسكري التركي ، وهو سر من رأى . الشهرستاني -

الملل والنحل ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٩٧٥ ، ١ : ١٦٩ .

(٢) الديوان ١ : ٥١٧-٥١٨ .

(٣) إحسان عباس - الشريف الرضي ٨٥ .

(٤) الديوان ٢ : ١٦٥ . والشاعر هنا يشير إلى مبدأ من مبادئ الزيدية ، وهو ' حوار إمامة المفضول مع قيام الأفاضل ' . الشهرستاني -

الملل والنحل ١ : ١٥٥ .

(٥) الديوان ٢ : ١٦٥ .

(٦) إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٢١ .

اللسان حتى في هجائه للأمويين، فلم يكن يهدف إلى صبب الشتائم واللعنات المقذعة، وخاصة إذا قارناه بالشعراء المتأخرين الذاهبين في هذا المضمار^(١) فقال معرضاً ببني أمية:

إِنَّ الْخِلَافَةَ أَصْبَحَتْ مَرْوِيَّةً عَنْ شُعْبَهَا بِيَاضِهَا وَسَوَادِهَا
طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عُلُوجُ أُمِيَّةٍ تَتَرَوْنَ نَتَابَهُمْ عَلَى أَعْوَادِهَا
يَا غَيْرَةَ اللَّهِ اغْضَبِي لِنَبِيِّهِ وَتَرَحُّزِي بِالْبَيْضِ عَنْ أَغْمَادِهَا
مِنْ عُصْبَةٍ ضَاعَتْ بِمَاءِ مُحَمَّدٍ وَبَيْنِهِ بَيْنَ زَيْدِهَا وَزِيَادِهَا^(٢)

لكن أفعال الأمويين هذه على قبحها ليست بأقل من قبح فعال العباسيين بني أعمامه،

الذين غدروا بال البيت ونكلوا بهم، يقول:

وَيَا رَبَّ أَدْنَى مِنْ أُمِيَّةٍ لُحْمَةً رَمَوْنَا عَلَى الشَّنَانِ رَمَى الْجَلَامِدِ
طَبَعْنَا لَهُمْ سَيْفًا، فَكُنَّا لِجَدِّهِ ضَرَائِبَ عَنْ أَيْمَانِهِمِ وَالسُّوَاعِدِ
أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا عَلَى قَبْحِ فِعْلِ الْآخِرِينَ بَرَائِدِ^(٣)

على النقيض من هذا تماماً نجد قصيدة في ديوان الرضي يرثي فيها الخليفة الأموي

الزاهد، عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وهذا يعني أن الشريف كان يهدف من وراء التعريض للأمويين إلى تصوير الظلم الذي صبّوه على آل البيت، وأما من كان يحسن إليهم فإنه ليس بمستغرب أن يرثيه الشريف ويتحسر لموته، لأن شعراء الشيعة "لم يقصروا رثاءهم على علي وذريته، بل رثوا كذلك بعض أنصارهم"^(٤).

وقد رثى الشريف هذا الخليفة لما تفرّد به من الصلاح والعدل دون أهل بيته، فهو الذي

نزه علياً وآل البيت عن الشتم والسب واللعن على المنابر، وجعل بدل الشتم قوله تعالى^(٥): (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٢١ .

(٢) الديوان ٤٠٩ : ١ .

(٣) الديوان ٤١٢ : ١ .

(٤) الطيب العشايش - ديوان أشعار الشيعة إلى القرن الثالث ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٤٣ .

(٥) انظر ابن أبي الحديد - شرح فتح البلاء ٤ : ٥٩ .

تَذَكَّرُونَ^(١) ، وقد أشار الشاعر لهذا في قصيدته، واستسقى لقبر الخليفة مطراً دائماً ليس غياً،

ولم ينس التعريض بالبيت الأموي فقال:

يا ابنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لوْ بَكَتِ الْعِيْبُ
غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طَبُ
أَنْتَ نَزَهْتَنَا عَنِ السَّبِّ وَالْقَذُ
وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُ قَبْرَكَ لَاسْتَحُ
وَقَلِيلٌ أَنْ لَوْ بَذَلْتُ دِمَاءَ الْـ
كَدِيرَ سَمْعَانَ^(٢) لَا أَغْبِكَ غَادُ
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي
وَإِذَا حَرَّكَ الْحَشَا خَاطِرُ مِنْهُ
قُرْبَ الْعَدْلِ مِنْكَ لَمَّا نَكَى الْجَوُ
قُلُوْ أَنِّي مَلَكَتُ دَفْعًا لِمَا نَا
مِنْ فَتًى مِنْ أُمِّةٍ لَبَكَيْتُكَ
سَتْ ، وَإِنْ لَمْ يُطَبِّ وَلَمْ يَزْكُ بَيْتُكَ
فِرْ ، قُلُوْ أَمْكَنَ الْجَزَاءُ جَزِيَّتُكَ
سَيِّئٌ مِنْ أَنْ أُرَى وَمَا حَيِّتُكَ
حُبْنُ حُزْنًا عَلَى الذُّرَى وَسَقَيْتُكَ
خَيْرُ مَيِّتٍ مِنْ أَلِ مَرْوَانَ مَيِّتُكَ
إِنْ تَدَانَيْتَ مِنْكَ أَوْ قَدْ نَأَيْتُكَ
لَكَ ، تَوَهَّمْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ
رُبِّهِمْ ، فَاجْتَوَيْتَهُمْ وَاجْتَبَيْتُكَ
بِكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَى لَقْدَيْتُكَ^(٣)

فالقصيدة وإن كانت فاترة العاطفة إلا أنها تبقى دليلاً على تشيع الرضي لآل البيت

بصورة غير صريحة، إذ دلت على أن المقياس الذي يضبط علاقته بالخلفاء هو حب آل البيت

والإحسان إليهم، وهي من جانب آخر دليل على "صفة مهمة في شخصية الرضي، هي تحرره

من كل عصبية"^(٤) ، وهذه الصفة واضحة في رثاء الشريف كله .

رثاء الأمراء والمتغلبين على السلطة خارج بغداد :

رأينا كيف كان الرضي يعد جدّه الحسين بن علي بالثورة ، ليصل إلى حق العلويين

المغضوب ، فهل كانت هذه الثورة فكرية حسب ، أم أخذت طابعاً عملياً ولم تبقى في حدود

(١) سورة الحجل آية (٩٠) .

(٢) هو دير سواحبي دمشق في موضع نزه وساتين محذقة به ، وعنده قصور ودور ، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وكان عمر اشترى موضع قبر ندير سمعان لما مرض هناك . الحموي - معجم البلدان ، ٥١٧ : ٢ ، الكري - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، حققه وضبطه مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، ٢ : ٥٨٥ .

(٣) الديوان ١ : ٢٨٣-٢٨٤ .

(٤) محمد محمود النش ، الشاعر الذي جاء بين النسي وأبي العلاء المعري - مجلة المعري ، عدد (٧٢) وزارة الإرشاد والأداء ، الكويت .

الأمانيات والأحلام ؟ . وعلى من سيكون اعتماده في هذه الثورة ؟ ، فيور كما يقول الدكتور إحسان عباس ، لم يكن يثق بالأعاجم ، ولا بمن حوله من الأقرباء ، فيكن اعتماده إذا على الأعراب^(١) . لكن الرضي لا يعتمد إلا على الأعراب الأحرار ، الذين أبت نفوسهم أن يكون ولاؤهما لغير العرب ، فلعله كان مطمئناً في أن يحتفظ بأواصر الود قائمة بينه وبين القبائل العربية الأصيلة ، المتغلبة على أطراف دولة الخلافة ، ومن أقربها إليه دولة الحمدانيين بالموصل ، على أن يجد في نصرته ما يقوى به ساعده ، ويثبت به منته^(٢) ، ومن بعدهم العقيليون الذين تغلبوا على الموصل ، وأنهوا دولة الحمدانيين فيها ، وقتلوا أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني ، حيث قتل أبو الذواد العقيلي سنة (٣٨٠هـ)^(٣) . والقبيلتان تتفقان معه بالانتماء العربي والمذهب الشيعي ومناهضة الحكم البويهي .

وقد كشفت مراشي الرضي عن رجل آخر من أمراء البدو اسمه أبو العوام ابن ليلي ، لعنه تعرف إليه وهو أمير ركب الحج فاتخذ داعية لنفسه يجمع حوله بعض القبائل البدوية في نجد ، ريثما تواتيه الفرصة لإحداث أمر ما . ويبدو أن الشريف كان يخشى أن يقول شعراً في مديح هؤلاء الأمراء ومجاملتهم ، فلم يرد له فيهم شعر إلا في حال موتهم .

١. رثاء الحمدانيين :

رثى الشريف الرضي من الحمدانيين أبا البيضاء حرب بن سعيد بن حمدان أخا أبي فراس الحمداني الشاعر توفي سنة (٣٨٢هـ)^(٤) . كما رثى أبا طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني بثلاث قصائد^(٥) كانت شعراً متعددة من الحزن على الفقيد، وحكمة عن الحياة والموت ،

^(١) إحسان عباس - الشريف الرضي ١١٦ .

^(٢) عبد الفتاح الجور - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ١ : ١٩٠ .

^(٣) ابن الأثير - الكامل ١٧ : ٤٤٦ .

^(٤) النديون ١ : ٢٩١ - ٢٩٤ .

^(٥) النديون ١ : ٤١٢ - ٤١٤ ، ٥١٨ - ٥٢٢ ، ٦٤٦ - ٦٤٨ .

وفلسفة حول التسليم بالقضاء والقدر . ولا ينفك الشريف في هذه القصائد يفخر بالحمدانيين ، وأشهر هذه القصائد ، الثانية التي قالها سنة (٣٨٢هـ) حيث بلغ فيها الشريف شأواً من الجمال والإبداع الفني ، مما حدا بالاستاذ ابن جني - وقد عاش في كنف الحمدانيين مدة من الزمن - إلى شرحها إذ أعجب بها الجرس والقوي وأثرها في نفس سامعها ، واشتمالها على فصيح اللفظ وبديع المعنى ^(١) .

ونعل أشعار الرضي هذه من أجمل ومن أصدق ما رثي به الحمدانيون ، لأن معظم الشعراء الذين رثوا الحمدانيين في بلاط سيف الدولة ، كان هدفهم مرصاة الأمير ، والتقرب إليه للحصول على المال . وعلى رأسهم المتنبّي ، فإن كثيراً من مرثيته في الحمدانيين "لم تصدر عن عاطفة صادقة ، ولم يحركها ألم دفين ، ونعل قصيدته في رثاء خولة أخت سيف الدولة ، هي أروع ما قال من رثاء في تعزيتة للأمير" ^(٢) . أمّا الشريف الرضي فإننا نجد "كافة مرثيته ، تتمسّ فيها الأحران النفسية بلا تكلف وتعمل ، وفي هذا تكليل على بعده عن المواربة في رثائه" ^(٣) . وبالرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر أن الرضي كان على صلة بالحمدانيين ، أو على علاقة بهم كما كان أبوه ، إلا أن قصائده تشير إلى تعلقه بهم ، حيث وجد في هؤلاء الأبطال الثوريين تجسداً لأماله وأحلامه وطموحاته ، فقد قضوا حياتهم غزاة للروم إذ "غزا سيف الدولة الروم أربعين غزوة ، ولولاه لاستولوا على الشام في غفلة العباسيين" ^(٤) ، فليس من المستبعد أن يحققوا آمال الرضي في غزو البويهيين في بغداد ، وإعادة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين آل البيت الكرام ، مع أن دولتهم كانت إلى ضعف في حياة الشريف ، لكنه كان يتوقع لها أن تعود إلى مجدها ، وهذا واضح في أشعاره كما سنرى .

^(١) عبد المتاح الحلو - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره : ١٩١ .

^(٢) سعود عبد الحارث - الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ص ١ ، ١٩٨١ ، ٢١٣ .

^(٣) عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ، قدمه له علي الحافظي ، مطبعة الحرية ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ٨٦ .

^(٤) أحمد أمين - ظهير الإسلام : ٦٠ ، ١١ .

فالشاعر كان يعتز ببؤلاء الثوريين الذين وصلوا إلى المجد وعقدوا لواءه ببيض أكفيم ،
ورفضوا الانصياع لأي حكم أجنبي ، كما فعلت كثير من القبائل التي اعترفت وانصاعت لسلطة
بني بويه . وفي هذا يقول الشريف الرضي :

كَانُوا لِمِ الْحَيِّ النَّكَاحِ وَغَيْرِهِمْ صَرَخَ عَلَى حُكْمِ الْمَقُولِ جَارِ
لَا يَنْبُذُونَ إِلَى الْخَلَائِفِ طَاعَةً بِقَعَقِيعِ الْإِيعَادِ وَالْإِنْدَارِ
عَقَدُوا لَوَاءَهُمْ بِيضِ أَكْفِيهِمْ كِبْرًا عَلَى الْعُقَدِ وَالْأَمَارِ^(١)

وقد أبرز الشريف من خلال رثائه للحمدانيين ، سمات البطل العربي الراضل لأي
سلطان أجنبي ، فابن ناصر الدولة صاحب مناقب لا نظير لها ، يحق للشريف أن يبكي على
فقدائها ، فما هي هذه المناقب التي يبكي الشريف فقدها ؟ يقول :

فَمِنْ شِطَطِطِكَ فِي الْمَسَاعِي وَفَضْرُ الْعَزْمِ ، وَالْبَاعِ الْأَشَدِّ
فَأَيُّنَ مُسَابِقِ الْأَجَالِ طَعْنًا يَعُودُ وَرُمَحُهُ رِيَانٌ وَرَدِّ
وَأَيُّنَ الْأَسْرِ الْفَكَاكُ يَمْرِي إِيَّامِ مِنَ الْعِدَى دَمٌ وَحُمْدُ
فَأَعْنَقُ أَحَاطَ بَيْنَ مَنْ وَأَعْنَقُ أَحَاطَ بَيْنَ قَدْ
وَلَوْ غَيْرُ الرَّدَى جَانِكَ أَقْعَى بِهِ مِنْ بَأْسِكَ الْخَصْمُ الْأَكْدُ^(٢)

فالمناقب التي يبكيها الشريف في أمراء العرب هي الصفات الباقية بعد الميت والتي
يذكرها الناس . أمّا الأبهة والترف والتعظيم فإنها زائلة بموتهم فذكرها الشريف للبويعيين ، ولم
يذكرها للحمدانيين ، وقد أشار النقاد الأقدمون إلى الصفات التي يجب أن يمتدح بها ، فركز
قدامة بن جعفر على الفضائل النفسية مثل العقل والشجاعة والعدل والعفة^(٣) .

وقال في القصيدة الثانية واصفاً بطرلة ابن ناصر الدولة ، وكان سوح القتال لم تكن إلا
له ، إذ تعطلت المعارك بعده إلى الأبد ، بل إنه يرى كل شيء من أمر الجهاد قد تعطل ،

^(١) الديوان : ٥٢١ : ١ . الحي النكاح : الحي الذي لا يدبون لمسوك . الصرخ : الصعيف . المقول : الموت .

^(٢) الديوان : ٥١٣ : ١ . القَدْ : الفصع ، حاتك : جعلت نحو ، أَعْنَى : فعد عن المحاولة .

^(٣) ابن جعفر : قد انشعر : ٤٦ .

فصرخ مستنهضاً همة الحمدانيين للمطالبة بالنار متحسراً على أيام عزهم عبر تركيب استفهامي

مكرر في أربعة أبيات ، يقول :

أَيْنَ الْقَبَابِ الْحُمُرُ تَفْهُقُ بِالْقِرَى
أَيْنَ الْفَنَاءِ تَمُوجُ فِي جَنَاتِهِ
أَيْنَ الْقَنَا مَرْكُوزَةٌ تَهْفُو بِهَا
أَيْنَ الْجِيَادُ مَلَلٌ مِنْ طُولِ السُّرَى
مَهْتُوكَةٌ الْأَسْتَارِ لِلزَّوَارِ
بِصَهِيلِ جُرْدٍ أَوْ رَغَاءِ عِشَارِ
عَذَبُ الْبُنُودِ يَطْرُنُ كُلَّ مَطَارِ
يَقْدِفُنَ بِالْمَهَرَاتِ وَالْأَمْهَارِ^(١)

فهو بطل لأنه من قوم كانوا سادة العرب ، ومن أسرة عريقة بالبطولة ، ورثتها كابراً

عن كابر ، حيث انطلقوا من هذا العز والشموخ لبناء دولتهم التي رفعوا عمادها بطول طعنهم

ونالوا أغراضهم بسيوفهم ورماحهم ، كما يقول :

مِنْ مَعْشَرٍ غَلَبَ الرِّقَابِ جَحَاحٌ
مِنْ كُلِّ أَرْوَاعٍ طَاعِينَ أَوْ ضَارِبٍ
وَفَوَارِسٍ كَالشُّهْبِ تَطْرَحُ ضَوْءُهَا
رَكِبُوا رِمَاحَهُمْ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ
وَاسْتَنْزَلُوا أَرْزَاقَهُمْ لِسُيُوفِهِمْ
غَلَبُوا عَلَى الْأَقْدَارِ وَالْأَخْطَارِ
أَوْ وَاهِبٍ ، أَوْ خَالِعٍ ، أَوْ قَارِ
يَوْمَ الْوُغَى وَأَوَارِ حَرِّ النَّارِ
أُمَمُ الْعُلَى ، وَجَرُوا بِغَيْرِ عِثَارِ
فَغَنُوا بِغَيْرِ مَذَلَّةٍ وَصَغَارِ^(٢)

فهم الشرفاء الذين أنفوا من الموت الذليل ، وارتضوه في ساحات الشرف وميادين الجهاد :

شَرَفًا بَنِي حَمْدَانَ إِنَّ نَفُوسَكُمْ
أَنْفَتَ مِنَ الْمَوْتِ الدَّلِيلِ فَأَشْعَرَتْ
مِنْ خَيْرِ عَرَقٍ ضَارِبٍ وَنَجَارِ
جَلَدًا عَلَى وَقَعِ الْقَنَا الْخَطَارِ^(٣)

فالشاعر وإن بدا في مطلع هذه القصيدة الرائية وكأنه يهجو ربيعة قوم المرثي ، إلا أنه

لا يقصد إلى الهجاء أبداً ، وإنما جعل بداية هذه القصيدة استصراخاً للنار ، وتحدياً موجهاً إلى

قوم القاتل ، فهو يستثير نخوة ربيعة قوم المرثي ويحرضهم للنار صارخاً فيهم ، إذ يدعوهم إلى

إلقاء السلاح ، بعد أن ذهب خير من حمل السلاح فيهم ، وامتطى صهوة الجياد ، محطّم الأسد

النهصور ، وقاصم هامة الجبار ، يقول :

(١) الديوان ١ : ٥٢٠ ، تفهق : تمنلى ، الحرد : الخيل القصيرة الشعر .

(٢) الديوان ١ : ٥٢٠ ، جحاح : جمع جحاح وهو السيد ، أمم العلى : قصص العلى ، عثار : المعثر في الشيء .

(٣) الديوان ١ : ٥٢١ .

أَلْقِي السَّلَاحَ رَبِيعَةَ بَنَ نِزَارٍ
وَتَرَجَّلِي عَنْ كُلِّ أَجْرَدٍ سَابِحٍ
وَدَعِي الْأَعْنَةَ مِنْ أَكْفَاكِ إِنَّمَا
وَتَجَنَّبِي جَرَّ الْقَفَا فَقَدْ مَضَى
وَنَيْغَذُ كُلِّ مُعَرِّضٍ مِنْ بَعْدِهِ
قَطَعَ الزَّمَانُ نِسَانَهُ الْعَضْبَ الشَّبَا
أَوْدَى الرَّدَى بِقَرِيبِكَ الْمَغْوَارِ
مِنْ الرَّقَابِ نَوَاصِرِ الْأَبْصَارِ
فَقَدَّتْ مُصَرِّفَهَا نِیَوْمَ مَغَارِ
عَنْهُنَّ كَبُشُّ الْفُلُقِ الْجَرَّارِ
مُعَرِّى بِحَسِّ مَعْقِدِ الْأَكْوَارِ
وَهَدَى تَحْمُطُ فَحْجَاكِ الْبُكَارِ^(١)

بل إن الشاعر يجعل أثر هذا الخطب الجلل واحداً على الحمدانيين وأن البيت عبر قوله

(فينا) في هذا البيت :

الْيَوْمَ صَرَخَتْ النَّوَائِبُ كَيْدَهَا
فِينَا ، وَبَانَ تَحَامُلُ الْأَقْدَارِ^(٢)

وكيف لا يكون هذا ، والحمدانيون وآل البيت متفقون في الميول الدينية ، والأهواء السياسية ، ومن هنا نشأ بينه وبينهم الود الذي ورثه عن أبيه ، وكان البويهيون يشعرون بهذا الود ، وبمنزلة أبي أحمد عند الحمدانيين ، فعندما وقع قتال بين عز الدولة البويهى وأبي تغلب ابن ناصر الدولة الحمداني ، أرسل عز الدولة أبا أحمد والد الرضي إلى أبي تغلب الحمداني برسالة لأجل الصلح^(٣) .

وبما أنه ليس بين العلويين والحمدانيين صلات قرى . فقد جعل الشريف الرضي صلات الود هذه مع الحمدانيين أسمى من صلات القرى ، فقال في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة مبيناً أن دموعه عليه لا حد لها :

إِبْرَاهِيمُ ! أَمَا دَمْعُ عَيْنِي
يُغْصَصُ بِالْأَوَائِلِ مِنْهُ طَرْفُ
بِكَيْتِكَ لِلْبُودَادِ وَرَبِّ بَاكِ
وَإِنْ بَكَاءَ مَنْ تَبَكَّيْتَهُ قَرِيبِي
عَلَيْكَ . فَمَا يَعْدُ وَلَا يَحْدُ
وَيَذْمَى بِالْأَوَاخِرِ مِنْهُ خَدُ
عَلَيْكَ مِنَ الْأَقَارِبِ لَا يَوْدُ
لَسُونِ بِكَاءِ مَنْ تَبَكَّيْتَهُ وَدُ^(٤)

^(١) الديوان ٥١٩ : ١ ، الترميز : سيد الخوم ، المعروض : الخارج ، التخصيص : الصغير .

^(٢) الديوان ٥١٩ : ١ .

^(٣) ابن الأثير - الكامل ٧ : ٣٣٨ .

^(٤) الديوان ٤١٣ : ١ ، أي لا يكون بكاء القرى يسمى نفسه في مستوى بكاء صديق

لهذا لجأ الشاعر إلى هجاء العقيليين قتلة إبراهيم بن ناصر الدولة ، وقد ساء لهم أشد أنواع

التفريع ، فالمرثي أحد صان عليه ذنب ، وسيد تطاول عليه عبد :

قَتِيلٌ "فَلَيْسَ لَهُ نَابٌ كَهَامٌ" وَكَانَ الْعَضْبَ ضَوَادُ الْفَرَسِ
وَذَلَّ بِنْتُ قَاتِلِهِ فَاضْحَى لِقَاتِيهِ بِهِ عِزٌّ وَمَجْدُ
فَيَا أَسَدًا يَصُورُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَيَا مَوْلى يَصُورُ عَلَيْهِ عَيْدُ^(١)

بل إنه لم يقل القصيدة الثالثة في رثاء هذا البطل إلا حين لأمه العقيليون ، وغضبوا من
رثائه له في القصيدتين السابقتين ، لكن الشريف لم يعبا بغضبهم ، وإنما لجأ إلى تحقيرهم
وهجائهم ذاكرا ماضيهم الذليل في هذه القصيدة ، ووصف أميرهم أبا الذواد القاتل ، بأنه معير
بالقعود ، وطلب المال والخصب ، وبين لهم أن سنة الورد والهوى التي تجمعهم بالحمدانيين تفوق
صلة القرى ، يقول :

أَبَ الرَّدَيْنِيَّ وَالْحُسَامَ مَعَا وَلَمْ يَوُبَّ حَامِلُ الْحُسَامِ مَعَهُ
إِنَّ الْخَفِيفَ الْحَادِيَيْنِ جَدَّاهُ مَعِيرٌ بِالْقَعُودِ وَالرَّعَعَهُ
إِيَّاهُ عَقِيلٌ وَأَيُّ مَقْصَصَةٍ كَوَضْعِ مَوْلى الْأَقْوَامِ مَنْ رَفَعَهُ
صَارَ طِرَادُ الْمُتَوَكِّ عَادَتُكُمْ بَعْدَ طِرَادِ الْبَعُوضِ وَالْقَمَعَهُ
أَلَمْ أَنْتَ رَثِيْتُ زَافِرَةً كَلُّوا نَجْوَمَ الْفَخَارِ أَوْ لَمَعَهُ
إِنْ لَا تَكُنْ ذِي الْأُصُولِ تَجْمَعُنَا يَوْمًا فَيَنْ الْقُوبَ مَجْمَعَهُ^(٢)

فلننظر إلى جمال الصورة الشعرية التي رسمها الشاعر في البيت الأول ، وكم تكون
هذه الصورة محزنة ومثيرة ، حين يعود الحسام والسيف وحدهما دون بطلهما الذي كان
يحملهما ، وهي تذكرنا بصورة مالك بن النريب ، وهو يرثى نفسه حين تخيل فرسه يرد الماء
يجر عنائه على الأرض دون فارسه الذي كان يورده الماء ، حيث يقول :

^(١) الذبول : ١ : ٤١٣ ، الكيام : الكلبي ، صواد : أناره ، الضرب : جوهري السيف .

^(٢) الذبول : ١ : ٦٤٦-٦٤٧ ، الخفيف الحادي : القليل المال ، الرعة : التوسع في الخصب ، القمعة : ذات بركت الإس يد عند حجر .

وَأَنْقَرُ خَنْدِيذٍ يَجُورُ عَنَّا ۖ إِلَى الْمَاءِ نَمُ يَتْرُكُ لَهُ الْمَوْتَ سَقِيًّا^(١)

ولا ينسى الشاعر كذلك في هذه القصيدة أن يدعو قبيلة المرثي ربعة للشار لفارسها أبي
ظاهر ، بالسمر تهنز في أسننها ، والخيل تعدو ، في جحفل يملأ عيون ناظريه ، ويرج بالربع
أذان سامعيه ، كما يقول :

لَوْ أَنْصَفَ الْحَيُّ مِنْ رَبِّعَتِهِ ۖ مَا صَافَ مُحْتَنَهُ وَلَا رَبَّعَهُ ۖ
وَأَنْتَرَعَ الشَّارَ مِنْ مَطْنَتِهِ ۖ مُعَاجِلًا بِالذَّمِّ الَّذِي أَنْتَرَعَهُ ۖ
بِالسُّمْرِ تَهَنَزُ فِي أَسْنِنَتِهَا ۖ وَالْخَيْلُ تَعْدُو الْعَنِيْقَ وَالرَّبَّعَهُ ۖ
فِي جَحْفَلٍ قَعَقَعَتْ حَوَافِرُهُ ۖ قَعَقَعَ الرَّعْدُ حَادِيَا قُرْعَتَهُ^(٢)

وهذه الأمثلة كلها تبين مدى تعلق الشاعر بالحمدانيين ، وحرصه على بقاء مجدهم ،
وأنه كان يرقب قوة دولتهم وضعفها ، وقد تنبأ بيوم يعود فيه الحمدانيون إلى سائف عهدهم من
المجد والسؤدد ، فقال مخاطباً العقيليين قتلة أبي ظاهر في ذلك :

لَا تَلَأَسُوا مِنْ ثُغُوبِ زُنْدِهِمْ ۖ كَأَنِّي بِالزَّمَانِ قَدْ قَرَعَهُ ۖ
لَا بُدَّ مَنْ أَنْ يَثُوبَ حَالِهِمْ ۖ نَكْرٌ ضَيْقٍ مِنَ الْأُمُورِ سَعَهُ^(٣)

نقد كان يرجو خيراً بأبي الهيجاء إذ كان الرضي يتطلع إليه بعد موت أخيه أبي فراس
الشاعر الذي كان فارس الحمدانيين ، بل هو من أشهر فرسانهم ، يقول :

رجونا أبا الهيجاء ، إذ مات حارث^(٤) ۖ فمذ مضيا لم يبق للمجد وارث^(٥)

لكن موت هذا الفارس الآخر كان نهاية المجد الحمداني ، فانقطع رجاء الشاعر ، وقد

عد ما يجري مصيبة بالنسبة له ، تبنون معيا كل مصائب الدنيا كما يقول :

(١) الفرشي - حميرة أشعار العرب في أحاطة والإسلام ، جحفل وعشق عليه وراى في شرحه محمد علي الشافعي ، دار القسم ، دمشق ، ص ٢٠ .

١٩٨٦ ، ١٢ : ٧٦١ .

(٢) الديوان : ١ : ٦٤٧ ، العنيق والربعة : حمران من السير السريع ، فاحة : قطع السحاب .

(٣) الديوان : ١ : ٦٤٧-٦٤٨ .

(٤) هو حارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن عبد ناصر الدولة وسيف الدولة ، وهو مدبر مشهور ، شغل عدة مناصب في حلب وأمواس .

والسيولة والحراة والعبوة والنخامة ، قلته أن أحده أبو المعالي بن سيف الدولة سنة (٣٥٧هـ) ، ابن حنكاه - وميت الأعيان .

٢ : ٥٨-٦١ ، الثعالي - نيفة الدهر : ١ : ٥٧ .

(٥) الديوان : ١ : ٢٩١ .

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى الدَّهْرَ إِلَّا عَلَيْهِمْ ۖ فَيَا رَزَايَا بَعْدَهُمْ وَالْحَوَادِثُ^(١)

ويتابع الشاعر حديثه عن هذين الأخوين ممتدحا فيهم السيادة والشجاعة مبرزاً فيهما

علواً في الحياة وفي الممات ، يقول :

أَلَا إِنَّ قَرْمِي وَائِلَ لَيْلَةَ السُّرَى ۖ أَقَامَا وَقَدْ سَارَ الْمَطِيُّ الدَّلَائِلُ
كَمَا الْبَارِلَانِ الْمُقَرَّمَانِ تَتَاوَبَا ۖ عَرَى الْمَجْدَ لَمَّا عَجَّ بِالْعَبِّ لَاهِلُ
رَفِيقَانِ مَا بَاغَاهُمَا الْعِزَّ صَاحِبُ ۖ نَدِيمَانِ مَا سَاقَاهُمَا الْمَجْدُ ثَالِثُ
حَسَامَانِ إِنْ فَتَشْتَ كُلَّ ضَرْبِيَّةٍ ۖ فَأَثَرُهُمَا فِيهَا قَدِيمٌ وَحَادِثُ^(٢)

ويمضي الشاعر في رحلة مع أمجاد الحمدانيين حتى كأنه ينسى نفسه أنه في قصيدة

رثاء ، هذا المجد الذي لم يحالفه الحظ في بداية الأمر ، إلا أنهم لم يستكينوا ، كما يقول :

تَصَدَّعَ مَجْدُ أَوْلِيهِمْ فَشَدُّوا ۖ جَوَانِيكُهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَسَدُّوا^(٣)

فالشاعر يذكر أمجاد الحمدانيين هنا ، ويفتخر بها فخراً ممزوجاً بنبرة الأسى على فقد

النموذج العربي الفريد ، فهو يرثي البطولة العربية المفقودة ، ويبكي كذلك القيم العربية

الأصيلة، والتي أصبحت مفقودة في مجتمع تسوده الرطانة الأعجمية بقيمتها الرديئة ، يقول :

وَسِرِبِ بَنُو حَمْدَانَ كَانُوا حَمَاتِهِ ۖ رَعَتْ فِيهِ ذُؤَبَانُ اللَّيَالِي الْعَوَائِلُ
فَأَيُّنَ كُفَاةَ الْقَطْرِ فِي كُلِّ أَرْمَةٍ ۖ وَأَيُّنَ الْمَلَاجِي مِنْهُمْ ، وَالْمَغَاوِلُ
وَإَيُّنَ الْجِيَادُ الْمُعْجَلَاتُ إِلَى الْوَعَى ۖ إِذَا غَامَ بِالنَّقْعِ الْمَلَا الْمُتَوَاعِلُ
إِذَا مَا دَعَا الدَّاعُونَ لِلْبَأْسِ وَالنَّدَى ۖ فَلَا الْجُودَ مَنْزُورٌ وَلَا الْغُوثُ رَائِلُ
يَرِفُّ عَلَى نَادِيهِمُ الْحِلْمُ وَالْحَجَا ۖ إِذَا مَا لَغَا لِأَغْ مِنْ الْقَوْمِ رَافِلُ
مِنْ الْمُطْعَمِينَ الْمَجْدُ بِالْبَيْضِ وَالْقَنَا ۖ مِلَاءُ الْمُقَارِي ، وَالْعَرِيبُ غَوَارِلُ^(٤)

ويرسم الشاعر صورة أسفه وتأسيه لضياح مجد الحمدانيين وأفول شمس عزهم في

أشهر مراثيه فيهم ، ليبرز لنا مدى حزنه وتعجبه معاً ، من هؤلاء القوم الذين أفل مجدهم بأفول

(١) الديوان ١ : ٢٩٤ .

(٢) الديوان ١ : ٢٩١ ، الدلائل : مفرداتها دلالات ، أي السريعة ، المقرمان : السيدان .

(٣) الديوان ١ : ٤١٤ .

(٤) الديوان ١ : ٢٩٢ ، العوائت : المفسدون ، الملا الشواعت : الصحراء ذات الطرق العسيرة ، منزور : قليل ، رامت : غابت ، لغا : قال لغواً ، رافت : مفتح ، غوارل : حجاج .

بطلين عظيمين من أبطالهم ، وهذا أبو فراس الحمداني ، وأبو طاهر بن ناصر الدولة ، مشبها
الحمدانيين حين افتقدوا هذين النجمين بالسماء حين تفتقد شمسها ونجومها ، يقول :

يَا تَغْلِبَ ابْنَةُ وَاثِلٍ ! مَا لِي أَرَى
غَرْبَنَا فَذَاكَ غُرُوبُهُ لَمِثْلَهُ
مَا لِي رَأَيْتُ فَنَاءَ دَارِكٍ عَاطِلًا
فَجَعْتُ سَمَاؤُكَ بِالسَّمُوسِ وَحَوْلَتُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ نَوَاءً مَجِيدٍ سَاقِطٌ
نَجْمِيكَ قَدْ أَفْلَا عَنْ النُّظَارِ
تَجَلَّى ، وَذَاكَ غُرُوبُهُ لِلسَّارِ
مِنْ كُلِّ أُلُجٍّ كَالشَّهَابِ السَّوَارِ
عَنْهَا وَعَنْكَ مَطَالِيعُ الْأَقْمَارِ
مِنْهَا ، وَنَجْمٌ مَذْقِبٌ مَكْوَارٍ^(١)

ويعود بهذه الأمجاد إلى الوراء ، فيذكر تاريخ الحمدانيين منذ الجاهلية ، ويشير إلى
انتصاراتهم ، ذاكرًا تغلبهم على قبيلة بكر ، حيث اقترنت بكر وتغلب ابنتا واثل في الجاهلية ،
وهكذا كان سعي الحمدانيين نحو العلاء ، وكثرت وقائعهم ، إلى أن قامت دولتهم في الموصل
بقيادة ناصر الدولة الحمداني ، وفي حنب بقيادة سيف الدولة الحمداني ، لكنها كانت دولة خفيفة
الظل سرعان ما تلاشت كما يقول الرضي :

أَعَارَهُمُ الزَّمَانُ نَعِيمَ عَيْشٍ فَيَا سَرَّعَانَ مَا تَزَعُّوا وَرَدُّوا^(٢)

فبعد موت سيف الدولة ، ضعفت دولة الحمدانيين ولم يلبث في هذه الفترة بطنهم

وفارسيم الشاعر أبو فراس الحمداني ، وفي هذا كله يقول الرضي :

وَعَادَرْتُمْ أَشْدَاءَ بَكْرٍ مُقِيمَةً
وَقَدْ كَانَ دَيْنٌ فِي كَلْبٍ وَقَى بِهِ
وَقَاتِعُ أَيْتَمٍ كَانَ إِكْلَامِيهَا
تَعُودُونَ عَنْهَا فِي قَنَاقِمٍ مَبَاشِمٍ
حُرُوبٌ مِنَ الْأَقْدَارِ طَاحَ عِرَاكُهَا
عَلَى الْعَارِ لَا تُحَيِّ عَلِيَّهَا النَّبَاشِثُ
غَرِيمٌ مَضُونٌ بِالْدُّيُونِ مُمَاجِثُ
بِجَارِي دَمِ الطَّعْنِ الْإِمَاءُ الطَّوَامِثُ
وَعِنْدَ قَنَا بَكْرٍ إِلَيْكُمْ مَغَارِثُ
بِحَرْبٍ ، وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِنَّ حَارِثُ^(٣)

^(١) المبرور : ١ : ٥١٩ - ٥٢٠ .

^(٢) الديوان : ١ : ٤١٣ .

^(٣) المبرور : ١ : ٢٩٣ . يعتمد أن فراس الحمداني حارث بن سعيد : السالك : الأثرية : الخربة : أصحاب العزم ، مطبوع بالديوان : لا يخفى هذا .

مما عث : محاسن ، الصوامت : من أظمت أي أحييت ، ما عثم : من أظم ، أي التهمة بعد الأكل .

٢. رثاء العقيليين :

كان الشريف الرضي سياسياً محنكاً ، يدور مع السياسة حينما تدور ، فبعد الطعن الذي وجهه للعقيليين قلة أبي طاهر بن ناصر الدولة الحمداني ، نراه وقد شاهد العقيليين يتغلبون على الموصل من الحمدانيين ، نراه يوثق علاقته بهم ، ويبني صداقات مع أمرائهم ، فما إن توفي أحد هؤلاء الأمراء سنة (٣٨٥هـ) ، أي بعد أن ثلبيهم بسنوات قليلة ، إلا ونراه يرثي هذا الأمير بأروع مرثيته ، بل هي من غرائب المرثي كما يقول زكي مبارك^(١) وقد أكثر فيها الشاعر من المحافظة على المظاهر البدوية ، واحتفظ فيها بعناصر بدوية ، منها شجاعة البدوي واستبساله في المحافظة على مذابح العشب ومراعي القبيلة ، وقد أرسل هذه المعاني فيها دون إغراب ، فقال في مطلعها :

مَضَى الرَّدى بِضَوِيرِ الرُّمَحِ وَالْبَاعِ	مَذَابِثُ الْعُشْبِ لَا حَاسِمٍ وَلَا رَاحِ
وَالْمُضْعَمِ الْبُزْلُ تَلْدَائِمُومَةً انْقَاعِ	الْقَائِدِ الْخَيْرِ يُرْعِيهَا شَكَايَمَهَا
وَمَنْ يُجَلُّ نُوقًا بَيْنَ أَسْوَاعِ	مَنْ يَسْتَقَرُّ سَيُوفًا مِنْ مَعَامِدِهَا
وَيَنْبِغُ الْعَيْسُ مِنْ شَدٍّ وَإِضْوَاعِ	يَسْقِي أَسِنَّةً حَتَّى تَقِيَّءَ كَمَا
عَيْنَاهُ إِلَّا عَلَى عَزَمٍ وَإِزْمَاعِ ^(٢)	مَا بَاتَ إِلَّا عَلَى هَمٍّ وَلَا اغْتَمَضَتْ

ومن صور حزن الشاعر في رثاء العقيليين ، وصفه وقع الخبر على نفسه وكيف كان رد فعله حين تلقاه ، فقد عظم كفه من غيظ على ناقل الخبر ، وأبدى انصمامه حتى لا يسمعه ، وفي القصيدتين احتال على معنى المتنبّي الذي طارت شهرته في الأفاق في قوله :

فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَائِي إِلَى الْكَذِبِ	طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ
شَرِفْتُ بِالْذَّمِّ حَتَّى كَادَ يَسْرِقُ بِي ^(٣)	حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا

فقال في رثاء الأمير الذي لم يذكر اسمه وإنما أشار في القصيدة أنه من بني شيب العقيليين :

(١) زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي : ٢٢٢ .

(٢) الديوان : ١ : ٦٣٣-٦٣٤ ، الشكائ : جمع شكبة وهي قطعة من حديد تعرض له حين عهد السحابة ، المسمومة : الأرض التي يذوم معها ، الإضاع : حمل الياف على شدة السير .

(٣) الشيب - الديوان : ١ : ٦٤٤ .

لَمَّا أَتَانِي نَعِيٌّ مِنْ بِلَادِكُمْ عَضَضْتُ كَفِّي مِنْ غَيْظٍ عَلَى النَّاعِي
أُبْدِي التَّصَامُمَ عَنْهُ حِينَ أَسْمَعُهُ عَمْدًا وَقَدْ أَبْلَغَ النَّاعُونَ أُنْمَاعِي^(١)

وقال في رثاء المقلد بن المسيب :

أَتَانِي ، وَغَوْلُ الْأَرْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
جَوَانِبُ أَنْبَاءٍ وَكَذَّتْ بِأَتْنِي
تَصَامَمْتُ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُدْرَةَ
فِيَا لَكَ رُزْءًا مِمَّا أَمْضَى وَأَوْجَعَا
صَمَمْتُ لَهَا مَا أَوْرَقَ الْعُودَ مَسْمَعَا
وَمَا أَنْصَقَ النَّاعُونَ إِلَّا لِأَسْمَعَا^(٢)

وقد أظهر الشاعر جزعه الشديد لقتل المقلد بن المسيب في القصيدة الثانية التي رثاه بها ، فبدأ القصيدة بأبيات تبدو للهولة الأولى وكأنه يهجو بني عامر قبيلة المرثي ، وهي تشبه تماماً بدائية قصيدته التي رثى بها أبا طاهر الحماني ، فوسم قبيلة المرثي (عامر) بالذل والهوان بعد قتل سيدها المقلد ، وهو يقصد إلى استثارة نخوة هذه القبيلة للثأر لأميرها وفارسها من قاتليه ، مذكراً إيانا بقريط بن أنيف في استنهاض قومه^(٣) ، ولا يقصد إلى الهجاء ، يقول :

أَعَامِرُ ! لَا لِلْيَوْمِ أَنْتَ وَلَا الْعَدِ
وَأَصْبَحْتَ كَالْمَخْضُومِ مِنْ بَعْدِ عِزِّهِ
فَإِنْ سَارَ لِلْأَعْدَاءِ غَيْرُكَ فَارْبَعِي
وَقُلْ لِلْحِمَى لَا حَامِي الْيَوْمَ بَعْدَهُ
وَلِلْبَيْضِ لَا كَفٌّ لِمَاضٍ مُنْهَدِ
وَقَرَّ لِلْعَدَى أَمْدًا عَلَى كُلِّ جَانِبِ
تَقَلَّتْ ذُلُّ الدَّمْرِ بَعْدَ الْمَقْلَدِ
مَتَى قَبِلَ مَشَاءٌ عَلَى الضَّيْمِ يَنْقَدِ
وَإِنْ قَامَ لِلْعُلَيَاءِ غَيْرُكَ فَاقْعُدِي
وَلَا قَانِمٌ مِنْ دُونِ مَجْدٍ وَسُودِ
وَلِلسُّمْرِ لَا بَسَاحٌ لِعَسَالٍ مُسَكَّدِ
مِنْ الْأَرْضِ أَوْ نَوْمًا عَلَى كُلِّ مَرْقَدِ^(٤)

بهذه النبذة من الجزالة والقوة بدأ الشاعر قصيدته التي عبر فيها عن أساه لمقتل المقلد ، مستثيراً قومه لالأخذ بثأره ، عبر ذكر مناقبه العسكرية ، وكيف كان قائدا لا يضاهيه أحد من الأبطال ، فنعاه للحمى ، وللسيوف والرماح ، وأمن الأعداء بعده ، رافضاً في الوقت نفسه أسلوب الغدر ، لأنه أسلوب الجبناء الخونة ، لذا فقد عرض الشاعر بقتله المسيب ، ونعتهم

(١) الديوان ١ : ٦٣٤ .

(٢) الديوان ١ : ٦٤٠ .

(٣) انظر أبيات قريط في الشريفي - شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، كتف حواشيه حميد المتبحر ، ووقع فيارسة العلامة أحمد شمس الدين ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ١٤٠-٢٠١ .

(٤) الديوان ١ : ٤١٤-٤١٥ . أرمعي : أرمقي ، ناعبي : ناعبي ، ألقى : ألقى .

بالذل، ودعا عليهم أن لا ينعموا بطيب العيش بعده أبداً ، فإسان حاله يقول : إن الغادر الجبان يقضي حياته على وجع ، فقال :

حَسَامٌ نَكَأَ فِيهِ كَهَامٌ بِغُرَّةٍ وَأَوْنَى لَهُ نَوَاهِرُهُ غَيْرُ مُغْمَرٍ
لَنْ قَلَّ الدَّلَانُ مِنْهُ فَرُبَّمَا تَحَيَّفَ مِنْ مَضَى الضُّبَى شَقُّ مِرْدَرٍ
فَلَا نَعِمَ الْبَاغُونَ يَوْمًا بِعَيْشَةٍ وَلَا حَضَرُوا إِلَّا بِالْأَمِّ مَشْهَرٍ
وَلَا صَالَفُوا فِي الدَّهْرِ مَنْجَى لِحَاكِفٍ وَلَا وَجَدُوا فِي الْأَرْضِ مَأْوَى لِمُطَرِدٍ^(١)

ويعبر الشاعر عن أساءة نفق هذا البطل ، بفقد السيوف الفاعلة ، والدروع الواقية ،
والرماح الطويلة ، والجياد الملجئات على الوجي ، والوفود الواقعة بيباه ، وكلها أخطا تدل على
السيادة والكرم والشجاعة من وحي البيئة البدوية ، وقد أدها بجرس حزين مليء بالأسى ، فقال
في تركيب استقيامي مؤثر :

فَأَيْنَ الْجِيَادُ الْمُلْجَمَاتُ عَلَى الْوَجَى سِرَاعًا إِلَى نَقْعِ الصَّرِيخِ الْمُنْدَدِ
وَأَيْنَ الضَّوَالُ الزَّاعِيَاتُ لَوَيْثًا لَنَالَ بَيْتًا مَا بَيْنَ نَسْرٍ وَفَرْقَدِ
وَأَيْنَ الضُّبَى مَا زَالَ مِنْهَا بِكَفٍّ رِدَاءٌ عَظِيمٌ ، أَوْ عَمَمَةٌ سَيِّدِ
وَأَيْنَ الْمَطَايَا تَنْزِعُ الْبِيدَ وَالْجُجَى إِلَيَّ أَقْرَبَ مِنْ نَيْلِ عِزٍّ وَأَبْعَدِ
وَأَيْنَ الْجَفَانُ الْغُرُومُ قَمَعَ الذَّرَى هِجَانُ الْأَعَالِي بِالسَّيْفِ الْمُسْرَهْدِ
وَأَيْنَ الْوُفُودُ الْمَاتِحُونَ بِيَابِهِ بِسَجَلَيْنِ مِنْ بَحْرَيَّ وَعِيدٍ وَمَوْعِدِ^(٢)

وهكذا يقدم لنا الشاعر صورة كلية لهذا البطل ، تحوي جميع مشاهد القتال وأسباب
السيادة ، وصور لنا هذا البطل وحده في ساحة الوغى ، لأنه في الأبيات التي قبلها قرر أن
البطولة قد انتهت بموته ولا حامي للحمى بعده ، وكل هذا ، ليظهر الشاعر مدى أسفه لنفق هذا
الأمير ، الذي أصبح بسببه يرى الحياة لا قيمة لها ، فأخذ يدعو على طيب العيش بالبين ، وهو

(١) الميوان ٤١٦ : ١ : الكهيم : الكبي ، الدلان : الدليل ، تحيف : تفض ،

(٢) الميوان ٤١٥ : ١ : الوجى : الجح ، السدد : السعيت ، الزاعيات : الزمجات ، النوى : الأسمه ، السديف : شحم السهم ،

المسرهد : المقصع .

يقصد إلى إظهار تأسفه وحزنه الذي أوصله إلى اعتبار النعيم بعد المرثي لا يساوي شيئاً ،
فيقول في القصيدة الثانية :

فَبَعْدًا لِطِيبِ الْعَيْشِ بَعْدَ فِرَاقِكُمْ فَلَا أَسْمَعَ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ وَلَا دَعَا
وَلَا أَلْفًا لِلدَّهْرِ إِنْ صَدَّ مُؤَيِّسًا وَلَا مَرْحَبًا بِالدَّهْرِ إِنْ عَادَ مُضْمِعًا^(١)

وهكذا فإن الأسي يبعث الأسي ، فموت أبطال عقيل أذكر الشاعر بأحبابه المتوفين ، فهو
من جهة ، يبرز عظم مصيبتهم بولاء الأبطال ، ومن جهة أخرى يشعرنا أنه مكلوم الغواك لفقد
أهله وأصدقائه ، ولا يرجو الحياة بعد فقدهم . لأنه يرى موته من خلال موتهم ، يقول :

أَمِنْ بَعْدِهِمْ أَرْجُو الْخُلُودَ وَهَذِهِ مَبِينِي وَمِنْ تِلْكَ السَّرَائِعِ مَوْرِدِي
فَقُلْ لِلْيَالِي بَعْدَهُمْ : هَاتِ مِقْوَدِي كَقَضَى إِيَّايَ فَاصْطُدِّي بِي أَوْ رِدِي
وَدُونَكَ مِنْ ظَهْرِي وَقَدْ غَالَ أَسْرَتِي صَرِيقُ الرُّنْدَى ، ظَهَرَ النَّوَلِ الْمُعْبَدِ
بِأَيِّ يَدٍ أَرْمِي الزَّمَانَ وَسَاعِدِي وَكَانُوا يَدِي أَعْطَتْهَا الْخُطْبَ عَنْ يَدِي^(٢)

بل إن موت هؤلاء الأحرار أذكره بكل عربي أبي ، قضى وهو يسعى نحو المجد ، فقال

في رثاء الأمير العقيلي :

كَمْ فَجَعَتْنِي اللَّيَالِي قَبْلَهُ بِفَتَايَ مُشَمَّرٍ بِغُرُوبِ الْمَجْدِ نَزَاعِ
يَمُرُّ صَوْنِي ، فَلَا يَلْوِي بِجَانِبِهِ وَكَانَ يَكْفِيهِ إِيْمَانِي وَإِمَاعِي
مَنْ كَانَ أَنْسَى أَضْحَى وَحَسَنِي وَغَدَا مَنْ كَانَ يُرِي أَسْبَابُ نَوْجَاعِي
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْرَأُ انْصَرَفَ مُنْقَبَا وَرَاءَ نَجْمٍ مِنَ الْفَرَّانِ مُنْصَاعِ^(٣)

فالرضي يميل نحو العقيليين ، لأن لهم منهجاً كانوا يتبعونه . إذ غرسوا في نفوس

العرب منهج الرفض والثورة . وهو منهج السجد الذي ما فتى الشريف ينشده حين ينظر إلى

واقع أمته ، فتمتلئ نفسه بالهموم التي أسماها زكي مبارك : هموم المجد ، ورأى أن دراستها

أولى من البحث في سرقات المتنبي^(٤) ، يقول :

^(١) الديوان : ١ : ٦٤٤ .

^(٢) الديوان : ١ : ٤١٨ .

^(٣) الديوان : ١ : ٦٣٤-٦٣٥ .

^(٤) زكي مبارك - عقوبة الشريف الرضي : ١ : ٢٢ .

وَإِنْ يَمْضِرْ نَصْلٌ مِنْ عَقِيلٍ نَجْدٌ لَهُ
مَنْصُورٌ بَعْدَ مَا أَبْقُوا إِلَى الْمَجْرِ مَنَهِجًا
مَنْصِلٌ فِي أَيْدِي الصَّيْقِلِ قَطْعًا
رُكُوبًا بَأَعْلَى غَارِبِ الْأَرْضِ مَنِيْعًا
وَلَمْ يَتْرَكُوا فِي نَصْلٍ شَنْعَاءَ مَضْرِبًا
وَلَمْ يَدْعُوا فِي قَوْمٍ حَيَاءَ مَنْزَعًا^(١)

وقد أبرز الشريف الرضي صورة البطل العقيلي من خلال المقابلة بين مثالين ، مثال الرجل الذي يلزم بيته ، وهو الجبان الذي إن أودى لا يترك خلفه إلا ما يدل عليه من السوائم ، دلالة على حرصه على الغنى وجمع المال ، والركون إلى نعيم العيش ، والمثال الآخر، مثال الرجل الشجاع ، قليل الاهتمام بالنفس ، المتلاف للمل ، ومن خلال هذا التمايز بين المثالين يثبت الشاعر للمرثي المثال الإيجابي حيث يقول :

لَيْسَ الشُّجَاعُ الَّذِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهِ
وَلَا الَّذِي إِنْ مَضَى أَبْقَى لِرِثْمِهِ
لَكِنَّهُ مَنْ إِذَا أَوْدَى فَلَيْسَ لَهُ
يَعْنُهُ الذَّنْبُ فِي الظُّلْمَاءِ مُرْتَفَقًا
يَذُوقُ الْعَيْنُ طَعْمَ النَّوْمِ مَضْمُضَةً
أَشْبَعُ الرَّأْسِ لَا يَجْرِي الدَّهْنُ بِهِ
بَابُ يَلَاحُكُ مِصْرَاعًا بِمِصْرَاعٍ
سَوَائِمًا بَيْنَ أَطْوَاخٍ وَأَحْزَاعٍ
إِلَّا عَقَائِلُ أَرْمَاحٍ وَأَدْرَاعٍ
عَلَى رَحَائِلٍ مُقَادَةٍ وَأَقْطَاعٍ
إِذَا الْجَبَانُ مَلَأَ عَيْنًا بِتَهْجَاعٍ
وَإِنْ فُلِي فِيمَا ضِيَّ الْغُرَبِ قَطَّاعٍ^(٢)

لهذا السبب عمق الشريف علاقته بالعقيلين ، ودل على مودته لهم بعد أن قدح بهم وهو يرثي ابن ناصر الدولة الحمداني ، فأبرز لهم مكانة في قلبه، فقال وهو يرثي المقتد بن المسيب :

أَعَزُّ عَلَى عَيْنِي مِنَ الْعَيْنِ مَوْضِعًا
لَقَدْ صَغُرَ الْأَرْزَاءُ رُزُوكَ قَبْلَهَا
وَأَصْفُ فِي قَلْبِي مِنَ الْقَتْرِ مَوْضِعًا
وَهُوَ عِنْدِي النَّارُ الْمُتَوَقَّعًا^(٣)

٣. رثاء أبي العوام بن ليلى :

يشير شعر الرضي وخاصة الرثاء ، إلى فارس من أمراء البدو اسمه من خلال قصائد الرثاء : عمرو بن ليلى ، وكنيته أبو العوام ، ولا شيء يدل على هذا الفارس أو يذكر اسمه

^(١) الديوان ١ : ٦٤٢-٦٤٣ .

^(٢) الديوان ١ : ٦٣٩ . يلاحك : يلازم ، أطواخ : دوة أساب ، الأحزاع : مفردة صواح وهو معصف البرادي ، يعنه : يحرف الليل .

^(٣) الديوان ١ : ٦٤١-٦٤٢ .

سوى قصائد الرضي ، فقد بطلت المصادر التاريخية أن تورد أي معلومة عنه . فورد اسمه في قول الرضي :

وَأَيْنَ كَفَّارِيسَ الْفَرُسَانَ عَمَّيْرُو إِذَا رُزُّهُ مِنْ الْحِثَّانِ فَاجَا^(١)
ووردت كنيته في قول الرضي :

كَأَنَّكَ لَمْ تَقُذْ بِعَوِيرِضَاتٍ أَبَا الْعَوَامِ فَيَاتِكَ قِطَاطَا^(٢)
لكن يبقى (ابن ليلي) هو الاسم المحبب إليه ، وقد ذكره أربع مرات في قصيدة واحدة^(٣) .

رثى الشريف الرضي هذا الفارس بخمس قصائد ، كانت من " أجمل مرثيه لأنه جردها من أسلوبه التقليدي ، وجعلها نسيج وحدها حين لاءم بينها وبين الذي قيلت فيه ، وأقامها على نسق بدوي خالص ، فالروح بدوية ، والطريقة بدوية كذلك ، وبعض المعاني التي يرددها فيها تدل على قوة صلة الشريف بشعر البداوة ، وبخاصة شعر الهذليين^(٤) . وقد كانت هذه القصائد كتلة من التفجع واللوعة التي تشير إلى بأس الشاعر وضياح أماله ، حيث اتخذ داعية له يجمع حوله بعض القبائل في نجد وأطراف العراق ليكونوا أنصارا له عندما تحين الفرصة المناسبة . ونعل الشريف قد تعرف به عن طريق والده في رحلاتهم إلى الحج عبر صحراء نجد ، وقد كان أبو أحمد يصطنعه وقومه ليأمن بهم مجاهل الصحراء وقطاع الطرق . والشريف نفسه يشير إلى فضله ، وإلى سلامة الحجيج الذين تحت إمرته ، يقول :

وَلَوْ لَا أَبُو الْعَوَامِ لَمْ يَمْلِكُوا الْعُدَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنْ تَشِبَّ النَّوَائِرُ
وَلَمْ يَرْفَعُوا بَيْنَ الْغَوِيرِ وَحَاجِرِ قَبَائِهِمْ مَا دَامَ لِلْبُدُنِ نَاجِرُ^(٥)

ويبدو أن الشريف قد اطمأن إليه ، ورأى فيه وفاءً منقطع النظير ، أو أن يكون قد أطمعه بشيء من السلطة إن هو ظهر ، فاتخذه داعية له يجمع له الأعراب . ومن هنا يكون

^(١) الديوان : ١ : ٣٠١ . حثتان : مائة الفرس . وحج : أي وحار .

^(٢) الديوان : ١ : ٦٠٠ ، عويرصات : مرمع ، قطاط : فخذ الشعر .

^(٣) الديوان : ٢ : ٢٦٨ - ٢٧٠ .

^(٤) إحسان عباس - الشريف الرضي ، ٢١٧ - ٢١٨ .

^(٥) الديوان : ١ : ٥٥٥ . وانظر عند الشاعر الحارث - الشريف الرضي حياته ودراسة شعره : ١٩٩ - ١٩٤ .

رأى زكي مبارك في شأن العلاقة بين الرضي وأبي العوام وجيباً ، إذ يقول : « فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف ، وكان ابن ليلي من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق »^(١) ، وعليه فإن رأي عبد الحسين الحلي ، لا يخلو من الوجهة كذلك ، والذي يرى فيه أن قتل أبي العوام والمقتد العقيلي ، قد يكون مما دبره الخلفاء بئيل ، للاستراحة منهم^(٢) ، حيث يفصح الرضي في بعض قصائده أن أبا العوام كان له شأن ، وكان يصح إلى أمر دونه الموت ، يقول :

أَرَى ابْنَ الْعَوَّامِ تُحْدَى عَلَى الصَّوَى وَتَأْكُلُ حَوْذَانِ الصُّرَيْقِ الْمَنَاسِمُ
وَتَضْمِي عَلَى الْإِعْذَارِ لَشِدَاقِ حَبْلِهِ وَتَشْرِبُ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ السَّكَنِيمُ
يُحْدُولُ أَمْرًا يَرْمُقُ الْمَوْتَ دُونَهُ نَقْدُورُ عَنْهُ مَا تَرُودُ الْمَرَاوِمُ^(٣)

وأهم ما يظهر في هذه المراثي الخمس : إقامتها على نسق بدوي مبنى ومعنى ، ومهاجمة تميم قلة المراثي والدعوة للانتقام منهم ، وتقجع الشريف لمقتل ابن ليلي ويأسه وانقطاع أمه .

لقد أقام الشريف هذه القصائد على نسق بدوي مبنى ومعنى ، وسلك في معظمها مسلكاً وعراً ، أرق ما فيها قصيدته التي مطلعها :

أَنَارِي الْمَقْلَتَيْنِ عَنْ ابْنِ لَيْلَى وَيَأْبَى لِمُعْنِيٍّ إِلَّا لِحَاجَجٍ^(٤)

وقد بحث فيها الشاعر أداته وأنغامه الحزينة ، بعد أن هدأت نفسه من هياج النوح وحرارة فقد هذا الفارس ، أو قل فقد الصموحات والأمال التي كانت تزور الشريف في أحلام المنام واليقظة .

^(١) زكي مبارك - عقربة الشريف الرضي ١٢ : ٦٦ .

^(٢) عبد الحسين الحلي - حياة الشريف الرضي ٥٣ .

^(٣) السبوا ١٢ : ٣٠٨ ، تحدى : تصاق بالخداء ، الصوى : الجوع ، الإعداد : من أعد أسير أي أسرع .

^(٤) السبوا ١١ : ٣٠٠ .

أما سبب هذه الروح البدوية في شعره ، فهو تأثره بالمتنبي ، لأن إحساسه هذا ، هو إحساس المتنبي نفسه ، إذ كان المتنبي يستشعر البدية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربي أصيل^(١) . أضف إلى ذلك أنه أراد أن يوائم بين هذه القصائد وبين من قبلت فيه ، وهو فارس بدوي ، من حرشة الضباب وأكله اليرابيع .

ومن مطالعه البدوية قوله في القصيدة التي رثاه بيا سنة (٣٩٣هـ) :

تَعَيَّفَ الطَّيْرُ ، فَاتَّبَعَهُ أَنْ ابْنَ لَيْلَى عَقَبَهُ عُلُوقُ^(٢)

وهو مطلع بدوي يشير إلى عادة جاهلية ، وهي زجر الطير ، حيث تنبأ الشاعر بزجر هذا الطير ، أن ابن ليلى قد قتل ، وذكره العيفة هنا من باب التثؤم ، إذ كان خبر النعي هذا نذير شؤم للرضي ، مما دفعه أن يدعو على الناعي الذي نقل خبر الشؤم أن تطير ذراعاه بسيف قاطع ، يقول :

يَا نَاعِيَ الْفَارِسِ قَدْ أَصْبَحْتَ ضِبَاعُ ذِي الْعَرَعِ مِنْهُ نَعُوقُ^٥
تَعْلَمُ مَنْ تَعْنَى إِلَيَّ قَوْمِيهِ ؟ طَارَ ذِرَاعَاكَ بِعُضْبٍ كَلُوقُ^(٣)

ومن مطالعه التقليدية كذلك قوله :

لَعَمْرُ الطَّيْرِ يَوْمَ ثَوَى ابْنُ لَيْلَى لَقَدْ عَكَفَتْ عَلَى نَحْمِ كَرِيمِ^(٤)

وهو كما يرى إحسان عباس^(٥) مقتبس من قول أبي خراش النهدي :

لَعَمْرُ أَبِي الطَّيْرِ الْمُرْبَةِ بِالضُّحَى عَنِ خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْنَ عَلَى نَحْمِ^(٦)

ومن معانيه البدوية كذلك ، نراه يذكر كرد ابن ليلى فيشبهه وهو يرقب الطراق ليلاً في

قنة مرتفعة ، بالبازي الذي يرقب الفريسة من فوق المربأ العالي ، مؤثراً قومه بالنوم ، يقول :

كَمْ بَكَاتَ رَبَّاءٌ لَسِيَّارَةً طَارِقَةً غَيْرَ أَوَانِ الطُّرُوقِ^٥

^(١) انظر شوقي صيف - عشر السنين والإمبراطوريات - حريوة نعلية - معرق - بيروت ١٩٧٣ .

^(٢) الديوان ٢ : ٦١ .

^(٣) الديوان ٢ : ٦٢ . معوق : ضائفة ، العصب : السيف القاطع .

^(٤) الديوان ٢ : ٢٦٨ .

^(٥) إحسان عباس - أنشراح المرمي ٢١٨ .

^(٦) السكري - شرح أشعار المديون ٣ : ١٢٢٦ .

فِي قَلْبِهِ عَيْطَاءٌ مَمْضُولَةٌ كَأَنَّهُمَا قَلْبَةٌ رَأْسٌ حَنِيقٌ
يُزَايِلُ النَّيْلَ عَلَى رَحْلِهِ وَيُؤْثِرُ الْقَوْمَ بِطَعْمِ الْخُفُوقِ
أَوْفَى كَمَا جَنَى عَلَى رَهْمَةٍ أَرْزَقُ وَأَلَى نَضْرَاتٍ بِشِيقٍ^(١)

هذا فضلا عن الألفاظ البدوية الوعرة في هذه القصائد ، وهو في هذا موافق لما يقوله

ابن طباطبائي وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه الكلام البدوي الفصيح ، لم يخطئ به الحضري المولد ، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها ، وكذلك إذا سهل لم يخطئ بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة^(٢) .

تشير مراثي الرضوي ، أن بني تميم هم الذين قتلوا أبا العوام ، حين جاءهم يدعواهم لأمر الرضوي ، فالشاعر يذكرهم في معظم هذه المراثي ويتوعددهم ، ومن هنا احتوت المراثي على عناصر الفخر بهذا الفارس ، والتي هي بحد ذاتها تعد تحدياً موجهاً لرهط القاتل ، فقد امتزج حزن الشاعر بفخر عظيم بفقيده ، تجلى في بيان شجاعته وبسالته من جهة ، ونسبه ومنزلته بين قومه من جهة أخرى ، وفي هذا السياق البدوي الصرف ، من الفخر بشجاعة ابن ليلي وفروسيته ، يفهم العزاء ضمناً ، إذ يعزّي الشاعر نفسه بأن هذا الفارس مات بطلاً ثابتاً على الحق ، يقول :

بَعْدَ الْأَرْمَاحِ تَمِيمٌ نَقَدَ هَدَنَ عَادِيَّ بِنَاءٍ عَتِيقُ
قَرَعَنَ فِي أَصْلِ كَرِيمِ النَّسْرِ وَجَلَنَ فِي فَرْعِ عَزِيزِ الْعُرُوقِ
مَا كَانَ بِالرَّاحِعِ عَنْ نَهْجِهِ لَوْ وَقَفَ السَّيْفُ لَهُ فِي الْمَضِيقِ
لَا يَدْعُ الذَّائِلَ مَكَّنَ طَعْمُهُ عَلَى صَبُوحِ بَدَمٍ ، أَوْ غَبُوقِ^(٣)

(١) الديوان ٢ : ٦٢ . القلة : الحبل ، عيطاء : مرتفعة ، رهوة : مرتفع ، الأرزق : الناري .

(٢) العلوي - عيار الشعر ، شرح وتعليق عباس عبد الستار ، مراجعة عليم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سال ، ط ١ ، ١٩٨٢ .

١١ - ١٢ .

(٣) الديوان ٢ : ٦٢ . الصبح : ما شرب في الصباح ، الغبوق : ما شرب في العشي .

فالشاعر يذكر عدتهم في الحرب وهي (أرماح) بجمع القلة ، وذلك من باب تحقيرهم والتقليل من شأنهم والانتقاص من جراتهم ، ليثبت أنهم ليسوا أهلاً لمواجهة ابن ليلى في ساحة الوغى ، إذ لولا الغدر ، ما استطاعوا إليه سبيلاً ، لكنهم أتوه على حين غرة ، كما يقول :

حَدَّوْا لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَتَّقِي عِيراً مِنَ الطُّعْنِ مِلءَ الْوُسُوقِ^(١)

لكن الشاعر في مثل هذا الموقف لا يقنع بالتعبير عن حزنه وأساه ، بل يضيف إلى ذلك ، التعبير عن شدة سخطه وحنقه على الغادرين ، فنراه يمتلأ صدره حنقاً وغيظاً على بني تميم ، الذين حرموه من فارسه قبل أن يمتع بما أوكل إليه وأناط به من مهام ، يقول :

رَزَيْتُكَ كَالْوَذِيلَةِ لَمْ تَمَتَّعْ بِهَا بَعْدَ الْوُجُودِ يَدُ الْعَدِيمِ
تَنَامُ وَتَتْرُكُ الْأَضْغَانَ يَقْطِي خَمَاشَاتُ الذَّوَابِلِ فِي تَمِيمِ^(٢)

من هنا نرى الشاعر يعلن عن عدته للشار بجيوش طباق الأرض تملأ الفجاج ، مشيراً في الوقت نفسه إلى وفائه لهذا الفارس ، بأن يبعث قصائد الرثاء عليه أزواجاً ووحدانا ، لتكون له سلوا بعد يأس ، كما يقول :

سَابَعْتُهُا عَلَيْكَ مُسَقَّاتٍ طَبَاقَ الْأَرْضِ أَطْلَعُهَا الْفَجَاجَا
مُسَالَاتِ الْأَغِيرَةِ مُلْجَمَاتٍ وَحَادَا أَوْ مَقَرَّنَةً زَوَاجَا
وَأَجَعْلُهَا سُلُوءًا بَعْدَ يَأْسٍ وَمِنَ الْمِصْدَى وَرَدَ الْأَجَاجَا^(٣)

وبيت القصيد في هذه المراثي هو أشجاها ، إذ صور الشاعر مشاعر حزنه وأساه لفقد داعيته ابن ليلى ، ففي قصيدته الميمية ، بين كيف تداعت له الهموم والمصائب ، مشبهاً نفسه ، بمتمم بن نويرة التميمي الذي كان مثالا للحزن في الأدب العربي حين فجع بأخيه الذي قتل في حروب الردة ، فتقطعت نفسه حشرات عليه ، يقول الرضي :

تَدَاعَتْ لِي بِمَصْرِعِهِ اللَّيَالِي وَأَوْعَبَتِ النَّوَائِبُ فِي أَدِيمِي
وَنَابَتْ رَأْسِي الْوَفَرَاتُ حَتَّى تَطَّاطَا ، حَنُوءَ الرَّجُلِ الْأَمِيمِ

(١) الديوان ٢ : ٦٢ . الوُسُوق : واحداً الوُسُوق وهي حمل الحمل .

(٢) الديوان ٢ : ٢٦٨ . الوَذِيلَةُ : القطعة من المعصية ، العدم : الفقر .

(٣) الديوان ١ : ٣٠٣ .

وَتَقَرَّنُ الْقَوَارِعُ فِي سِي جَنَائِي قِرَانُ النَّبْلِ فِي الْغَرَضِ الرَّجِيمِ
وَمَا لِي لَا أُرَاعُ ، وَقَدْ رَمْتَنِي يَدُ الْجُلَى بِقَارِعَةِ التَّيْمِي^(١)

فالشريف قد افتقد جندياً كان يرى به درب النور ، وكان مثلاً للوفاء غير هياب من

الردى ، فأين هو الآن ، لقد أصبح غصة في حلق الشريف بعد أن كان سياغاً :

أَيْنَ أَبُو الْعَوَّامِ لَتَعَوَّاصِي يَرُوضُهَا ، وَالْخَيْلُ وَالذَّلَاصِ
قَادَ ابْنَ لَيْلَى قَائِدَ الْمُعَاصِ كَانَ سِيَاحِي فَعَدَا اغْتَصَاصِي^(٢)

كان الشريف يبحث عن بطل يتقي به سبل الردى ، إلى أن وجد ابن ليلى موافقاً لهواه ،

فتمنى أن يكون فداءه :

كَانَ هَوًى لِلنَّفْسِ ، نَوًى لِنَفْسِي فِي حَلَقِ الْقَدِّ ، وَأَنْتَ الطَّلِيْقُ
مَا كُنْتُ بِالْهَائِبِ طُرُقَ الرَّدَى مَا سَلِمَ الْعَضْبُ ، وَأَنْتَ الرِّفِيقُ^(٣)

لكنه قبل أن ينجز شيئاً للشريف ، فكان هذا نذيراً له بالفشل ، ف شعر بالإحباط

وتراحت الهموم عليه فقال :

تَتَرَى بَعْدَ يَوْمِكَ كُلِّ خُطْبٍ كَأَنَّكَ كُنْتَ لِلْجُلَى رِبَاطُ^(٤)

وعندما أحس الشاعر بالفشل الفريع ، مال إلى اليأس من أن تترك الدنيا فارساً كابن ليلى ، فيضويه

الحزن ويلفه الأسى ، ويشكل ذلك لديه مخاوف لن ترحه ، فيقول :

أَرْجُو لِلْحَوَاضِ كَابِنِ نَيْلَى أَهْلَتْ إِذَا عَلَى بَضْنِ عَقِيمِ^(٥)

فركن الشريف إلى أحزانه وجنح إلى البكاء ، وسكب الدموع ، مبيناً أنه لا يستطيع أن

يمسك زمام نفسه ليدودها عن البكاء ، وكان عينه أصبحت جرحاً لا علاج له ، يفيض الدموع

بلا انقطاع ، وما أشبه هذا بقول أبي ذؤيب الهذلي :

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِقَاقِيَا سَمِلَتْ بِشَوْكِ فَنِي عَوْرٍ تَمَعُ^(٦)

^(١) الديوان ١٢ : ٢٦٩ . أوعت : أوجعت . الأدم : أدم . الأوب : أوبي . قارعة التيمي : مغبة التيمي .

^(٢) الديوان ١ : ٥٨٣ . الدلاص : جمع دلاص ، الأرض المستوية .

^(٣) الديوان ٢ : ٦٣ .

^(٤) الديوان ١ : ٦٠٢ . الخى : الأمور العظيمة .

^(٥) الديوان ٢ : ٢٧٠ .

^(٦) السكري - شرح أشعار الهذليين ١ : ٩ .

فقال الشريف :

أَدَارِي الْمُقْلَتَيْنِ عَنْ ابْنِ لَيْلَى وَيَأْبَى دَمْعُهَا إِلَّا لِحَاجَا
لَهَا تُبْطِ عَلَى الْأَيَّامِ بَاقٍ تَجِشُّ بِهِ مَعِينَا أَوْ أَجَا
كَأَنَّ بِهَا رَكِيَّةً مُسْتَمِيتٍ يُخْضِضُهَا بُكُورًا وَادْلَاجَا
أَذُودُ النَّفْسِ عَنْهُ وَذَاكَ مِنْهَا عِنَانٌ مَا مَلَكَتْ لَهُ مَعَا
تُجْمُ عَلَى الْقَذَى ، وَتَفِيضُ دَمْعَا مَطَالُ الدَّاءِ وَادْعُ ثُمَّ هَاجَا^(١)

وهكذا يعبر الشاعر بهذه المشاعر التي تنبع من قلب مشتعل بنار الحزن ، ويبالغ في

تصوير قوة شعوره بالفقد ، فاستعمل صورة أخرى من صور التعبير عن الحزن والأسى ،

وذلك حين يتصور نفسه في حلم ، وكان هذه البطولة التي كان يعتمد عليها لم تكن في يوم من

الأيام ، وفي هذا محاولة من الشاعر لأن يوقظ في نفوسنا تلك الذكريات الحارة العزيزة على

قلبه ، ليتمكن من وضعنا في جوه الحزين ، فيقول :

كَأَنَّكَ لَمْ تَقُدْ بِعَوِيرِضَاتٍ أَبَا الْعَوَامِ ، فِتْيَانَا قِطَاطَا
وَلَمْ تَحْمِلْ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهُمْ قَنَّا لَدُنَّا وَأَيْمَانَا سِبَاطَا
تُصِيبُ بِهَا فَوَاحِرُ كُلِّ ثَغْرِ كَأَنَّكَ تُرْسِلُ النُّبْلَ الْمَرَاطَا^(٢)

وهكذا فإن مراثي الشريف للأمراء العرب من بني حمدان وعقيل تعبر عن خسارة

الشاعر الكبيرة وضياح أماله ، " ويبدو أن الشاعر أدرك بتجربته السياسية أن هؤلاء القادة مواقع

تحد وامل لمواجهة الغزو الأجنبي الذي أناخ بكلكله على بغداد ، وباقي أقطار الخلافة " (٣) .

أمّا ابن ليلى فقد كان أمله الوحيد الذي يعول عليه في جمع القبائل العربية تحت راية

واحدة ، تناصر آل البيت ، وتناهض الخلافة العباسية وسلطة البويهيين لكنه قتل في بداية

(١) الديوان ١ : ٣٠٠-٣٠١ . الخط : الشغل ، المعوى : الماء العاص ، الأحاج : الماء المالح ، ركية : وعاء الماء ، المعاج : الأشياء ،

تجم : تكثر .

(٢) الديوان ١ : ٦٠٠-٦٠١ . رُحْمًا سِطًا : أمد سحبة ، القوطال : قوسار الشعر .

(٣) صدام عبد علي ، الإحساس بالهزيمة في شعر الشريف الرضي ، مجلة أدب المستنصرية عدد (٥) ، ٢٠٢ : ٢٠٣ .

الدعوة، مما أحدث إحباطاً نفسياً للرضي ، وقد أحس بالفشل ، فمال إلى الندب والبكاء ، تسلية للنفس بعد يأس شديد .

رثاء المجد الغابر :

فى ديوان الرضى قصيدتان فى رثاء الحيرة ، لكننا لا نستطيع وضع القصيدتين ضمن غرض رثاء المدن الذى كان مألوفاً فى هذا العصر ، حين كان يرثى الشاعر مدينته التى يعيش فيها ويبكيها إذا لعبت بها يد الدمار . فالشاعر هنا لا يرثى الحيرة ، بقدر ما يرثى الماضى العريق ، والملوك العرب الغر الذين يمثلون هذا الماضى ، من خلال ارتباطهم بالمكان ، إذ هو خير شاهد على شموخ حضارتهم إلى يوم الدين ، فالشاعر لديه جملة من الاعتبارات التى تشده لكتابة قصائد تخلد هذا المكان ، حتى يبقى حياً فى النفوس ، رغم اندثار مجده القديم .

فى القصيدة النونية يصور الشاعر ماضى الحيرة ، ومنازل النعمان بن المنذر ، متحدثاً عن طيب أرضها ، وشموخ رجالها الذين رفعوا قباباً تحكى قصة هذا الشموخ ، ويذكر الشاعر آل محرق ، مذكراً كرمهم وشجاعة فرسانهم وقبابهم العالية ، ودير هند المشهور فى الحيرة ، وكلها تشهد بفضلهم على الحضارة والتاريخ ، فهى طلوع عجماء إلا أنها عربية التبيان، الحظ فيها للعيون دون الأذان :

حَتَّى نَزَلْتُ مَنَازِلَ النُّعْمَانِ
شُمَّ الْعِمَادِ ، عَرِيضَةُ الْأَعْطَانِ
وَتَبَيَّنَ بِالْبَنِيَانِ فَضْلُ الْبَانِي
عَنْ مَنَاطِقِ ، عَرَبِيَّةِ التَّبْيَانِ
لَا حَظَّ فِيهَا الْيَوْمَ لِلْأَذَانِ
مَأْوَى الْقُرَى وَمَوَاقِدَ النَّيِّرَانِ
وَالضَّارِبِينَ مَعَاكِدَ النَّجَّانِ
الْمَكَامِينَ الضَّرَاءِ وَالْحِدْثَانِ

مَا زِلْتُ أَطَّرِقُ الْمَنَازِلَ بِالنَّوَى
بِالْحِيرَةِ الْبَيْضَاءِ حَيْثُ تَقَابَلَتْ
شَهَدَتْ بِفَضْلِ الرَّافِعِينَ قِبَابَهَا
وَرَأَيْتُ عَجْمَاءَ الطُّلُولِ مِنَ الْبَلَى
بَاقٍ بِهَا حَظُّ الْعُيُونِ ، وَإِنَّمَا
وَعَرَفْتُ بَيْنَ بُيُوتِ آلِ مُحَرَّقِ
الْهَاجِمِينَ عَلَى الْمُلُوكِ قِبَائِهِمْ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَدِيرَ هِنْدٍ مَنَزِلًا

أَغْضَى كَمُسْتَمِعِ الْهَوَانِ تَغَيَّبَتْ أَنْصَارُهُ . وَخَلَا مِنَ الْأَعْوَانِ^(١)

فالشاعر يستغل وقوفه بتلك الآثار ليعرض لنا حزنه ويتخذ من تذكر آل النعمان منطلقاً

لذلك ، ثم يصف مقاصر الغزلان التي غيرها البلى ، وملاعب الإنس التي غدت ملاعب الجن

بعد أن منحها الفرات ماءه العذب الرقراق ، فحباها بنعمة الحياة . يقف الشاعر مسائلاً الحيرة

عن هذا الماضي المجيد ، بنبرة ملؤها الأسى فتجيبه عبر بغير لسان ، وقد وقف يأخذ العبرة من

أناس شامخين ، ركبوا المجد ربحاً من الزمن ، ثم فرقتهم المنية مكرمين ، لا أذلاء صاغرين ،

يقول :

أَمَقَاصِرِ الْغَزْلَانِ غَيْرَكَ الْبَلَى	حَتَّى غَدَوْتَ مَرَابِضَ الْغَزْلَانِ
وَمَلَاعِبِ الْإِنْسِ الْجَمِيعِ طَوَى الرَّدَى	مِنْهُمْ ، فَصُرْتَ مَلَاعِبَ الْجِنَانِ
يَطَا الْفُرَاتُ فَنَاءً هَذَا بِعُجَابِهِ	وَلَيْتَ السَّلَافَةَ مِنْهُ وَالزُّوْقَانَ
وَوَقَفْتُ أَسْأَلُ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضِهَا	وَتُجِيبُنِي بِعَرٍّ بِغَيْرِ لِسَانِ
قَدَحْتُ زَفِيرِي فَأَعْتَصَرْتُ مَدَامِعِي	لَوْ لَمْ يُولَ جَزَعِي إِلَى السُّلُوفَانِ ^(٢)

وفي ختام القصيدة يعزي الشاعر نفسه بموت هؤلاء الملوك العرب الشامخين الذين يفخر

بمجدهم ، مبرزاً قوميته العربية من خلال التأسى بالماضيين من آل النعمان بن المنذر ، فلا عزاً

في الحياة يدوم ، فصروف الدهر وعواديها لا تبقى شيئاً على حال ، فقد طرد الدهر الملوك من

جذيمة والمنذرين ، وآل جفنة ، وابن ذي يزن ، الذين كانوا قد تسنموا غرة التاريخ ربحاً من

الزمن^(٣) . وقد رأينا كثرة هذه الأمثلة في شعر الرضي فالشاعر يعتمد في تأسيه دائماً انتقاء

نماذج كانت أكثر منعة وعزاً في حياتها ، مبيناً أن هذه العزة وتلك المنعة لم تغن عنها شيئاً في

رد المنية حين جاء مواعدها .

^(١) الديوان ٢ : ٤٠٠ - ٤٠١ .

^(٢) الديوان ٢ : ٤٠١ - ٤٠٢ .

^(٣) الديوان ٢ : ٤٠٢ - ٤٠٣ .

وفي القصيدة الرائية وقف الشاعر على بوابة الماضي متسائلاً عن آل المنذر الذين بنوا وأعلوا ،
وأجروا الأنهار ، وأكرموا الضيوف وأوقدوا نار القرى التي ما انطفأت أبداً ، إذ كلما تضاعل
ضوؤها أمدوها بالحطب ليراهما الضيف فيستأنس بها ويشتم رائحة عيدانها الطيبة من بعيد ،
يقول :

أَيْنَ بَانُوكِ أَيُّهَا الْحَيْرَةُ الْبَيْهُ — ضَاءُ ، وَالْمُوطِئُونَ مِنْكَ الدِّيَارَا
وَالْأَلَى شَقَقُوا ثَرَاكَ مِنَ الْعُشْ — بَرٍ ، وَأَجَرُوا خِلَاكَ الْأَنْهَارَا
الْمُهَيَّبُونَ بِالضُّيُوفِ إِذَا هَبَّ — تٌ شِمَالَا وَالْمُوقِدُونَ النَّارَا
كَلَّمَا بَاخَ ضَوْوُهَا أَقْضَمُوهَا — بِالْقُبَيَّاتِ مَنَدِلِيَا وَغَارَا^(١)

وكل ذلك جرى تحت مسحة من الأمن والاستقرار الذي وطنه آل المنذر بجيادهم
وعسكرهم ، حتى غدت الحيرة موئلاً للقاصي والداني ، كيف لا وهي كحدود العذارى ، على
حدّ هذا التشبيه الرائع ، الذي ينم للوهلة الأولى ، عن مدى الازدهار والنمو والعمران ، مضافاً
إليه الأمن والأطمئنان وراحة البال ، يقول :

رَبَطُوا حَوْلَكَ الْجِيَادَ وَخَطُّوا — لَكَ مِنْ مَرْكَزِ الْعَوَالِي عِذَارَا
وَحَمَّوْا أَرْضَكَ الْحَوَافِرَ حَتَّى — لَقَبُوا أَرْضَهَا خُدُودَ الْعَذَارَى^(٢)

لكن ذلك كله لا يدوم ، فهي الآن ليست إلا عبراً واستعاراً ، وبقايا طول ، ما زالت
عبقة الثرى ، كأنها مضمخة بالمسك ، وهكذا الحياة ، فمن منارات تحاكي قبابها بروج السماء ،
علوا وشموخاً مدللة على مجد العرب الذين تحدوا دولة فارس ، إلى أطلال دارسة تحكي
لشاعرنا قصة مجدها مع هؤلاء العرب الأشاوس ، يقول :

لَمْ يَدَعْ مِنْكَ حَادِثُ الدَّهْرِ إِلَّا — عِبْرًا لِلْعُيُونِ وَاسْتِعْبَارَا
وَبَقَايَا مِنْ دَارِسَاتِ طُلُولِ — خَبَرْتَنَا عَنْ أَهْلِهَا الْأَخْبَارَا
عَبَقَاتِ الثَّرَى كَانَ عَلَيْهَا — لَطِمِينَ يَنْفُضُونَ الْعِطَارَا
وَقِبَابٍ كَانَمَا رَفَعُوا مِنْ — هَا لِمُسْتَرْشِدِ الظَّلَامِ مَنَارَا

(١) الديوان ١ : ٥٣٥ . باخ ضوؤها : فخر وحف . أقضموها : أضموها ، القبيات : مواضع ، المدل : عود طيب الرائحة وكذلك الغار .

(٢) الديوان ١ : ٥٣٥ .

عَقَدُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ نَجْمِ لَيْلٍ — أَفَقٍ مِنْ سَالِفِ اللَّيَالِي جَوَارَا
 حَبَا أَمَّاكَ الْمُحَلِّسُونَ أَمَّا — يَوْمَ بَانُوا ، وَحَبَا الدَّارُ دَارَا
 لَمْ يَكُونُوا إِلَّا كَرَكَبٍ تَأَنَّى — بَرَهَةً فِي مُدَاخِجِهِ ثُمَّ سَارَا^(١)

وهكذا الشاعر يحوِّك هاتين القصيدتين لينشد أنشودة عشق أبدية مرتبطة بالمكان الأصل، والإنسان الباني، هذا الإنسان الذي رفض الخضوع لحكم الفرس. وكان الشاعر باستحضاره الحيرة هنا، يعبر بأسلوب خفي، عن رفضه الحكم البويهي، مخلداً هذا المكان ومن بنوه من آل المنذر، وهو في الوقت نفسه حين يتأمل هذه الأطلال وما أحدث الدهر فيها من خراب فإنه يتأمل الحياة التي تنبئ ولا تستمر على حال.

(١) الديوان ١ : ٥٣٥ ، انظمون : ما عرفت.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

- بناء القصيدة .
- الموسيقى .
- الصورة الشعرية .
- اللغة والمعجم الشعري .

بناء القصيدة :

١. المطلع والتخلص والخاتمة :

أولى النقاد القدماء بناء القصيدة العربية اهتماماً بالغاً ، من حيث المطلع وحسن التخلص والخاتمة .

أمّا المطلع فإن الاهتمام بمطلع أي عمل أدبي من الأمور التي حظيت بعناية القدماء^(١) ، بل إن الاهتمام بمطلع أي عمل ، سواء كان أدبياً ، أم غير أدبي ، من الأمور التي تلفت انتباه الناس ، وتدفعهم إلى إبداء إعجابهم واهتمامهم . أو إلى إبداء رفضهم ونفورهم من هذا المطلع ، وما يتصل به ، ولا مرأه في أن هذه طبيعة إنسانية غرسها الله في بني البشر ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم .

فإذا كان هذا هو الشأن في أي عمل ، فإنه بالشعر ألصق وإليه أقرب ، إذ يهدف الشاعر إلى إحداث أكبر قدر من الأثر في نفس المتلقي ، ولذلك كان الإبداع في مطلع القصيدة ، أحد أهم الوسائل التي يستخدمها الشاعر لإحداث هذا الأثر المنشود . ومن هنا اهتم الشعراء بإجادة مضامعهم ، واتجهت أنظار النقاد نحوهم ، فصنفوا المضامع بين جيد وورديء ، بناء على معايير عديدة ، وعلّوا ذلك بأن هذه المضامع ، هي ' أول ما يشرق السمع من الكلال '^(٢) ، ولذلك عدوا الشعر قفلاً أوله مفتاحه ، ويشيغي للشاعر أن يجوده^(٣) . ومن المعايير التي اتخذها النقاد عند وقوفهم على المضامع : أن يكون المطلع مرتبطاً بالمعنى الذي تتضمنه القصيدة ، مشعراً بالغرض الذي يزعم الشاعر أن يخوض فيه ، يقول ابن حجة الحموي : "قائهم - أي المتأخرين - شرطوا في براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه ، مشعراً بغرض

^(١) يوسف كمار - هـ القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ٢٠٣ .

^(٢) ابن الأثير - من أسرار أدب الكتاب والشاعر ، تحليل محمد علي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٩٠ .

٢ : ٢٢٤ ، دوايد القيرواني - معمد ١ : ٢١٨ ، دوايد حجة - حراة الأدب وحاية الأرب ، شرح عصام شعير ، دار ومكتبة الهلال ،

بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩١ ، ٢١ : ٢١ ، والعسكري - الصاعق ٤٣٧ .

^(٣) القيرواني - معمد ١ : ٢١٨ .

الناظم من غير تصريح ، بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم ، ويستدل بها على قصده ، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة ، أو مدح أو هجو ^(١) .

ومن المعايير الأخرى في المطلع : اتخاذ القصيدة الجاهلية مثالا وأنموذجا ، وأن يكون المطلع بعيدا عن التعقيد ، وأن يكون نادرا انفرد الشاعر باختراعه ، وأن يكون خاليا من المآخذ النحوية ، وأن تراعى فيه جودة اللفظ والمعنى معا ، وألا يكون باردا ^(٢) ، وأن يكون تام الموسيقى بالتصريح ، حيث عده النقاد " ضرورة لازمة في بناء القصيدة ، لأنه مذهب الشعراء المطبوعين المجيدين " ^(٣) .

وإذا كان من شروط المطلع الحسن ، أن يكون مرتبطا بالموضوع ، فلا بد أن تكون مطالع المراثي لذلك مشتملة على البكاء ، ووصف إقفار الديار ، وتشتت الألاف ، ونعي الشباب ، وذم الزمان ^(٤) .

وقبل أن نرى مدى تمثل هذه المعايير في مطالع الشريف الرضي الرثائية ، أثرت أن أترك مطالع المقطوعات ، لأنه لا يوجد في المقطوعة عناصر بناء القصيدة كما عرفها القدماء ، ولأن جميع مطالع المقطوعات غير مصرعة إلا واحدة . وإذا بقي لدينا ثنتان وسبعون قصيدة ، فإننا إن أخذنا بمعيار أن يكون المطلع تام الموسيقى بالتصريح ، نخرج أيضا من دراستنا إحدى وعشرين قصيدة غير مصرعة المطالع ، وثلاث أراجيز ، فنبقى ثمان وأربعون قصيدة مصرعة المطالع ، وهي في معظمها متفقة مع ما ذهب إليه النقاد من إشعار بمضمون القصيدة . ففي قصيدته (كربلا) ، بدأ الشاعر مطلع هذه القصيدة الطويلة ، بمخاطبة أرض "كربلا" ، وهو مطلع

(١) ابن حجة - حزانة الأدب ١ : ٣٠ ، وانظر القرطاجي - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تعلّم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ٣ ، ١٩٨٦ ، ٣٠٥ ، ويوسف بكار - بناء القصيدة ٢٠٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه ٢٠٤-٢١١ .

(٣) عناد غزوان ، بناء القصيدة عند الشريف الرضي - دراسات في ذكراه الألفية ٢٠٨ .

(٤) انظر العلوي - عيار الشعر ١٢٦ ، والعسكري - الصناعتين ٤٣١ ، والقرطاجي - منهاج البلغاء ٣٠٩-٣١٠ .

يشي بحادثة قتل الحسين بن علي في هذا المكان ، فقال الشاعر وقد خلع على هذا المكان اسماً
يتناسب وأحزانه :

كُرْبَلَا لَا زِلْتِ كُرْبَلَا وَبَلَا مَا لَقِيَ عِنْدَكَ أَلُ الْمُصْطَفَى ^(١)

لذا يكثر الشاعر في هذه المطالع ، من الحديث عن البكاء وجود العيون بالدموع ، كقوله

يرثي أبا الفتح بن الخليفة الطائع :

أَيُّ الْعُيُونِ تُجَانِبُ الْأَقْضَاءَ أَمْ أَيُّ قُلُوبٍ يَقْطَعُ الْبَرْحَاءَ ^(٢)

وقوله يرثي أبا منصور المرزباني الكاتب :

أَيُّ دُمُوعٍ عَلَيْكَ لَمْ تَصُبْ وَأَيُّ قُلُوبٍ عَلَيْكَ لَمْ يَجِيبْ ^(٣)

وقوله يرثي صديقاً له :

أَلُوِي حَيَازِيمِي عَلَيْكَ تَحْرُقَا وَأَشْكُو قُصُورَ الدَّمْعِ فِيكَ وَمَا رَقَا ^(٤)

ومن المعاني التي تدور في مطالعه أيضاً الحديث عن الموت وقوته ، والدهر وسطوته

وتقلباته، والدنيا واختلاف الأحوال ، ومنه قوله يرثي صاحب بن عباد :

أَكْذَا الْمَنُونُ تَقْنَطِرُ الْأَبْطَالَ أَكْذَا الزَّمَانُ يَضَعُضِعُ الْأَجْيَالَ ^(٥)

وقوله يرثي تقيّة بنت سيف الدولة الحمداني :

نَغَالِبُ ثُمَّ تَغْلِبُنَا اللَّيَالِي وَكَمْ يَبْقَى الرَّمْيُ عَلَى النَّبَالِ ^(٦)

وقوله يرثي صديقه المظفر أبا الحسن عبيد الله بن محمد :

أَوَمَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ أَفَلَا تَسِيءُ الظَّنَّ بِالْعُمَرِ ^(٧)

وقوله يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني :

(١) الديوان : ١ : ٩٣ .

(٢) الديوان : ١ : ٦٨ .

(٣) الديوان : ١ : ٢١٧ .

(٤) الديوان : ٢ : ٦٤ .

(٥) الديوان : ٢ : ١٧٥ .

(٦) الديوان : ٢ : ١٨٤ .

(٧) الديوان : ١ : ٥٢٢ .

تَقُوزُ بِنَا الْمَنُونُ وَتَسْتَرِيدُ وَيَأْخُذُنَا الزَّمَانُ وَلَا يَسْرُدُ^(١)

وَيَصُورُ الشَّريفُ الرُّضِيَّ فِي بَعْضِ مَطَالَعِهِ حَزَنَهُ وَأَرْقَهُ ، وَمَا فَعَلَهُ بِهِ فِرَاقُ أَحِبَّائِهِ ،
كَمَا وَصَفَ عَظَمَ الْمَصِيبَةِ ، وَفِدَاحَةَ الْخُطْبِ بِوَفَاةِ الْمَرثِيِّ ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الَّتِي
يَرِثِي فِيهَا عَمَّهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ :

سَلَا ظَاهِرُ الْأَنْفَاسِ عَنْ بَاطِنِ الْوَجْدِ فَإِنَّ الَّذِي أَخْفَى نَظِيرُ الَّذِي أَبْدَى^(٢)

وَقَوْلُهُ يَرِثِي ابْنَ جَنِي :

أَلَا يَا قَوْمِي لِلْخُضُوبِ الصُّوَارِقِ وَلِلْعِظْمِ يَرْمَى كُلُّ يَوْمٍ بَعَارِقِ^(٣)

وَقَوْلُهُ يَرِثِي الْخَلِيفَةَ الطَّائِعَ :

مَا بَعْدَ يَوْمِكَ مَا يُسْنُو بِهِ السَّالِي وَمِثْرَ يَوْمِكَ نَحْمُ يَخْضُرُ عَلَى بَائِي^(٤)

وَعَلَى شَاكِلَةٍ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، دَعَا الشَّريفُ الرُّضِيَّ فِي بَعْضِ مَطَالَعِهِ لِقَبْرِ الْمَرثِيِّ

بِالسَّقِيَا ، وَمِنْ ذَلِكَ مَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ الَّتِي يَرِثِي بِهَا الطَّائِعَ :

أَتَرَى السَّحَابَ إِذَا سَرَتْ عُسْرَاؤُهُ يَمْرَى عَلَى قَبْرِ بِيَابِلِ مَاؤُهُ^(٥)

وَقَوْلُهُ يَرِثِي أَبَاهُ :

وَسَمَّتْكَ حَالِيَةَ الرَّبِيعِ الْمُرْهِمِ وَسَقَّتْكَ سَاقِيَةُ الْغَمَامِ الْمُرْزِمِ^(٦)

وَمِمَّا يَلَاحِظُ فِي مَطَالَعِ الشَّريفِ الرُّضِيَّ ظُهُورُ الْمَعَانِي الْإِسْلَامِيَّةِ فِيهَا ، مِثْلَ الْحَدِيثِ

عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فِي قَوْلِهِ يَعْزِي بِهَاءِ الدَّوْلَةِ عَنْ وَلَدِهِ أَبِي مَنْصُورٍ بُوَيْهَ :

كَانَ قَضَاءُ الْإِلَهِ مَكْتُوبًا نَوْلَاكَ كَانَ الْعَزَاءُ مَعْنُوبًا^(٧)

وَقَوْلُهُ يَرِثِي الصَّاحِبَ عَمِيدَ الْجِيُوشِ أَبَا عَلِيٍّ :

كَذَا يَهْجُمُ الْقَرُّ الْغَالِبُ وَلَا يَمْنَعُ الْبَابُ وَالْحَاجِبُ^(٨)

(١) الديوان ١ : ٤١٣ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢١ .

(٣) الديوان ٢ : ٥٨ .

(٤) الديوان ٢ : ١٨٧ .

(٥) الديوان ١ : ٧٨ .

(٦) الديوان ٢ : ٢٤٥ .

(٧) الديوان ١ : ١٩٨ .

(٨) الديوان ١ : ٢٠١ .

وقد تمنى في بعض مطالعه ردع القضاء والمقاتلة دون مرثية لو يستطيع إلى ذلك

سبيلاً، كما يقول في رثاء عبد العزيز بن يوسف الحكار :

لَوْ كَانَ يَرْتَدِعُ الْقَضَاءُ بِمَرَدَعٍ أَوْ كُنْتُ بِمُدْجٍ وَمَقْتَعٍ^(١)

وقد تأتى الحكمة في بعض مطالعه متأثرة بالمعاني الإسلامية ، من قوله يعزي صديقاً

عن بنت له توفيت عقب أخرى :

نَخْطُو وَمَا خَطُّنَا إِلَّا إِلَى الْأَجَلِ وَتَقْضِي وَكَانَ الْعُمُرُ لَمْ يَطُلْ^(٢)

وقوله يرثي بنت صديق له :

عَجَزْنَا عَنْ مُرَاغَمَةِ الْحِمَامِ وَدَاءُ الْمَوْتِ مُغَرِّى بِالْأَنَامِ^(٣)

ولا نستطيع أن نجزم بأن الشريف الرضى قد اخترع مطالع معينة ، ولكن نقول : إن له

مطالع استطاع فيها أن يشعرنا بشيء من التجديد والإبداع ، وربما كان بعضها مبتكراً ، استطاع

الرضي استحداث معانيه وصوره ، ومن هذا فيما أرى ، قوله في رثاء الشريف علي بن الحسين

الزينبي :

مَنْ أَيُّ الشَّيْءِ طَالَعَتَا النَّوَابِ وَأَيُّ حِمَى مَدَا رَعَّاهُ الْمَصَائِبُ^(٤)

وقوله :

أُودِعَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حَبِيبًا وَأُهْدِي إِلَى الْأَرْضِ شَخْصًا غَرِيبًا^(٥)

وقوله يرثي بعض الناس :

قِفْ مَوْقِفَ الشُّكِّ لَا يَأْسُ وَلَا ضَمْعُ وَغَالِطِ الْعَيْشِ لَا صَبْرٌ وَلَا جَزَعُ^(٦)

وقوله يرثي الخليفة الطائع :

أَيُّ طَوْدٍ ذَكَ مِنْ أَيِّ جِبَالٍ لَقِحَتْ أَرْضٌ بِهِ بَعْدَ حِيَالٍ^(٧)

(١) الديوان : ١ : ٦٣٦ .

(٢) الديوان : ٢ : ١٨٨ .

(٣) الديوان : ٢ : ٣٣٠ .

(٤) الديوان : ١ : ٢٠٥ .

(٥) الديوان : ١ : ٢٣١ .

(٦) الديوان : ١ : ٦٤٩ .

(٧) الديوان : ٢ : ١٧١ .

وزاد من جمال المطالع في مرثي الرضي ، استخداه أساليب النداء والاستفهام والتعجب ، لأثرها في نفوس السامعين ، حيث " يقرع السمع شيء غريب ليس بمثلته عادة ، ليكون سبباً للتطلع نحو الإصغاء إليه " (١) ، ومن أمثلة ذلك قوله يعزي الوزير أبا علي الحسن ابن أحمد عن ولد له :

مَا أَسْرَعَ الْأَيَّامُ فِيَّ طِينًا تَمْضِي عَلَيْنَا ثُمَّ تَمْضِي بِنَا (٢)
وقوله يرثي أبا حسان المقلد بن المسيب :
أَعَامِرُ ! لَا لِلْيَوْمِ أَنْتَ وَلَا الْغَدِ تَقْلُدُ ذُلَّ الدَّهْرِ بَعْدَ الْمَقْلَدِ (٣)

أما الاستفهام ، فأمثلة ذلك كثيرة ، وقد ورد في المطالع السابقة التي تمثّلنا بها . وحتى لا نكون قد حفنا في حكمنا على بقية قصائده غير المصروعة المطالع ، نقول : إن ما ذكرناه عن القصائد السابقة ، ينطبق عليها في الغالب ، وهي في معظمها تعبر عن نفسية الشاعر مع تعبيرها عن الجو العام للقصيدة .

واشترط النقاد بالإضافة إلى حسن الافتتاح في المطلع ، لطف الخروج وحسن التخلص ، وهو " عبارة عن أن ينتقل المتكلم مما ابتدأ به الكلام من غزل أو نسيب أو فخر أو وصف أو غير ذلك ، إلى المقصود على وجه سهل ، برابطة ملائمة ، وجهة جامعة مقبولة ، يختلص به المقصود اختلاصاً رقيقاً ، بحيث لا يفتن السامع للانتقال من المعنى الأول ، إلا وقد رسخت ألفاظ المعنى الثاني في السمع . وقر معناه في القلب ، لشدة الالتئام بينهما " (٤) . واهتمام النقاد العرب بحسن التخلص ، نابع من حرصهم على وحدة القصيدة وتلاحم أجزائها ، لذلك دعا حازم

(١) ابن الأثير - الشئ المسائر ٢ : ٢٢٤ ، والفرطحي - مباح المعاد ٣١٠ .

(٢) الديوان ٢ : ٤١٧ .

(٣) الديوان ١ : ٤١٤ .

(٤) ابن معصوم - أوزار الربع في أنواع السبع ، تحقيق شاكر هادي شكر ، مطبعة العمال ، الحف ، العراق ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ١٢ : ٢٤٠ .
والنظر الفيرواني - العمدة ١ : ٢٣٦-٢٣٧ ، وابن الأثير - الشئ المسائر ٢ : ٢٤٤ ، وابن حجة - حركات الأدب ١ : ٣٢٩ .

القرطاجني إلى أن يتحرر الشاعر في التخلص من " انقطاع الكلام ، ومن التضمين والحشو والإخلال ، واضطراب الكلام ، وقلة تمكن القافية " (١) .

يمكن القول إذن إن حسن التخلص عامل ربط ذهني وموضوعي بين أجزاء القصيدة ، لأنه ينتقل بذهن السامع أو القارئ من معنى إلى آخر ، دون الشعور بانقطاع ، أو اختلاف في سياق المعنى ، فيغدو تنوع المعاني نمطاً من إثراء معرض القصيدة ، القائم على الانسجام والوحدة (٢) .

والناظر في شعر الشريف الرضي يرى ' قدرته الفائقة في حسن التخلص أو الانتقال من المقدمة إلى الغرض الثاني ، كأن يكون مدحاً ، أو رثاءً ، أو عتاباً ، أو شكوى من الزمان ، أو فخراً ' (٣) ، وقد بدا حسن التخلص في كثير من مرثي الرضي ، وخاصة في قصائد العزاء ، حيث تخلص الشاعر من البكاء على المراثي والإشادة به ، إلى الإشادة بذويه ، وحثهم على الصبر والسلوان ، وبدا هذا التخلص في القصائد التي بدأت بمقدمات غزلية ، إلا أن الشاعر لم يكثر من هذه المقدمات ، لأنها لا تتناسب مع الرثاء ، وهذا ما كان عليه معظم شعراء العربية ، حيث يقول ابن رشيق القيرواني ' وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسبياً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء ' (٤) ، فوردت هذه المقدمة الغزلية في ثلاث من مرثي الرضي ، اثنتان منها في رثاء الحسين بن علي (٥) ، والثالثة في رثاء قوم من عشيرته (٦) ، ولعل هذه المقدمة جاءت بتأثير التصوف ، حيث يجعل الشاعر محبوبته رمزا للحبه لآل البيت الكرام وأهله

(١) القرطاجي - مباح السعاء ٣٢١ .

(٢) شعر عبد الصفي عسراء - شعر الشريف الرضي ومصفاته الفكرية ٣٣٩ .

(٣) عسراء عسراء - ساء القصيدة عند الشريف الرضي - دراسات في ذكراه العلمية ٢٢٠ .

(٤) القيرواني - العمدة ١٥١ : ٢ ، وانظر حسين عطوان - مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني : دار احبيش ، بيروت ، لبنان ،

ط ١ ، ١٤٨٢ ، ٣٨٠ .

(٥) الديوان ١ : ٤١٧ - ٤١٠ ، ٤١٠ - ٤١٢ .

(٦) الديوان ١ : ٥٢٩ - ٥٣٣ .

وعشيرته الذين هم من أهل البيت كذلك . ومن أمثلة هذه القصائد ، قوله في رثاء الحسين بن

على ، حيث افتتح هذه القصيدة بخمسة عشر بيتاً في النسب بدأها بقوله :

هَذِي الْمَنَازِلُ بِالْغَمِيمِ فَتَادِهَهَا وَاسْكُبْ سَخِيَّ الْعَيْنِ بَعْدَ جَمَادِهَا
إِنْ كَانَ دَيْنٌ لِلْمَعَالِمِ فَأَقْضِيهِ أَوْ مَهْجَةً عِنْدَ الطُّلُولِ فَفَادِهَا
يَا هَلْ تَبْلُ مِنْ الْغَلِيلِ إِلَيْهِمْ إِشْرَافَةً لِلرَّكْبِ فَوْقَ نِجَادِهَا

ويسير على هذا السنن من النسب حتى يصل إلى قوله :

كَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ النَّوَاطِرِ بَعْدَكُمْ شَيْئاً سِوَى عِبْرَاتِهَا وَسُهَادِهَا
لَمْ يَبْقَ دُخْرٌ لِلْمَدَامِيعِ عَنْكُمْ كَلَّا ، وَلَا عَيْنٌ جَرَى لِرُقَادِهَا

ثم يتخلص تخلصاً رقيقاً إلى قوله :

شَغَلَ الدَّمُوعَ عَنِ الدِّيَارِ بُكَائُنَا لُبْكَاءَ ، فَاطِمَةَ عَلَى أَوْلَادِهَا
لَمْ يَخْلُفُوها فِي الشَّهِيدِ وَقَدْ رَأَى دَفَعَ الْفُرَاتِ يَدَادُ عَنْ أَوْلَادِهَا^(١)

ومن أمثلة التخلص إلى العزاء ، ما ورد في قصيدته التي يرثي فيها عمه ، ويعزي عنه

أباه ، حيث يبدوها بتصوير مدى حزنه على فقد عمه ، والحديث عن البكاء والدموع والزفرات ،

يقول :

سَلَا ظَاهِرَ الْأَنْفَاسِ عَنْ بَاطِنِ الْوَجْدِ فَإِنَّ الَّذِي أَخْفَى نَظِيرُ الَّذِي أَبْدَى
زَفِيرًا تَهَادَاهُ الْجَوَانِحُ كُلُّهَا تَمَطَّى بِقَلْبِي ضَاقَ عَنْ مَرِّهِ جِلْدِي
وَكَيْفَ يَرُدُّ الدَّمْعُ يَا عَيْنُ بَعْدَ مَا تَعَسَّفَ أَجْفَانِي وَجَارَ عَلَى خَدِّي

حتى يتخلص في البيت الثامن والعشرين بقوله :

عَزَاءُكَ فَالْأَيَّامُ أَسَدٌ مُذَلَّةٌ تَعْطُ الْفَتَى عَطَّ الْمَقَارِيطِ لِلْبُرْدِ^(٢)

(١) الديوان : ٤٠٧ : ٤٠٨ .

(٢) الديوان : ٤٢١ : ٤٢٣ .

ومثها أيضا قصيدته في رثاء أبي شجاع بكر بن أبي الفوارس ، ويعزي عنه الوزير أبا
علي الحسن بن أحمد ومطلعها :

أَلَا مَنْ يُضِرُّ السَّنَةَ الْجَمَادَا وَمَنْ لِيَجْمَعَ يَطْرَعَهُ النَّجَادَا

حيث يبين في هذه المقدمة صفات المرثي ، ويستتكر أن يستطيع أحد أن يحل محله ، أو
أن يحمل حمله ، حتى يتخلص إلى قوله :

تَعَزَّى أَبَا عَلِيٍّ إِنْ خَطْبَا عَلَى الْعِلَاقِ يَنْفَعُ مَا أَرَادَا
هُوَ الْقَدَرُ الَّذِي خَبَضَتْ يَدَاهُ ثَمُودًا ، مِنْ مَعْرِقَتِهَا ، وَعَادَا^(١)

ومن أحسن قصائد الشريف تخلصا ، قصيدته التي جمع فيها بين التعزية والتهنئة ،
وكتب بها إلى أبي شجاع بن بهاء الدولة ، وقد عقد له الأمر بعد وفاة أبيه بدأها بقوله :

تَمْضِي الْعِلَا وَإِلَى ذُرَاكُمْ تَرْجِعُ شَمْسُ تَغِيبُ لَكُمْ وَأُخْرَى تَطْلُعُ

ومضى في الرثاء والتعزية في اثني عشر بيتا ، ثم تخلص تخلصا رائعا ولطيفا إلى
المدح والتهنئة ، فقال :

مَا كَانَتْ الْعُلَيَّا بَعْدَ مَصَابِيهَا لَوْلَاهُ بِالْبُلِّ الْمَجْدُ نَقَعَ^(٢)

وقد أخفق الشريف الرضي في بعض تخلصاته ، حيث وقع في الاقتضاب ، وهو " أن
يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ، ويستأنف كلاما آخر من مديح ، أو هجاء ، أو غير ذلك ،
ولا يكون للثاني علاقة بالأول " ^(٣) .

ومن أمثله ما جاء في قصيدته غير المصرعة التي يرثي بها الحسين بن علي ومطلعها :

صَاحَتْ بِذَوْدِي بَغْدَادُ فَاسْنِيسِي تَقَلَّبِي فِي ضُجُورِ الْخَيْلِ وَالْعِيرِ
وَكَلِمًا هَجَّجَتْ بِي عَنْ مَنَارِلِنَا عَارِضَتُهَا بِجَنَانٍ غَيْرِ مَذْعُورِ

(١) الديوان : ١ : ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢) الديوان : ١ : ٦١٢ - ٦١٣ .

(٣) ابن الأثير - الملل السائر : ٢ : ٢٤٤ . وانظر ابن حجة - حرة الأدب : ١ : ٣٣١ .

وَيَمْضِي هَكَذَا ، فِي مَقْدَمَةٍ يَصِفُ فِيهَا ارْتِحَالَهُ عَنْ بَغْدَاد ، وَهِيَ مَقْدَمَةٌ يَفْتَخِرُ فِيهَا

بِنَفْسِهِ ، وَيُظْهِرُ جَلْدَهُ وَقُوَّتَهُ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى قَوْلِهِ :

وَرُبَّ قَائِلَةٍ وَالْهَمُّ يَحْفَنِي
حَفْضٌ عَلَيْكَ فَلِلْأَحْزَانِ أَوْنَةٌ
فَقُلْتُ هِيَئَاتِ فَاتِ السَّمْعِ لَائِمَةٌ
بِنَظَرٍ مِنْ نِطَافِ الدَّمْعِ مَمْطُورٍ
وَمَا الْمُقِيمُ عَلَى حُزْنٍ بِمَعْدُورٍ
لَا يَفْهَمُ الْحُزْنَ إِلَّا يَوْمَ عَاشُورٍ

فَوَقَعَ فِي الْاِقْتِضَابِ حِينَ انْتَقَلَ إِلَى هَذَا الْخُطَابِ لِلْمَرْأَةِ وَالْحَدِيثِ عَنْ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ بَيْنَمَا

كَانَ يَتَحَدَّثُ فِي الْأَبْيَاتِ السَّتَّةِ الْأُولَى عَنْ رِحْلَتِهِ وَيَفْتَخِرُ بِقُوَّتِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ خُطَابِ الْمَرْأَةِ هَذَا يَنْتَقِلُ

إِلَى رِثَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ :

يَوْمَ حَدَا الظُّعُنُ فِيهِ لِابْنِ فَاطِمَةَ
سِنَانُ مُطَرِّدِ الْكُعْبَيْنِ مُطْرُورٍ^(١)

وَهَكَذَا فَإِنَّ التَّخْلُصَ يَعِدُ مِنْ أَبْرَزِ سِمَاتِ قِصَائِدِهِ ، بَلْ لَعَلَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ الشُّعْرَاءِ تَمِيزًا

فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنْ بِنَاءِ الْقَصِيدَةِ ، بِحَيْثُ يَسْهَمُ التَّخْلُصُ لَدَيْهِ فِي جَعْلِ الْقَصِيدَةِ مِتْلَاحِمَةً الْأَجْزَاءِ ،

ذَاتِ قُوَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ ، تَتَجَهُّ إِلَى الْغَايَةِ نَفْسَهَا وَهِيَ غَرَضُ الْقَصِيدَةِ وَمَوْضُوعُهَا .

أَمَّا الْخَاتِمَةُ ، فَقَدْ اِهْتَمَّ النُّقَادُ بِهَا ، لِأَنَّهَا " قَاعِدَةُ الْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي الْأَسْمَاعِ " ^(٢) ،

فَيَكُونُ عَالِقًا بِالذَّهْنِ " وَرَبَّمَا حَفِظَ دُونَ سَائِرِ الْكَلَامِ " ^(٣) ، وَلِأَنَّهُ مَنَقُطَعُ الْكَلَامِ وَخَاتِمَتُهُ ، " فَإِنْ

الْإِسَاءَةُ فِيهِ مَعْغِيَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْإِحْسَانِ الْمَتَقَدِّمِ عَلَيْهِ فِي النَّفْسِ ، وَلَا شَيْءَ أَقْبَحَ مِنْ كَدْرٍ بَعْدَ

صَفْوٍ ، وَتَرْمِيدٍ بَعْدَ إِنْضَاجٍ " ^(٤) ، وَقَدْ اشْتَرَطَ حَازِمُ الْقُرْطَاجَنِيِّ " أَنْ تَكُونَ الْخَاتِمَةُ بِمَعَانٍ سَارَةٍ

فِيمَا قَصَدَ بِهِ التَّهَانِيَّ وَالْمَدِيحَ ، وَبِمَعَانٍ مُؤَسِّةٍ فِيمَا قَصَدَ بِهِ الدَّعَايِيَّ وَالرِّثَاءَ ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ

الْاِخْتِتَامُ فِي كُلِّ غَرَضٍ بِمَا يَنْاسِبُهُ " ^(٥) ، كَمَا اشْتَرَطَ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ " مَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ الْكَلَامِ

أَحْسَنَ مَا انْدَرَجَ فِي حِشْوِ الْقَصِيدَةِ ، وَأَنْ يَتَحَرَّزَ فِيهَا مِنْ قَطْعِ الْكَلَامِ عَلَى لَفْظٍ كَرِيهِ ، أَوْ مَعْنَى

(١) النديون ١ : ٥١٦ .

(٢) القمرواني - العمدة ١ : ٢٣٩ .

(٣) ابن حمزة - حزانة الأدب ٢ : ٤٩٣ .

(٤) القرطاجني - منهاج السعفاء ٢٨٥ .

(٥) المصدر نفسه ٣٠٦ .

مذفر للنفس عما قصدت إيمانها إليه^(١) ، أما ابن رشيق القيرواني فقد اشترط في الختام أن يكون محكما ، لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه^(٢) . وقد استطاع الشريف الرضي أن يأتي بمعان تتناسب مع ما يريد الوصول إليه ، فختّم قصائده الرثائية بأبيات تتناسب مع جو القصيدة العام ، وهو جو الرثاء ، فأنت الخاتمة عنده انبثاقا طبيعيا عما سبقها من معان وأفكار . ففي قصيدته التي رثى بها أستاذة ابن جني ، ختمها بالوفاء لهذا العالم الجليل ، فأعلن أنه لن يكون وفيا لأستاذة إن مالت نفسه إلى اللغو بعد فقده ، ولن يكون ودودا إن هو سلاه فقال :

فَمَا الْعَهْدُ مِنِّي إِنْ لَيْتُ بِثَابِتٍ وَلَا الْوَدُّ مِنِّي إِنْ سَلَوْتُ بِصَادِقٍ^(٣)

وفي رثائه لصديقه الصابي ، يأتي بختام منبثق من جو القصيدة ، فيقول :

رَأَيْتُكَ كَيْ أَسْنُوكَ فَازِدَدْتَ نَوْعَةً لِأَنَّ الْمَرَاتِي لَا تَدُ الْمَرَاتِيَا
وَأَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ الْبُكَاءُ بِنَافِعٍ عَلَيْكَ ، وَلَكِنِّي أَمْنَى الْأَمَانِيَا^(٤)

وفي تعزية الوزير أبي الحسن بن أحمد عن ولده يحثه على الصبر في ختام القصيدة ،

ليأتي ذلك متناسبا مع غرض القصيدة وهو التعزية يقول :

فَأَنْيَضُ بِهَا إِنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ إِنْ جَشَّمُوا الْأَمْرَ أَبَانُوا الْغَنَى
وَاصْبِرْ عَلَى صَرَائِهَا إِنَّمَا نَغَالِبُ الْقِرْنَ إِذَا أُمَكْنَا^(٥)

وقد ختم الشريف الرضي بعضا من قصائده بالحكمة ، لأن شعر الحكمة يصور إلى حد

كبير ، هموماً والأما من نوع خاص ، تعكسها الحكمة ، ولو بصورة غير مباشرة^(٦) ، ثم إن

الحكمة من "أكثر الأنواع النظرية في الأدب استيعابا للفنية الجمالية"^(٧) ، وقد وردت هذه الحكم

(١) القرطاجي - مباح الشعاء ٢٨٥ .

(٢) القيرواني - العمدة ١ : ٢٣٩ .

(٣) الديوان ٢ : ٦١ .

(٤) الديوان ٢ : ٤٩٨ .

(٥) الديوان ٢ : ٤١٩ .

(٦) محيّر صالح - رثاء الأباء في الشعر العربي ١٥٠ .

(٧) ميشال عاصي - الفن والأدب (نحت حماني في الأنوان والندارس الأدبية والفنية) ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

كثيرا في مقدمات القصائد وفي ثناياها ، أما في ختام القصائد فلم يسرف الرضي فيه ، بل جاء متناسبا مع مشاعره ، فالشاعر " لا يقول الحكمة إلا إذا كان في موقف تصدق معه الحكمة " (١) ، وقد أشاد حازم القرطاجني بختم القصيدة بالحكم فقال : " وإذا ذيلت أو آخر الفصول بالآيات الحكمية والاستدلالية ، واتضحت شيات المعاني التي بهذه الصفة على أعقابها ، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل ، زادت بذلك بهاء وحسنا ، ووقعت من النفوس أحسن موقع " (٢) ، ومن هذا ما ختم به قصيدته التي عزي بها الوزير ابن صالح عن والدته :

لِلنَّائِبَاتِ مِنَ الرِّجَالِ جَرِيئُهُنَّ
يَوْمَ الْمَلَقَاءِ وَلِلْعَظِيمِ عَظِيمُهُنَّ (٣)

وقصيدته التي رثى بها المظفر أبا الحسن ، صديقه :

الْمَوْتُ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ
سَيِّئَانِ مَا يُوبَى وَمَا يَمْرِي (٤)

وقال في ختام قصيدة يرثي بها الحسين بن علي :

أَغْنَى طُلُوعَ الشَّمْسِ عَنْ أَوْصَافِهَا
بَجَلَالِهَا وَضِيَائِهَا وَبِعَادِهَا (٥)

ومن صور الانتهاء التي تتصل بالفقيد ، الدعاء له أو الدعاء لقبره بالسقيا ، يقول في

ختام قصيدته في صاحب ابن عباد :

وَرَعَاهُ مَنْ أَرَعَى الْبَرِيَّةَ سَيِّئُهُ
وَسَقَاهُ مَنْ أَسْقَى بِهِ الْأَمَالَ (٦)

ومن ذلك ما ختم به قصيدته في رثائه صديقه أبي القاسم الحكاز :

كَأَذْهَبَ رَعَاكَ اللَّهُ غَيْرُ مُضَيِّعٍ
وَسَقَى ثَرَاكَ الْمَزْنُ غَيْرَ مُرَوِّعٍ
فَالْقَلْبُ لِلشَّائِنِ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ
وَالْجَفْنُ لِلْأَعْدَاءِ إِنْ لَمْ يَدْمَعْ (٧)

(١) مخبر صالح - رثاء الأسماء في الشعر العربي ١٥١ .

(٢) القرطاجني - منهاج النقاء ٣٠٠ .

(٣) الديوان ٣٤٦ : ٢ .

(٤) الديوان ٥٢٥ : ١ .

(٥) الديوان ٤١٠ : ١ .

(٦) الديوان ١٨٢ : ٢ .

(٧) الديوان ٦٣٩ : ١ .

والدعاء للقبور بالسقيا كان متنوعا عند الشريف الرضي حيث ورد في خواتم القصائد وفي ثناياها وفي أولها ، إلا أن الرضي يستغل هذه السقيا في الخواتيم بمفهوم جديد جميل ، كما يقول في ختام قصيدته التي يرثي بها أبا شجاع بكر بن أبي الفوارس :

فَيْدَا لِلنَّاسِ أَوْقِرُهُ تُرَابًا وَأَسْقِي لِأَعْظَمِهِ الْعَبَادَا
وَمَا السَّقِيَا لِتَبْغُغِهِ وَلَكِنَّ وَجَدْتُ لَهَا عَلَى قَلْبِي بُرَادَا^(١)

وفي قصيدته التي يرثي بها الشريف علي بن الحسن الزينبي ، يستسقي له اندموج في نهايتها بدل السحاب ، يقول :

وَلَا ، بَلْ سَقِيكَ الدَّمُوعَ وَإِنَّا لَنُذَفُّ إِنْ قَدْ سَقَّكَ السَّحَابُ^(٢)

وهو بالسقيا يداري خاطرا مثيفا كما يقول في ختام مرثيته لبعض الأصدقاء :

وَلَوْ كَانَ بِالسَّقِيَا يَعُودُ أَنَا لَهُ كَمَا لَوْ سَقِي عَارِي الْقَضِيبِ لَأُورِقَا
وَلَكِنْ أَدَارِي خَاضِرًا مَثِفًا وَقَلْبًا بِمَا خَلْفَ التُّرَابِ مُعَقَّا^(٣)

وقد ربط الشاعر كرم الغمام على قبر أبي طاهر بن ناصر الدولة الحمداني ، بكرم يمينه في حياته ، فقال في ختام القصيدة :

نَقَدْ كَرَّمْتَ يَمِينَكَ قَبْرُ حَيَّا وَقَدْ كَرَّمَ الْغَمَامُ عَلَيْكَ بَعْدُ^(٤)

وقد ختم الرضي بعض قصائده بالسلام على المرثي ، كما في قصيدته التي يرثي بها ابن شاهويه :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ فَإِنَّ بَيْتَكَ الرَّدَى وَلَمْ يَبْقَ عَيْنُ لِقَاءٍ وَلَا أَشْرُ^(٥)

وأحيانا تكون الخاتمة عند الشاعر بالحزن والبكاء والدموع ، ومن ذلك ما أنهى به

قصيدته في رثاء بعض الناس :

^(١) الديوان : ١ : ٤٢١ .

^(٢) الديوان : ١ : ٢١٠ .

^(٣) الديوان : ٢ : ٦٧ .

^(٤) الديوان : ١ : ٤١٤ .

^(٥) الديوان : ١ : ٥٢٦ .

وَلَا عَجَبٌ أَنْ تَمْضِرَ الْعَيْنُ فَوْقَهُ
فَإِنَّ سَوَادَ الْعَيْنِ فِيهِ كَفِيرٌ^(١)

ونبأية قصيدته في أحد فتياء الشيعة :

بِكَيْتِكَ حَتَّى اسْتَفْدَ الدَّمْعُ نَظِيرِي
وَلَوْ مَدَّنِي دَمْعِي عَلَيْكَ لَمَّا أَجْدَى^(٢)

ومن ذلك نبأية قصيدته في رثاء بهاء الدولة :

وَلَوْ أَنَّ قَلْبِي بَعْدَ يَوْمِكَ صَخْرَةٌ
لَبَانَ بِهَا وَجَدًا عَلَيْكَ صُدُوعٌ^(٣)

ولا يفوتنا أخيرا أن نذكر أن الرضي في ختمه قصائد العزاء للخلفاء والملوك ، كان

ينتهي القصيدة بالدعاء لهم ، ومن ذلك قصيدته التي يعزي بها الطائع عن عمر بن إسحاق بن

المقتدر ، فقد أنهاها بقوله :

بَقِيَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَنَمَكَا
وَلَا ظَفَرَتْ مِنْكَ اللَّيَالِي بِفُرْصَةٍ
وَأَعْصَيْتَ مَا لَمْ يُعْطَ فِي الْمُلْكِ مَا لَكَ
بِقَاؤِكَ بِالْعِزِّ الْمُقِيمِ كَفِيرٌ^(٤)
وَلَا غَالِ قَلْبًا بَيْنَ جَنَّتِكَ غُيُولٌ^(٥)
فَإِنَّكَ فَضٌّ وَالْأَلَمُ فَضُولٌ^(٦)

و أنهى قصيدته في تعزية بهاء الدولة عن ابنته بقوله :

يَكُونُ لَكَ التَّقْدِمُ فِي الْمَعَالِي
وَكَانَ لَنَا أَمَامَكَ كُلُّ نَقْصٍ
وَفِي الْأَجْلِ التَّأَخُّرُ وَالْمَقَامُ^(٧)
يَكُونُ مِنَ الرَّدَى وَلَكَ التَّمَامُ^(٨)

هذه هي أكثر الأساليب شيوعا في بدء وختام المراثي عند الشريف الرضي ، وهو

انتقائي في بناء شعره ، لا يلتزم بطريقة واحدة معينة ، كما يقول الدكتور إحسان عباس^(٩) .

(١) الديوان ٢ : ٤٥٢ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢٤ .

(٣) الديوان ١ : ٦٣٣ .

(٤) الديوان ٢ : ١٦٨-١٦٩ .

(٥) الديوان ٢ : ٢٤٥ .

(٦) إحسان عباس - الشريف الرضي ٢٥٧ .

٢ - الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية :

إن الحديث عن بناء القصيدة يقود إلى الحديث عن الوحدة الموضوعية فيها ، لأن النقاد عند حديثهم عن المطلع والتخلص والخاتمة ، قد اشترطوا على الشاعر أن يناسب ويلائم ملاءمة دقيقة بين المعاني في كل قسم من هذه الأقسام ، وعد ابن الأثير ذلك دليلاً على براعة الشاعر ، وقوة تصرفه ، بحيث تكون المعاني مترابطة متماسكة يفضي كل معنى إلى الآخر ، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر^(١) . وتتحقق الوحدة الموضوعية في القصيدة حين " يدور الكلام فيها حول موضوع واحد معين أيا كان نوعه ، إنساناً أو غيره " ^(٢) .

وإذا كان النقد الحديث يطلب هذه الوحدة في القصيدة بوجه عام ، فمن باب أولى أن تكون أكثر ضرورة في قصيدة الرثاء ، لأن ما يدور في هذه القصيدة من موضوعات ، ممتزج بموضوع القصيدة وهو الرثاء . وإذا نظرنا في قصائد الرثاء عند الشريف ، نرى الوحدة الموضوعية " متكاملة ، وذات نسج محكم ، تدل على مدى نضوج الفكرة والتجربة في ذاته " ^(٣) ، وهي " متصلة الأجزاء مترابطة الأوصال منطقياً و شعورياً " ^(٤) ، فمراثي الشريف وصف لأحزانه على من فقدهم ، وتصوير عظم الفاجعة وفداحة الخطب ، وهي حكمة عن الموت والحياة ، وإقرار بالنهاية المحتومة التي لا مفر منها ، وهي حقيقة الموت ، وفيها التنويه بقوة الفقد الأدبية والمادية ، ونثر لمناقبه ، وبيان قيمته بالنسبة له ، وفيها عزاء لنفسه ولذوي الفقد ، حيث يدعوهم للصبر والسلوى ، ويذكرهم بالآخرة . فوحدة الموضوع متوفرة في معظم قصائد الرثاء عند الشريف الرضي ، وإن وجد لديه بعض الاستطراد في الفخر عند رثاء الأهل والأقارب ، أو الإكثار من وصف المطر وبرقه ورعده في كثير من قصائده ، فإن الفخر جزء

(١) ابن الأثير - مثل الحائر ٢ : ١٢١ .

(٢) يوسف بكار - بناء القصيدة ٢٨٠ .

(٣) عناد غزوان ، بناء القصيدة عند الشريف الرضي - دراسات في ذكراء الألفية ٢٢٠ .

(٤) المرجع نفسه ٢٢٢ .

من مديح الميت وتأبينه ، وأما وصف المطر ، فهو المطر الذي يستسقيهِ الشاعر لقبر المرثي ، ينتهي له أوصافاً خاصة وشروطاً ، حتى يكون من نوع خاص ، وقد استحسن حازم القرطاجني هذه المراوحة بين الفنون فقال : وإنما يحسن الكلام بالمراوحة بين بعض فنونه وبعض الافتنان في مذهبهِ وطرقهِ ، فيزداد حب النفس لما يرد عليها من ذلك ، إذا كانت زيارته غيباً^(١).

ولسنا بحاجة إلى تبين الوحدة الموضوعية في المقطوعات الشعرية ، لأنها من الطبيعي أن لا تسمح بتناول أكثر من موضوع لإيجازها ، فهي تقصد إلى الفكرة دون إسباب أو مقدمات ، لأنه لا مجال لذلك فيها ، فلا تستوعب إلا وحدة واحدة من المشاعر ، حيث يكثف الشاعر أحزانه في أقل قدر ممكن من الكلام .

أما القصائد الطويلة فقد تمثلت الوحدة الموضوعية بأصدق صورها في معظم هذه القصائد كما ذكرنا ، ومن أمثلة ذلك قصيدته التي يرثي فيها صديقه أبا منصور الشيرازي الكاتب^(٢) والقصيدة تتألف من ثمانية وثلاثين بيتاً ، اشتملت على عدة أقسام ، أولها : وصف حزنه على صديقه وبكائه لفقده ، وشكوى الدهر والموت ، فيذكر المصيبة التي أسرع إلى صاحبه ، حتى غدا الشاعر بعده في شقاء ، وقد جفاه الزمان ، وسلبته الخطوب غرائب السلب ، ويذكر عبث الزمان ومراوغة الموت ، جاعلاً الموت راحة للفقيد وعناء للفاقد ، يقول :

أَيُّ دُمُوعٍ عَلَيْكَ لَمْ تَصُبْ	وَأَيُّ قُلُوبٍ عَلَيْكَ لَمْ يَحِبْ
كَبَّتْ إِلَيْكَ الْخُطُوبُ مُعْجَلَةً	صُرُوبَ شَدِّ الْحَيَاةِ وَالنَّجْبِ
وَأَعْجَبِي لِلزَّمَانِ كَيْفَ نَبَا	وَأَعْجَبِي أَنْ أَقُولَ وَأَعْجَبِي
مَا لِي وَمَا لِلْخُطُوبِ تَسْلُبِي	فِي كُلِّ يَوْمٍ غَرَائِبَ السَّلْبِ
إِمَّا فَتَى نَاصِرُ الصَّبَا كَأَخِي	عِنْدِي أَوْ زَائِدُ الْمَدَى كَأَبِي
وَأَنْتَ لِلشَّقَاءِ أَحَبُّ بِي	أَنْعَبُ بِالْدهْرِ وَهُوَ يَلْعَبُ بِي
مَا نَمْتُ عَنْهُ إِلَّا وَأَيُّظُنِّي	مِنْ الرَّرَايَا بِفَيْلِقِ الْجَبِ

(١) القرطاجني - مباح السقاء ٣٠٢ .

(٢) الديوان ٢١٧ : ١ - ٢٢٠ .

وَلَمْ أَزَعُهُ إِلَّا وَأَعْقَبَنِي
فِي كُلِّ دَارٍ تَعْدُو الْمَنُونُ وَمِنْ
يَغُورُ بِالرَّاحَةِ الْفَقِيدُ ، وَلَمْ
سَطُوا كَوَقَعَ الضُّبَى عَلَى الْيَدِ
كُرَّ الشُّبَا مَطَالِيعُ النُّوبِ
فَاقْدُ طَوْلَ الْعَنَاءِ وَالْتَعَبِ

ثم يذكر أيام الصداقة بينهما ، والمجاسر الأدبية الرائعة ، مشيراً إلى بلاغة الفقيه
ومكانته الأدبية العالية التي كان يتمتع بها بين أدباء عصره متأسفاً لذهابها بذهاب مقول الدهر
وعلم المجد . ثم يشكو الشاعر الشيب الذي هو نذير الموت عند أغلب الشعراء ، فيقول :

إِنِّي أَضْمِي إِلَى الْمَشِيبِ ، وَمَنْ
وَأَنْ يَزُرَّ طَالِعُ الْبَيَاضِ أَقْلُ
يَنْجُ قَلِيلاً مِنَ الرَّدَى بِشِيبِ
يَا لَيْتَ لَيْلُ الشُّبَابِ لَمْ يَغِبْ

وبعدها يستقي الشاعر الغمام المتقل بالمطر لقبر صديقه ، ويجعل ذلك في قالب ممتع

من التشبيهات ، يقول :

مَرَّ عَلَى ذَلِكَ التُّرَابِ مَنْ الـ
كَالْعَبْرِ ذَاتِ الْأَوْسَاقِ صَاحِبِهَا
إِذَا خَبَا بَرْقُهُ اسْتَعَانَ عَلَى
لِنَرُتَوِي ثُمَّ أَعْظُمَ نَزَلَتْ
بَحِثُ تَرَوِي عَنِ السَّيِّمِ وَتَسْـ
مَزَنَ خَفُوقَ الْأَعْلَامِ وَالْعَدَبِ
مُعْتَفٍ بِالْأَيَّانِيقِ النَّجِيبِ
إِفْقَادِهِ بِالْمُجَلْجَلِ النَّجِيبِ
دَاجِي الدَّيَّامِيمِ مُوَحِّشَ الْحَدَبِ
تَدْرُجُ عَنَّا مَطَالِيعُ الشُّبِّ

ويختتم الشاعر القصيدة ختاماً مناسباً مشعراً بنهايتها ، ينم عن إحساسه المرتبط بمصيره

المحتوم ، من خلال رثاء فقیده ، فيقول :

لَا تَحْسَبَنَّ الْخُلُودَ بَعْدَكَ لِي
إِنْ أُنْجِ مِنْهَا وَقَدْ شَرِبْتَ مِنْهَا
إِنَّ الْمَنِيَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ
فَإِنَّ خَيْلَ الْمَنُونِ فِي طَائِفِي

وهكذا فإن الوحدة الموضوعية واضحة في هذه القصيدة ، حيث تحققت بتداعي الصور

الجزئية المنسجمة فيما بينها ، ومن خلال النظر إلى وحدتها النفسية والشعورية ، فالحزن وتمن

المصير الحتمي للأحياء ، يظللان ملامح القصيدة حتى نهايتها ، فعلى الرغم من تعدد المحاور

فيها ، إلا أن هذه المحاور تصب في غرض واحد لا تتعداه وهو الرثاء .

إن الوحدة الموضوعية في القصيدة تسهم في بناء وحدتها العضوية ، وهذا ما نراه في تعريف محمد غنيمي هلال للوحدة العضوية بأنها : " وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدي بعضها إلى بعض ، عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر " (١) ، وفي نقدنا القديم ، كان تصور ابن طباطبا لبنية القصيدة العربية أنها كل متلاحم الأجزاء متفاعل العناصر ، يقول : " وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً ، يتسق أوله مع آخره ، على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت ، دخله الخلل ، كما يدخل الرسائل والخطب ، إذا نقض تأليفها " (٢) ، فهو يرى أن القصيدة كلها يجب أن تكون كالكلمة الواحدة ، في تآلف حروفها ، وانسجام معانيها ، وأن تسير على نسق واحد نسجاً ودقة معنى ، كما يقول : " يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ، ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً ... حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً ... لا تتناقض في معانيها ، ولا وهي في مبانيها ، ولا تكلف في نسجها ، تقتضي كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقاً بها ، مفتقراً إليها " (٣) . وهذا الكلام قريب جداً من الوحدة العضوية التي ينادي بها النقد الحديث ، وإن كانت ترجع في نشأتها إلى عهد (أرسطو) ، الذي تحدث عن وحدة العمل الفني ، من خلال حديثه عن وحدة الملحمة والمسرحية (٤) ، ولكن " ليس في أقوال ابن طباطبا ما يشجع على القول بتأثره بأرسطو " (٥) .

(١) محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث ٣٩٥ .

(٢) العلوي - عيار الشعر ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه ١٣١ .

(٤) محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث ٣٩٥ .

(٥) يوسف بكار - بناء القصيدة ٢٩٦ .

وهناك رأي للحاتمي صريح جدا بالوحدة العضوية يقول : " فإن القصيدة مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وبأينه في صحة التركيب ، غادر بالجسد عاهة تتخون محاسنه ، وتغفي معالم جماله . ووجدت حذاق الشعراء ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون من متل هذه الحال ، احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بيد على محبة الإحسان " (١) .

هذه أشهر آراء الأقدمين في القصيدة العربية ، إذ يتصورونها وحدة كلية ، مدركين العلاقات التي لا بد من توفرها فيها . حتى تبدو متماسكة من حيث معانيها ومبانيها ، وكأنه لا انفصال بين مقدمتها وموضوعها ، فتكون متصلة المقاطع مترابطة الأبيات (٢) . والوحدة العضوية أكثر ضرورة في قصيدة الرثاء ، لأنها صورة صادقة لتجربة الحزن الموحدة التي تتبع من ذات الشاعر " لأن الشعر الذاتي حصيلة تفكير الشاعر في فنه ، ولا شيء غيره من حيث استيعابه همومه وأحزانه " (٣) . فقصيد الرثاء تتوفر فيها وحدة الموضوع ، كما تتوفر فيها وحدة المشاعر لأن الشاعر خاضع فيها لتجربة الحزن الموحدة كما ذكرنا . وقد تجلت هذه الوحدة ، في معظم مراثي الشريف الرضي ، فكل ما يتداعى في ذهن الشاعر ونفسيته من ذكريات خلت ، أو أي موقف آخر يثير الشاعر ، كالفخر واستنكار مآثر قومه ، أو وصف المطر الذي يكثر منه في مراثيه ، أو الدعوة للنار للمرثي والتهجم على قاتليه ، فإن هذا لا يثير أشناتا من المشاعر كما هو الحال في القصائد ذات الموضوعات المتعددة ، وإنما هي معان جزئية متنوعة ، ترتبط فيما بينها وتتشكل في المرثية ، على أساس من وحدة الشعور الذي ما هي إلا " هيمنة إحساس واحد ، أو لحظة شعورية واحدة ، أو رؤية نفسية ذات لون محدد في العمل الفني كله ، وإن

(١) الخيزران - العدد ٢ : ١١٧ .

(٢) انظر حين عضوان - مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ٣٨٤ .

(٣) مجيد صالح - رثاء الأبناء في الشعر العربي ٨٦ .

الصور الشعرية بكل أشكالها المجازية ، وبمعناها الجزئي والكلي ، هي وسيلة الغنان الوحيدة لتجسيد هذا الإحساس ^(١) .

ومن هنا نجد في مرثي الرضي وحدة قائمة على الملاءمة بين أجزاء القصيدة ، ففي كثير من قصائده ' يسود شعور نفسي ، يطبع بطابعه موضوعات القصيدة ، والفاظها ، وتركيبها ، وإيقاعها ، وتزداد قيمة هذه الوحدة كلما تكامل شكل البناء ومضمونه عضوياً ^(٢) . ويمكن التمثيل على ذلك بقصيدته التي يرثي بها قاضي القضاة ابن معروف ، ويعزي عنه الخليفة الطائع لله ^(٣) ، فقد بدأ هذه القصيدة ، بالحديث عن ضعف الإنسان في مواجهة الموت ، وأن الموت ذو سطوة لا تقف أمامها القنا ، ولا السيوف ، وليس على الإنسان في حال طروقها إلا أن يتلقاها بالدموع ، وهي على كل حال غير مجدية ، لكن هذه حال الدنيا ، فهي منقلبة ، إن درت بحالوتها حيناً ، صبت مرارتها أحياناً ، كما يقول :

عَظِيمُ الْأَسَى فِي هَذِهِ غَيْرُ مُقْنِعٍ	وَلَوْ أَنَّ الرَّدَى فِيمَا جَنَى غَيْرُ مُنْجِعٍ
وَلَا عَيْنٌ إِلَّا الدَّمْعُ تَجْرِي غُرُوبُهُ	فَلَا قَرِيرٌ بِهِ الْمَقْدُونُ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعِ
فَلَيْسَ الْقَدَا فِيمَا أَصَابَ بِشُرْعٍ	وَلَيْسَ الظُّبَى فِيمَا أَلَمَ بِقُطْعٍ
وَلَا مَانِعٌ مِمَّا رَمَى اللَّهُ سَهْمَهُ	دِفَاعُ الْمُحَامِي وَالْدَّرَاعُ الْمُدْرَعُ
وَإِنَّ الْمَنَاءَ إِنْ ضَرَقْنَ بِفَرَاخٍ	فَسَيَّانٌ لُقْيَا حَاسِرٍ أَوْ مُقْنَعٍ
إِذَا انْتَصَرَ الْمُحْزُونُ كَانَ انْتِصَارُهُ	بَدَمْعٍ يَزِيدُ الْوَجْدَ أَوْ عَصْرٍ إِصْبَعٍ
أَتَرْضَى عَنِ الدُّنْيَا وَمَا زَالَ بُرْكُهَا	عَلَى مَقْصَدٍ مَنَا وَشَلُوْهُ مَبْطَحُ
إِذَا سَمَحَتْ يَوْمًا بِسَجْوَاءٍ سَجَسَجٍ	تَشْتَبِي عَلَى عَمَدٍ بِنُكْبَاءٍ زَعَزَعٍ

^(١) مصطفى عبد الشافي السورى - شعر الرثاء في العصر الجاهلي ٢١٤-٢١٥ .

^(٢) عبد المنطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومطلفاته المكرية ٣٣٥ .

^(٣) الديوان ٦٤٤ : ١ - ٦٤٦ .

وبعدهما يتخلص الشاعر تخلصاً حسناً إلى رثاء عبيد الله ، فيتحدث عن وطأة هذا المصائب على نفسه ، وقد وقف عليه باكياً يدعو له بالسقيا ويناديه ، ولكن أنى له أن يجيب ،

يقول :

أَيُّومُ عُبَيْدِ اللَّهِ كَمْ رُغِتَ مِنْ حَشَى
وَكَمْ جَفَّ دَمْعُ فَيْكٍ قَدْ كَانَ غَرْبُهُ
تَوَقَّعُ أَمْرٍ زَادَ هَمًّا وَفُوعُهُ
أَيَّا جَدَّتْ وَارَى مِنَ الْعِزِّ هَضْبَةً
سَقَاكَ ، وَلَوْلَا مَا تَجُنُّ مِنَ النَّفْسِ
وَقَلَّ لِقَبْرِ أَنْتَ بِرُضْمِيرِهِ
وَقَفَّتْ عَلَيْهِ عَاطِفًا فَضَّلَ عِبْرَةً
أَقُولُ لَهُ ، وَالْعَيْنُ فِيهِمَا رَجَاجَةٌ
كَلَّ أَنْتَ مُجِيبِي إِنْ دَعَوْتُ بِأَنْتِهِ
وَهَيْهَاتَ حَالَتْ بَيْنَنَا مَسْطِيطَةٌ

جَبِيذٌ عَلَى طُولِ الْمَدَى لَمْ يَرُوعْ
بَضِيئًا ، إِذَا مَا رِيحٌ لَكُمْ يَسْرَعُ
وَأَنْ وَفُوعُ الْأَمْرِ دُونَ التَّوَقُّعِ
تَمُدُّ إِلَى الْعُلْيَا يَبُوعُ وَأَذْرُعُ
نَفَقْتُ شَائِبَ الْعُقَارِ الْمُشْعَشَعِ
بَكَاءُ الْغَوَايِ كُلُّ يَوْمٍ بِأَرْبَعِ
تَفِضُّ عَلَى فَضْلِ الْحَنِينِ الْمُرْجَعِ
مِنَ الدَّمْعِ قَدْ وَارَى بَيْنَا الْحَوْلَ مَدْمَعِي
وَكَلَّ أَنْتَ عَادٍ بَعْدَ طُولِ مَدَى مَعِي
صَمُودٌ عَلَى الْأَجْرَامِ مِنْ كُلِّ مَطْلَعِ

ثم يتحدث الشاعر عن كثرة المصائب وتتابعها ، وأن كل يوم يحمل في ذقائه وساعاته

الموت ، فلا يمر يوم ، إلا ونرى رنة من مفعج ، وفي المقابل فإن هناك من يفرح ويرجو خيرا

ويستبشر ، يقول :

لَنَا كُلُّ يَوْمٍ فَرَحَةٌ مِنْ مُبَشِّرٍ
وَطَارِي رَجَاءٍ فِي مِلْحٍ مُسَلِّمٍ
وَمَا بَعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَامِعًا
لَحَا اللَّهُ هَذَا الدَّهْرُ مَاذَا جَرَّتْ بِهِ
لَقَدْ جَبَّ مِنْهَا ذُرْوَةٌ أَيْ ذُرْوَةٌ
أَلَيْسَ عُبَيْدُ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ ؟

بِمَقْتَبِلٍ أَوْ رَنَّةٍ مِنْ مُفْجِعٍ
وَعَارِضٍ يَأْسٍ مِنْ خَلِيضٍ مُوَدِّعٍ
وَأَنْتَ بِمَرَأَى مِنْ مَقَامِي وَمَسْمَعِي
نَوَائِيهِ مِنْ مَوْجِ الْوَقْعِ مُظْلِعٍ
فَأَبْنَا بِأَضْلَاعِ الْأَجَبِّ الْمَوْقِعِ
فَلَا عَظَرُ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِأَجْدَعِ

وبعد ذلك يتخلص الشاعر ثانية تخلصاً حسناً إلى تعزية الخليفة بهذا القاضي الذي كان

السابق إلى عقد البيعة لأمير المؤمنين ، ويدعو الشاعر من خلال ذلك للخليفة بالبقاء ، يقول :

تَعَزَّ ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَرِيحَةً
 أَمْرُكَ لَمْ يَذْخُرْكَ نَصْحًا إِذَا حَنَا
 هُوَ السَّابِقُ الْيَادِي إِلَى عَقْدِ بَيْعَةٍ
 غَرَسَتْ بِهِ غَرْسًا يَرَى الدَّهْرُ عَمَلَهُ
 بَقِيَتْ أَمِينَ اللَّهِ عَمَلًا لِمُفْرَعٍ
 إِذَا صَفَحَتْ عَنْكَ النَّيَالِي وَأُغْرِيَتْ
 فَلَا فُجِعَتْ بِالْعِزِّ تَارُكَ سَاعَةً
 وَلَا بَرَحَتْ تِلْكَ الرَّبَاعُ مَجْلُودَةً
 مِنَ الْعَزْمِ عَنْ مَاضِي الضَّرَائِمِ أَرْوَعٍ
 رَجُلًا عَلَى الْغَيْثِ الْقَدِيمِ بِأُضْلَعٍ
 رَأَى النَّاسَ فِيهَا بَيْنَ حَرَى وَطُلَعٍ
 وَكَانَ مَنَى تَغْرِي عَلَى الرَّغْمِ يَنْزِعٍ
 وَمَرَعَى لِإِخْفَاقٍ وَوَرْدًا لِمَطْمَعٍ
 بِحِفْظِكَ فِينَا مَنَانٌ كُنْ مُضَيَّعٍ
 وَلَا غُضَّ مِنْ كَبَابِ الرُّوَّاقِ الْمُرْفَعِ
 عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ مَصِيفٍ وَمَرْبَعٍ

وفي ختام القصيدة يعبر الشاعر عن إخلاصه في هذا الرثاء ، فيقول :

لَقَدْ هَاجَ هَذَا الرُّزُّ رُبْعَانِ زَفْرَةً
 وَلَا سَبَبٌ إِلَّا الْمَوَدَّةُ إِنَّهُ
 وَلَيْسَ مَقَالٌ حَرَكْنَاهُ حَفِظَةً
 تَخْتِنِي بِالْقَوْلِ عَنْ قَلْبٍ مُوجَّعٍ
 تَقَطَّعُ مِنِّي ، وَالْقَوَى لَمْ تَقْطَعْ
 وَعَبْدٌ كَقَوْلِ الْقَائِلِ الْمُتَصَنِّعِ

فهذه القصيدة قائمة على وحدة الموضوع ، ووحدة الشاعر التي يثيرها هذا الموضوع ، وعلى الخيال الذي ينم عن براعة الشاعر في ترتيب الأفكار والصور ، حيث اختار الشاعر لكل صورة ما يناسبها من الصور والأساليب المعبرة ، لتشكل بناءً عضويًا متدرجًا ، بعيداً عن الحشو والمبالغة ، وهكذا فإن طول قصائد الرثاء عند الشريف الرضي ، لا يفقدها الوحدة النفسية والشعورية ، فالقصيدة تعبر بأجمعها عن حالة وجدانية عاطفية ، والرابطة التي تصل بين أغراض القصيدة واحدة ، هي عاطفة الحزن ، والعاطفة لها دور كبير في وحدة القصيدة ، إذ "إننا نستطيع أن نلتخذ من التوتر عند الشاعر أساساً دينامياً لوحدة القصيدة ، فهو يساهم بنصيب أكبر في تحديد الهدف والطريق إليه" (١) .

وقد برزت هذه الوحدة بصورة جلية في القصيدتين اللتين رثى بهما الشاعر مدينة الحيرة ، وساعد على ذلك الأسلوب القصصي ، فكان كل جزء في القصيدة يؤدي إلى الذي يليه ،

(١) مصطفى مويث - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، منشورات جماعة علم النفس الشكامي ، دار المعارف ، مصر ،

ففي قصيدته النونية^(١) ، نرى هذه الوحدة جلية ، وقد جاءت هذه القصيدة في سكة وثلاثين بيتاً غير مصرعة المطع ، وتتكون من ثلاثة أجزاء ، تبدو فيها الوحدة الموضوعية والعضوية واضحة ، ففي الجزء الأول الذي يبدأ من البيت الأول إلى البيت السابع عشر (١-١٧) ، أعطى الشاعر صورة عن ماضي الحيرة ، وهو يطوف بها متذكراً هذا الماضي المجيد ، فقبابها العالية تذكره بشموخ أهلها أصحاب النجدة والكرم والشجاعة ، والشاعر حين يتأمل هذه الأطلال وما أحدث الدهر بها وبأهلها ، فإنه يتأمل الحياة التي تنتهي ولا تستمر على حال.

وفي الجزء الثاني الذي يبدأ من البيت الثامن عشر إلى الثلاثين (١٨-٣٠) يقارن بين ماضي الحيرة وحاضرها معبراً عن أساه على الماضي الذي كان واقعاً عزيزاً شامخاً. وفي الجزء الثالث الذي يبدأ من البيت الواحد والثلاثين إلى السادس والثلاثين (٣١-٣٦) يتأسى الشاعر بموت الماضين من آل جفنة (الغساسنة) ، وابن ذي يزن (من ملوك اليمن) ، وعامر الضحيان (أحد فرسان العرب المشهورين) . وهكذا فإن كل جزء من هذه الأجزاء ساهم في بناء القصيدة محققاً الوحدة العضوية التي يصعب من خلالها زحزحة أي جزء من مكانه .

ولا ننكر أن هناك بعض المراثي تبدو قلقة في بنائها ، وهي تلك المراثي التي تغلب فيها العاطفة ، فنرى نفسية الشاعر القلقة ، تفرض نفسها على بناء القصيدة ، فالموضوع العام في القصيدة واحد ، لكن بناءها قلق . ومن ذلك قصيدة "كربلا"^(٢) التي يرثي فيها جده الحسين بن علي ، وقصيدته في رثاء أمه ، ففي قصيدة "كربلا" لا يستقر الشاعر على نمط واحد يستوفي فيه رثاء الحسين بن علي ، فهو يرثي الحسين ثم ينتقل إلى رثاء أصحابه ، ثم يعود لرثائه ، ثم يرثي أصحابه ، وهكذا يمزج الشاعر رثاءهم ببعضه ببعض ، وهذا الاضطراب والحزن واضح من تنويع الشاعر في الصيغ ، فيستخدم النداء والإخبار والدعاء والتمني والاستفهام ، وهذه الصيغ التي يستخدمها تخرج لمعان مختلفة .

(١) الديوان ٢: ٤٠٠-٤٠٣ .

(٢) الديوان ١: ٩٣-٩٨ .

أما قصيدته في رثاء أمه^(١) ، فإن الشاعر لا يكاد يستقر على نسق محدد في بنائها كذلك ، فما أن يخرج من موضوع ، حتى يعود إليه بعد عدد من الأبيات حول موضوع آخر ، ففي الأبيات الخمسة الأولى ، يعبر الشاعر عن حزنه وبكائه لفقد أمه ، ويصف حالته الحزينة بعد فقدها ، ثم يعبر عن تمنيه فداها ومقابلة المنية لو كان يملك ذلك ، ورد هذا في الأبيات من السادس إلى الحادي عشر . ليعود إلى وصف حالته الحزينة بعد فقد أمه ثانية في أربعة أبيات ، من البيت الثاني عشر إلى الخامس عشر ، وتمنى لو كان فداها في البيت السابع عشر ، ثم يذكر أبياتاً حكمية في الوعظ والعبرة من الموت ، وأن الدهر لا يبقى على حال ، من البيت الثامن عشر ، إلى الثاني والعشرين ، وبعدها ينتقل إلى تأبين أمه ومدحها بالإيمان والتقوى ، من البيت الثالث والعشرين ، إلى السابع والثلاثين ، ليعود بعد هذا إلى تصوير حزنه ، ووصف حالته الحزينة مرة ثالثة ، من البيت التاسع والثلاثين إلى الحادي والأربعين ، ثم ينتقل إلى الفخر بابائها ، من البيت الثاني والأربعين ، إلى السابع والأربعين ، متبعاً ذلك بالاستسقاء لقبرها ووصف المضر والسحاب ، ويتخلص من ذلك كله إلى الحديث عن أحبابه وأصدقائه بشكل عام ، ويعبر عن تشوقه إليهم ويبكي فراقهم ، ثم يعود بعد ذلك إلى مدح والدته بما قدمت من معروف وأعمال صالحة ، تستحق بها رضوان الله وصلاته عليها ، من البيت الثاني والستين إلى الخامس والستين ، ثم يختم بمخاطبة والدته عن مدى حزنه وتفجعه لموتها ، وتمنيه أن تسمع فداه من تحت التراب ، لتعلم مدى حزنه لموتها .

وبالرغم من ذلك ، فإن القصيدة فيها إشعاع وألق ، وعاطفة جياشة ، مع انسياب في التعبير ، لم يغبن هذه العاطفة حقها .

^(١) الديوان : ١ : ٧٣-٧٨ .

الموسيقى :

لا ينكر أي دارس للشعر العربي ما للموسيقى من أهمية في بنائه ، كونها إحدى العناصر الرئيسية التي تمنح الشعر كينونته ، وتعطيه طبيعته الخاصة ، بل هي السبب الرئيس في التفريق بين الشعر وغيره من أنواع الأدب ، فالوزن كما يقول ابن رشيق القيرواني :
 " أعظم أركان الشعر ، وأولاهما به خصوصية " (١) ، ولا تكسب الموسيقى أهميتها من هذه الناحية فقط ، بل إن لها ارتباطاً قوياً بالنفس وهمومها ، وعواطفها ، وانفعالاتها ، خاصة في الشعر ذي الطبيعة الغنائية . وكثيراً ما يرد في كتب الأدب مصطلحات مثل : " يتحفز " أو " يتوشب " أو " أخذته هزة " ، أو ما أشبهها من المصطلحات ، لتدل على ما تحدثه الموسيقى من أثر في نفس السامع .

وكثيراً ما يتحدث الدارسون عن قضية تعدد من " أعقد القضايا النقدية التي لما يستقر النقد فيها على رأي أو قرار " (٢) ، وهي العلاقة بين الوزن الشعري وموضوع القصيدة ، وقد أشار حازم القرطاجني قديماً لهذا الربط بينهما فقال : " ولما كانت أغراض الشعر شتى ، وكان منها ما يقصد به الجدة والرصانة ، وما يقصد به الجزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم ، وما يقصد به الصغار والتحقير ، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ، ويخيلها للنفوس " (٣) ، ثم يوغل في القضية حتى يصل إلى تحديد الأغراض الثلاثة بكل بحر . أما البحور الثلاثة للثراء فمنها : المديد والرمل ، لما في المديد والرمل من اللين (٤) ، ولعل في ذلك غلواً لا داعي له ، لأنك إن نظرت في الشعر العربي ، وجدت تناقضاً موضوعياً في استخدام هذه البحور ، إذ قد يكون أحد البحور ميزاناً لقصائد المدح أو الفخر أو

(١) القيرواني - عمدة : ١ : ١٣٦ .

(٢) يوسف نكر - بناء القصيدة : ١٦١ .

(٣) القرطاجني - مباح السعاد : ٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق : ٢٦٩ .

الحماسة ، وقد يكون ميزانا لقصائد الرثاء والشكوى أو الغزل^(١) ، فالحالة الانفعالية والنفسية ، ودرجة التوتر لدى الشاعر حين العملية الإبداعية ، هي التي تحدد الوزن^(٢) . ولعل هذا ما دعا الدكتور إبراهيم أنيس ، إلى أن يقول : " على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر في حالة اليأس والجزع ، يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه ، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والويلع ، تأثر بالانفعال النفسى وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية " (٣) .

وعند استقراء مراثي الشريف الرضي فإننا نجد أنه مثل شعراء عصره ، قد أكثر من النظم على بحور معروفة متداولة كثر القول عليها ، أهمها : الطويل والكامل ، والوافر ، والبسيط ، والخفيف ، ثم يليها وهي أقل : المنسرح والمتقارب ، ثم الرمل والسريع ، وهناك أربع قصائد على مجزوء الكامل ، وواحدة على كل من : المجهت ومجزوء البسيط ، وثلاث أراجيز . ولعل هذا ما ينقص رأي الفرطاجني السابق ، في أن الرمل والمديد اليق بالرثاء ، حيث لم يأت على الأول سوى قصيدتين ، ولم يكن للمديد حظٌ بين مراثي الرضي . والجدول التالي يوضح النسب المئوية للأوزان في مراثي الشريف الرضي .

النسبة المئوية	عدد القصائد	البحر
٢٧%	٢٤	الطويل
٢٠,٢%	١٨	الكامل
١٠,١%	٩	البسيط
١١,٢%	١٠	الوافر
٨%	٧	الخفيف
٤,٥%	٤	المنسرح
٢,٢%	٢	الرمل
٢,٢%	٢	السريع
٣,٣%	٣	الرجز

^(١) عبد المطلب عمران - شعر الشريف الرضي ومطلفاته المكرية ٢٨٣ .

^(٢) أحمد ناهي - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ٥٩ .

^(٣) إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر ، مكتبة الإخوة المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٨٨ ، ١٧٧-١٧٨ .

مجزوء الكامل	٤	٤,٥ %
مجزوء البسيط	١	١,١ %
المجثث	١	١,١ %
المتقارب	٤	٤,٥ %
المجموع	٨٩	قصيدة ومقطوعة

جدول رقم (١)

ولا بد أن نشير إلى أنه يتعاور بيت الشعر نوعان من الموسيقى : موسيقى خارجية ، أو نغم أساسه عدد من التفعيلات التي تشكل الوزن والبحر الشعري ، وموسيقى داخلية ، تنشأ من جرس الألفاظ وتناغم إيقاعها^(١) . وينبغي أن يكون هناك انسجام بين هذين النوعين ، حتى تؤدي الموسيقى دورها في نقل أحاسيس الشاعر وانفعالاته . ومن القصائد التي يتمثل فيها هذا الانسجام ، قصيدته في رثاء والدته التي يقول فيها :

كَمْ زَفْرَةٌ ضَعُفَتْ فَصَارَتْ أَنَّةً تَمْتَلِحُ بِتَفَسِّ الصُّعَدَاءِ
لَيْفَانُ أَنْزَوْ فِي حَبَائِلِ كَرْبَةٍ مَلَكْتَ عَلَيَّ جِلَادَتِي وَغَنَائِي
وَجَرَى الزَّمَانُ عَلَى عَوَائِدِ كَيْدِهِ فِي قَلْبِ أَمَالِي ، وَعَكْسِ رَجَائِي
قَدْ كُنْتُ أَمْرُ أَنْ أَكُونُ لَكَ الْفَدَا مِمَّا أَلَمَ ، فَكُنْتُ أَنْتِ فِدَائِي^(٢)

هذه القصيدة من البحر الكامل ذي التفعيلات الستة السباعية ، التي يستطيع الشاعر أن يصب فيها أشجانه ، ويعبر عن حزنه وألمه ، حيث استطاع بهذه القافية ، وهذا الروي ، بإيقاعاتها الهادئة ، أن يعكس خلجاته النفسية وإحساسه بالأسى والانفعال .

كما أن الرضي يلجأ إلى تقنيات موسيقية متعددة ، تتعاضد مع المعنى واللفظ ، لينقل إلينا انفعالاته ، وما يضطرب في نفسه ، ولعل أول هذه التقنيات هو التصريع ، إذ قل أن يكون هناك قصيدة في رثائه غير مصرعة ، وقد أشرنا إلى التصريع في المطالع سابقا^(٣) ، وتأتي أهمية التصريع : " لما فيه من إحياء مبكر بقافية القصيدة قبل ورودها ، ومن إشارة إلى عنف ما تضح

^(١) انظر شكوي عباد - موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة ، القاهرة ، مصر ، ١٩٦٨ ، ١٠٨ .

^(٢) الديوان ١ : ٧٤ .

^(٣) انظر شوقي صيف-المن ومداه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ٤٩ .

به نفس الشاعر من حرارة الانفعال ، فهو وسيلة فنية إيقاعية ، ذات تأثير في اقتحام مشاعر السامع وأخذها من أطرافها ^(١) .

كما أن للبديع أثراً كبيراً في الناحية الموسيقية ، فإذا ذكرنا الطباق مثلاً ، وجدنا أنه يثير انتباه السامع ويوقظ نفسه ، من خلال إبراز المفارقة القائمة بين المعاني المتضادة ، " مما يضفي على الانسجام الإيقاعي في البيت دقات متنوعة من الأحاسيس الجميلة " ^(٢) . أما الجناس فإنه يحقق جرساً موسيقياً للألفاظ في سياق الإيقاع الموسيقي العام للبيت المنبعث من الوزن والقافية ، " ويحدث الانسجام الذي هو أساس البناء الموسيقي في القصيدة " ^(٣) . ومن القصائد التي لجأ فيها الرضوي إلى الجناس والطباق معاً ، حيث يبرز أثرهما بوضوح واضح في نقل المعنى وفي التناسق مع الألفاظ ، القصيدة التي رثى بها خاله أحمد بن الحسين ، يقول فيها :

لَنَاكَ يَوْمَ رَنَّةٍ خَلْفَ دَاهِبٍ	وَمُسْتَهْلِكٍ بَيْنَ النَّوَى وَالنَّوَادِبِ
نَوَادِغُ أَحْدَاثٍ النَّيَالِي عَلَى شَفَا	مِنَ الْحَرْبِ لَوْ سَأَلْتُنْ مِنْ لَمْ يُحَارِبِ
وَنَأْمُ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرُ صَادِقٍ	وَنَأْمُ مِنْ وَعْدِ الرَّدَى غَيْرُ كَاذِبِ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا دَارِعٌ مِنْ حَاسِرٍ	يُصَابُ ، وَإِلَّا دَاجِنٌ مِنْ سَارِبٍ ^(٤)

ومن التقنيات الموسيقية المهمة في مراثي الرضوي : التكرار ، حيث يمنح التكرار لشعره تميزاً موسيقياً يساهم في تأكيد المعنى وتقرير حقيقته ، لأنه " إلحاح على جبهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ، ويسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة " ^(٥) ، فضلاً عن أن " الأصوات التي تتكرر في حشو البيت ، مضافة إلى ما يتكرر في القافية ، تجعل البيت أشبه

^(١) عبد الصبغ عمرو - شعر الشريف الرضي ومطبقاته المتكررة - ٢٨٩ .

^(٢) المرجع السابق - ٢٩٠ .

^(٣) محمد شمس - احسانية في شعر الشريف الرضي - ٢٣٩ .

^(٤) الديوان - ٢١٠ : ١ .

^(٥) تارك الملايكة - قضايا الشعر المعاصر ، دار اعمى سلاطين ، بيروت ، لبنان ، ط ٨ ، ١٩٩٢ ، ٢٧٦ .

بفاصلة موسيقية ، متعددة النغم مختلفة الألوان ^(١) . وأمثة التكرار كثيرة في شعر الرضي

الرشادي وخاصة تكرار الكلمة ، ومن ذلك قوله في رثاء شرف الدولة :

أَيْنَ السَّرِيرُ وَقَدْ قَامَ السَّمَاطُ لَهُ	إِجْلَانُ أَرْوَغِ عَالِي الْقَدِّ بَسَامِ
أَيْنَ الْجِيَادُ تَنْزَى فِي أَعْنَبِيَا	يَطْلُبِينَ يَوْمًا قُطُوبًا وَجَنَّةً كَامِ
أَيْنَ الْفَيَونُ كَانَ الْمُتَطَيَّنُ لَهَا	عَلَى ذَوَائِبِ أَصْوَادٍ وَأَعْلَامِ
أَيْنَ الْوُفُودُ عَلَى الْأَبْوَابِ مُذَكَّرَةٌ	بِالْفَرْطِ مِنْ مَجْدِ أَحْوَالٍ وَأَعْمَامِ
أَيْنَ الْمَرَاتِبُ ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَى قَدَمِ	مَوْفُوفَةٍ بَيْنَ أَرْمَاحٍ وَأَقْلَامِ ^(٢)

وقد كان للقافية نور كبير في القيام بالجانب الإيقاعي في مرثي الرضي ، والقافية هي

" عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة ، وتكررها هذا يكون جزءا

هاما من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية ، يتوقع السامع تردها ، ويستمتع

بمثل هذا التردد الذي يضرب الأذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات

نظام خاص يسمى الوزن ^(٣) ، لذلك فإن القافية تضطلع بتنظيم تدفق الإيقاع ، وتقود النغم في

اتجاه واحد يؤدي في النهاية إلى إرضاء السامع ، بما يحققه له من توحيد في النهايات الموسيقية

للأبيات ، كما أن مثل هذا يشبع حاجة الشاعر إلى إغناء شعره الذي هو صورة عن غنى

انفعالاته وتنوعها . ويبدو أن الشريف الرضي قد استعمل حروف العربية جميعا قوافي لمرثيته

ما خلا ثمانية منها ، وهي : (الحاء ، والذال ، والضاد ، والعين ، والغاء ، والهاء ، والنواو) ،

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على امتلاكه ناصية اللغة ، وأخذها بمجامعها ، حتى استطاع

تطويعها لنفسه الشاعرة ، التي ما انشئت تصرفيا أنى شأمت ، حتى في مواقف الحزن والتفجع ،

إلا أن حظ بعض الحروف في القافية أقل من بعض ، فقد استعمل بعض الحروف مرة واحدة ،

وهي : (الألف ، والناء ، والجيم ، والحاء ، والزاي ، والسين ، والشين ، والصاد ، والكاف ،

^(١) إبراهيم أبس - موسيقى الشعر - ١٤٥ .

^(٢) الديوان ٢ : ٣٥٢ .

^(٣) إبراهيم أبس - موسيقى الشعر - ٢٤٦ .

كما استخدم (الطاء والياء) في قصيدتين لكل منهما ، بينما أكثر من استخدام بعض الحروف قوافي لمراثيه ، وأكثرها (الباء) في ثلاث عشرة قصيدة ، يليه (العين واللام) في اثنتي عشرة قصيدة ، ثم (الراء) في ثماني قصائد ، ثم (الذال والنون) في سبع قصائد ، ثم (الميم) ، ثم (القاف) . والجدول التالي يوضح النسب المئوية للقافية في مراثي الشريف الرضي :

القافية	عدد القصائد	النسبة المئوية
الشين	١	%١
الصاد	١	%١
الطاء	٢	%٢
العين	١٢	%١٣,٥
القاف	٥	%٦
الكاف	١	%١
اللام	١٢	%١٣,٥
الميم	٦	%٧
النون	٧	%٨
الياء	٢	%٢

القافية	عدد القصائد	النسبة المئوية
الهمزة	٤	%٤
الألف	١	%١
الباء	١٣	%١٥
التاء	١	%١
الثاء	١	%١
الجيم	١	%١
الخاء	١	%١
الذال	٧	%٨
الراء	٨	%٩
الزاي	١	%١
السين	١	%١

جدول رقم (٢)

ويلاحظ من هذا أن الرضي قد أكثر من استخدام القوافي التي درج الشعراء العرب على استعمالها ، وهي (الباء ، والعين ، واللام ، والراء ، والنون ، والذال ، والميم) ، وهي القوافي الذلل ، التي فضلها الشعراء على غيرها . والقافية في مراثي الشريف كانت في الغالب منسجمة مع موضوع القصيدة وهو التفجع والبكاء ، ولذلك أكثر من استخدام حرف الباء والعين الشديتين ، وخاصة العين التي أكثر شعراء الرثاء من النظم عليها ، كما أن (اللام والميم) تحتويان على غنة لذيذة تشابه إلى حد ما ، تلك الغنة التي تظهر عند البكاء . ولعل قصيدته في رثاء الملك قوام الدين ، تمثل هذه الناحية تمثيلاً جيداً ، فقافية هذه القصيدة هي العين المضمومة، المسبوقة بحرف اللين،الياء أو الواو،مما يطيل مدى زفراته ويذكر السامع بكلمة (دموع)، فيقول :

أظنَّ اللَّيالي ، بَعْدَكُمْ ، سَتَرِيْعُ فَمَنْ يَبْقَى لِي مِنْ رَائِعٍ فَتْرُوعُ

خُذِي عِدَّةَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ
 وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي لِلْأَحِبَّةِ قَدْ أَنْصَى
 وَكُلُّ أَتَا جَارِ ذَلِكَ الْعَيْدِ بِالنِّكَا
 نَقْدُ جَنْ قَدَرُ الرُّزْءِ أَنْ يَبْلُغَ الْبُكََا
 لِكُنْ نِزَاعٍ ، يَا أُمِّمَ ، نَزُوعُ
 قَلْبِي سُوًى ، وَاطْمَأْنَنَ وَلُوعُ
 وَنُوْ أَنْ كَحَلَّ الْمَاقِيْنَ نَجِيعُ
 مَدَاهُ ، وَلَوْ أَنَّ الْقُتُوبَ دُمُوعُ^(١)

الصورة الشعرية

تعد الصورة عنصراً هاماً وجزءاً ضرورياً في البناء الشعري ، لأن الشعر قائم على الصورة ، منذ أن وجد حتى اليوم^(٢) . وقد اهتم شعراء القرن الرابع عامة بالصورة ، وبذلوا جهوداً فنية في إخراجها ، وقد شهد لهم بذلك الشعالي ، حيث أكثر من التعليق على صورهم ، معرباً عن استحسانه لها^(٣) . فقدموا لسامعهم المزيد من الصور الشعرية والتشكيلات الفنية البديعة والجميلة في ردائها^(٤) . فالشاعر يعبر عما يجيش في نفسه من أحاسيس والانفعالات وعواطف ، باللجوء إلى الركائز الأساسية من التشبيه والاستعارات والكناية ، لإضفاء حسن البيان على صورته الشعرية التي يستعين بها في نقل أفكاره وأحاسيسه للمتلقى ، حيث تتبع أهمية الصورة الشعرية من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى ، وتأثيرها في المتلقي^(٥) ، لأن " تحديد الصورة الفنية ، أو وصف طبيعتها يعتمد على ما تحدثه في نفس متلقيها من وجود للاستجابة ، وأبعاد دلالية وإيحائية"^(٦) . وشعر الرثاء تتجلى فيه العاطفة الحزينة ، أو عاطفة الإعجاب الحزينة ، أما الأولى فتتعلق بالرائي ، وتتعلق الثانية بالمرثي ، فالرائي يعرض عواطفه الحارة والانفعالات المتنوعة ، وشعوره الحزين ، ويحاول أن يخلق صور الحزن على

(١) الديوان : ١ ، ٦٣٠-٦٣٣ .

(٢) إحسان عباس - في الشعر ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ١٩٣ .

(٣) نصر الشعالي - نيمة الدهر : ١ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ .

(٤) الطر بيل أبو حاتم - شذاهات الشعر في القرن الرابع الهجري : ٩٥ .

(٥) حابر عثمور - الصورة الفنية في التراث الفكري والادبي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ١٩٨١ ، ٣٦٤ .

(٦) شكري موسى - الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٤ ، ١٩ .

شخصه متمثلاً ذلك من أعماق روحه ، حيث يتأتى له ذلك عن طريق التشبيه والاستعارة والكنزية . أمّا عاطفة الإعجاب الحزين ، فإن الشاعر نتيجة إعجابه بالمرثي إعجاباً مقترناً بالحزن على فقدّه ، يحاول أن يعلي من شأنه ويجعله يستحق ثناءه وإعجابه ، ولا يتأتى له ذلك إلا عن طريق أضرب البيان السابقة ، لأن هذه الأضرب تهدف إلى الإيضاح ، ' فترى بها الجماد ناطقاً والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبيّنة ، والمعاني الخفية بادية جليلة ' (١) ، وقد اتخذ الشريف الرضي من الصورة الشعرية وسيلة للتعبير الفني عن أفكاره ومشاعره ، معتمداً في تشكيلها على الوصف من خلال الأساليب البنائية التي ذكرناها ، ومن هنا فسنتناول الصورة الشعرية في مرثيه من خلال ثلاثة محاور شكلت قصيدة الرثاء لديه ، وهي صورة الفقيد ، وصورة الرائي ، وصورة المنية .

١. صورة الفقيد :

اعتمد الشريف الرضي على التشبيه كثيراً في بيان صورة الفقيد ، حيث تكون أحزان الشاعر قد هدأت وامتزجت بالفخر بالمرثي ومديحه ، لأن التشبيه لا يستخدم في حالة الانفعال الشديد (٢) . وقد برز التشبيه البليغ جلياً حيث أكثر الشاعر من تشبيه المرثي بالجبل والهضبة ، والبالز ، والسيف ، والأسد ، والربيع ، وغيرها ، حيث جاءت هذه الصور في معظم مرثيه للعظماء والقادة وأمراء العرب ، وفي رثائه لأبيه ، ولصديقه أبي إسحاق الصائبي ، ومن أمثلة ذلك قوله في رثاء الصائبي :

جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي الْبَحْرِ اغْدَى مِنْ وَقْعِهِ مُتَّابِعَ الْإِزْبَادِ (٣)

وقوله في رثاء الصاحب بن عباد :

(١) انحرابي - أسرار الملاحة في علم البيان ، علق حواشيه محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .

(٢) انظر شوقي صيب - في النقد الأدبي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ص ١٧١ .

(٣) السبوت ١ : ٤٢٥ .

يَا صَوْدُ ! كَيْفَ وَأَنْتَ عَادِي الذُّرَى أَلْقَى بِجَانِبِكَ الرَّدَى زِلْزَالاً^(١)

قوله في رثاء أبي منصور الكاتب يشبهه بالجبل :

وَجَبَلٍ كَانَ يُسَكِّنُهُ بِهِ مِنْ النَّيَالِي فَسَاحٍ فِي الشُّرْبِ^(٢)

أما أبو الهيثجاء ، وأخوه أبو فراس الحمداني ، فقد شبيهما ببازلين مقرمين ، فقال :

هُمَا ابَاَزِلَانِ الْمُقَرَّمَانِ تَقْوَبَا عُرَى الْمَجْدِ لَمَّا عَجَّ بِالْعَبَاءِ لَاهُتُ^(٣)

وقال في رثاء الحيرة مشبهاً رجالها الذين مضوا بالأسود :

وَرَجَالٍ مَثَلُ الْأَسْوَدِ مَثَوَا فِيْ — لَكَ تَدَاعَوْا قَوَائِمًا وَشِفَارًا^(٤)

ومن ذلك تشبيه عمه بالسيف والسنان والربيع ، كما يقول :

حَسَامٌ جَلَا عَنْهُ الزَّمَانُ فَصَمَمَتْ مَضَارِبُهُ حِينًا وَعَادَ إِلَى الْغَمْرِ
سِنَانٌ تَحْدَثُهُ السُّرُوعُ بِزَغْفَرِهَا فَبَدَأَ أَعْيَانُ الْمُضَاعَفِ وَالسَّرْدِ
رَبِيعٌ تَجَلَّى وَانْجَلَّى وَوَرَاءَهُ ثَنَاءٌ كَمَا يَشَى عَلَى زَمَنِ الْوَرْدِ^(٥)

ومن التشبيه التمثيلي قوله في رثاء الصابي :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الرَّبِيعُ وَإِثْرُهُ بَاقٍ بِكُلِّ خَمَائِلٍ وَنَجَادٍ^(٦)

ومن التشبيه الضمني قوله في رثاء بهاء الدولة :

طَوَيْتُكَ طَيَّ الْبُرْدِ لَمْ يَنْضَ عَنْ بَلَى وَقَدْ يَغْمَدُ الْمَضْرُورُ وَهُوَ صَنِيعُ^(٧)

كما اعتمد الشاعر على التشبيه في تصوير جمال المرثي وحسنه ، ومن ذلك قوله في

رثاء الحسين بن علي :

(١) الديوان ٢ : ١٧٦ .

(٢) الديوان ١ : ٣١٩ .

(٣) الديوان ١ : ٢٩١ .

(٤) الديوان ١ : ٥٣٥ .

(٥) الديوان ١ : ٥٢٢ .

(٦) الديوان ١ : ٤٢٩ .

(٧) الديوان ١ : ٦٣٢ .

يَا جِبَالَ الْمَجْدِ عِزًّا وَعُلا
وَبُدُورَ الْأَرْضِ نُورًا وَسَنَا^(١)

وقوله في رثاء قوم من عشيرته :

وَكَمْ وَاضِحٍ مِّنْكُمْ كَالْبِلَدِ
لِ ، هَالَتْ يَدَايَ عَلَيْهِ الْكَثِيبَا^(٢)

وهذه صورة إعجاب حزين ، تظهر سرعة غياب الفقد ، إذ اختزمت المنون قبل أن
يكتنن ويصبح بديرا . ومثل ذلك تشبيهه لوجه المرثي بلمح البرق ، حيث كان سريع الأفول ،
وغيب في الثرى ، كما يقول في رثاء الخليفة الطائع لله :

وَجْهٌ كَلَمَحِ الْبَرْقِ غَاضٌ وَمِيطُوهُ
قَلْبٌ كَصَدْرِ الْعَصَبِ فُلٌ مَضَاوُهُ^(٣)

ومن التشبيه التمثلي ، قوله في رثاء الملك شرف الدولة :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الرَّبِيعُ اسْتَبَدَّ بِهِ
بَرْغَمٌ أَعْيُنِي ، جَلَبَابُ إِظْلَامِ^(٤)

وقد استعار الشاعر صورة الشمس والقمر والليل ، حيث صور حسن المرثي وجماله
كذلك ، والأمثلة في هذا كثيرة منها قوله في رثاء أبي طاهر الحمداني :

فَجِئْتُ سَمَاوَكِ بِالشَّمْسِ وَحَوْلَتِ
عَلَيْهَا وَعَنْكَ مَطَالِيعُ الْأَقْمَارِ^(٥)

وقوله في رثاء آل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قصيدة كربلاء :

تَكَيْفُ الشَّمْسُ شُمُوكَا مِنْهُمْ
لَا تَدَانِيهَا ضِيَاءٌ وَعُلا^(٦)

وقال في رثاء أبي شجاع :

هَوَى قَمَرُ الْأَنَامِ وَكَانَ أَوْفَى
عَلَى قَمَرِ السَّمَاءِ عُلَا وَرَادَا^(٧)

وقوله في تعزية ابن الملك بهاء الدولة ونهنته بالملك :

^(١) الديوان : ١ : ٩٧ .

^(٢) الديوان : ١ : ٢٣٣ .

^(٣) الديوان : ١ : ٧٨ .

^(٤) الديوان : ٢ : ٣٥٣ .

^(٥) الديوان : ١ : ٥١٩ .

^(٦) الديوان : ١ : ٩٤ .

^(٧) الديوان : ١ : ٤١٩ .

تَمْضِي الْعُلَا وَإِلَى ذُرَاكُمْ تَرْجِعُ شَمْسٌ تَغِيبُ لَكُمْ وَأُخْرَى تَطْلُعُ^(١)

وقد أفاض الشاعر في وصف قيم المرثي ، وخاصة الشجاعة والكرم والسيادة ، ومن

ذلك قوله في رثاء قوم من أصدقائه وأهل بيته :

نُجُومٌ ، إِذَا شَهِدُوا الْأَنْدِيَا تَ رُجُومٌ ، إِذَا مَا أَقَامُوا الْحُرُوبَا^(٢)

وقال في رثاء ابن ليلي :

كَفَكَانَ كَلْبِدَةُ الضَّرْعَامِ عِزًّا إِذَا ذَلَّ الْمَوْقِعُ لِلْخُصُومِ^(٣)

ووصف مكانة أبي حسان المقلد بن المسيب بقوله :

يُحْيُونَ مَرْهُوبًا كَانَ رِوَاقَهُ وَابِجَةٌ مَفْتُولُ الذَّرَاعَيْنِ مُبْدِ^(٤)

وقال في رثاء الصابي :

حَمَّالُ الْوَيْلَةِ الْعَلَاءِ بِنَجْدَةٍ كَالسِّيفِ يُغْنِي عَنْ مَنَاطِ نَجَادِ^(٥)

كما وصف شجاعة أبي العوام بن ليلي بقوله :

وَيَكُونُ لِلْوَقِيعَةِ ذِي أَوَارٍ كَكَبِيرِ النِّقَنِ أَوْقِدَ فَاسْتَشَاطَا
فَرَقَّتْ جُمُوعُهُ فَرَّقَ الْعَنَاصِي وَكَدَ مَرَجٍ الضَّعَانُ بِهِ اخْتِلَاطَا^(٦)

فأبى ليلي بطل شجاع يفرق جموع العدو كما تفرق القطعة من الإبل ، إذا اشتدت

المعركة ، وحمى الوطيس .

ومن التشبيه التمثيلي ، قوله يصف كرم قوم من عشيرته عند رثائهم :

وَتَأْخُذُهُمْ فِي سَاعَةِ الْجُودِ هِزَّةٌ كَمَا خَايَلُ الْمِطْرَابِ عَنْ نَزْوَةِ الْخَمْرِ^(٧)

(١) الديوان : ١ : ٦١٢ .

(٢) الديوان : ١ : ٢٣٢ .

(٣) الديوان : ٢ : ٢٧٠ .

(٤) الديوان : ١ : ٤١٦ .

(٥) الديوان : ١ : ٤٢٨ .

(٦) الديوان : ١ : ٦٠٢ .

(٧) الديوان : ١ : ٥٣١ .

وقد اعتمد الشاعر على الكناية كثيراً في تصوير هذه القيم ، حيث تمتاز عاطفة الاعتزاز بعاطفة الحزن ، مما يؤدي إلى التخفيف من حدة العاطفة الناتجة ، وتكثر الكناية عن عفة المرثي وكرمه وسيدته ، لأن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح^(١) .
ومن أمثلة الكناية ، قوله وهو يرثي قوماً من عشيرته :

تَرَى كُلَّ ذِيَالٍ الْعِصَافِ كَالْمُكَا تَفْرَجُ مِنْهُ النَّيْلُ عَنْ قَمَرٍ بَدْرٍ^(٢)

ففي قوله " ذِيَالِ الْعِصَافِ " كناية عن السيادة وسمو المكانة ، وقال في رثاء أبي طاهر الحمداني :

رَكِبُوا رَمَاهِمُ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ أُمَمَ الْعُلَى ، وَجَرُّوا بَغِيرَ عَثَارٍ^(٣)

وفي البيت كناية عن النيج الذي سار عليه الحمدانيون في بناء مجدهم الذي وصلوا إليه

بالرماح . ومن ذلك قوله في رثاء نقيب العباسيين أبي القاسم الزينبي :

مَضَى أَمَلُ الْأَثْوَابِ لَمْ يَخَرْ مَدَاحٌ بِإِطْنَاهِ فِيهِ ، وَلَمْ يُزِرْ عَائِبٌ^(٤)

ففي قوله : " أَمَلِ الْأَثْوَابِ " كناية عن عفته ونزاهته . وقال في رثاء الحسين بن علي واله :

كَمْ حَصَانِ الذَّيْلِ يَرْوِي كَمُعُهُمَا حَذَاهُ عِنْدَ قَتِيلٍ بِالْظُّمِ^(٥)

ففي قوله : " حَصَانِ الذَّيْلِ " كناية عن العفة ، وقوله " قَتِيلٍ بِالْظُّمِ " كناية عن موصوف

وهو الحسين بن علي رضي الله عنهما ، ومن الكناية عن صفة الكرم ، قوله في رثاء أهل

الخير :

الْمُهَيَّبُونَ بِالضُّيُوفِ إِذَا هَبَّ نَبْتُ شِمَالٍ وَالْمُوقِدُونَ النَّارَ^(٦)

ففي قوله : " وَالْمُوقِدُونَ النَّارَ " كناية عن صفة الكرم .

(١) الجرجاني - دلائل الإعجاز في علم المعاني ، فرائد وعثر عليه محمود محمد شاكر ، دار البدر الحديثة للطباعة ، ص ٣٠ .

(٢) ١٩٩٢ ، ص ٧٠ .

(٣) الديوان : ١ : ٥٣٢ .

(٤) الديوان : ١ : ٥٢٠ .

(٥) الديوان : ١ : ٢٠٧ .

(٦) الديوان : ١ : ٩٣ .

(٧) الديوان : ١ : ٥٣٥ .

وقد شُخص الشاعر مظاهر الطبيعة ، فصورها تبكي على المرثي وتذرف الدموع

وتلبس الحداد . وتجلّى ذلك في رثائه لقاضي القضاة ابن معروف ، يقول :

وَقَلَّ لِقَبْرِ أَنْتَ سِرٌّ ضَمِيرٌ بُكَاءُ الْغَوَاذِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَرْبَعٍ^(١)

وقال في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني :

بَكَرَتْ عَلَيْكَ سَحَابَةٌ نَفَاحَةٌ تَلْقَى زَلْزَلَهَا عَلَى الْأَقْطَارِ
شَهَاقَةٌ أَسْفَاً عَلَيْكَ بِرَعْدِهَا طَوْرًا ، وَبَاكِئَةً بِعَذْبِ قِطَارِ^(٢)

ومن ذلك قوله في رثاء أبي الفتح بن الطائع :

قَبْرٌ تَشَبَّهَ بِالنَّسِيمِ تَرَابُهُ دُونَ الْقُبُورِ وَعَقْلُ الْأَنْوَاءِ
مُتَهَلِّلُ الْجَنَابِ تَضْحَكُ أَرْضُهُ فَكَأَنَّ بَيْنَ فُرُوجِهِ الْجُوزَاءِ
وَتَظُنُّ كُلَّ غَمَامَةٍ وَقَفَتْ بِهِ تَبْكِي عَلَيْهِ تَوَدُّدًا وَوَلَاءَ^(٣)

فالشاعر هنا - كما في الأمثلة السابقة - يشخص الحسي ويجسمه ، فتراب القبر تشبّه

بالنسيم ، وعقل الأنواء ، والقبر مشرق الجوانب تضحك أرضه فرحاً بوجوده فيها ، وكان هذا

القبر يضم بين فروجه الجوزاء بما فيها من نجوم ، فتظن كل غمامة تبكي على صاحب هذا

القبر تودداً ، وهي صورة مبنية على الافتراض والظن ، لذلك استعمل الشاعر معها فعل الظن .

ومن جميل استعاراته في هذا المجال ، وقد عدّها ابن معصوم المدني^(٤) ، من أبدع الاستعارات ،

قوله يرثي بعض الناس :

أَرْسَى النَّسِيمُ بَوَادِيَكُمْ وَلَا بَرَحَتْ حَوَامِلُ الْمُرْنِ فِي أَجْدَانِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ النَّبْتِ تُرْضِعُهُ عَلَى قُبُورِكُمْ الْعَرَّاصَةُ الْهَمِيعُ^(٥)

^(١) الديوان : ١ : ٦٤٥ .

^(٢) الديوان : ١ : ٥٢١ .

^(٣) الديوان : ١ : ٧٠-٧١ .

^(٤) ابن معصوم - انوار الربيع : ١ : ٢٧٩ .

^(٥) الديوان : ١ : ٦٥١ .

وكثيراً ما نرى الرضي يعتمد بالاستعارة إلى إعطاء المعنويات صوراً مشخصة تكون ظاهرة للعيان ، ومن بديع استعاراته التي يعتمد فيها إلى التشخيص قوله في رثاء بهاء الدولة :

قَدْ أَدهَشَ الْمَلِكُ قَبْلَ الْيَوْمِ مِنْ حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْيَوْمُ أَذْرَى دَمْعَهُ وَيَكِي^(١)

فقد جسم الملك وأعطاه صورة مشخصة عندما جعله يدهش ويكي .

وقال في رثاء أبي شجاع بكر بن أبي الفوارس :

كَانَ النَّاسُ بَعْدَكَ فِي ظِلَامٍ أَوْ الْإَيَّامُ الْبُسْتُ الْحِدَادَا^(٢)

فجعل الأيام كالنساء التكنى تبس الحداد . ومن ذلك قوله في رثاء أبي الفتح بن الطائع :

وَأَسْوَدَ شَطْرُ الْيَوْمِ تَرَجَفَ شَمْسُهُ فَفَقَا وَجَرَ ضِيَاؤُهُ الظُّمَاءُ^(٣)

حيث جعل الشاعر الضياء يجر الظماء .

٢. صورة الراشي :

اهتم الشريف الرضي بتصوير أثر الفقد في نفسه ، وتصوير حالته بعد فقد من يرثيه ، وانعكاس المصيبة عليه وعلى سلوكه ، مع ما يرافقها من مشاعر وانفعالات تتصاعد . فربط الصورة الشعرية بنفسية الشاعر وأحاسيسه يوقفنا على عمق أكثر ، وصدق أكبر في فهم الصورة^(٤) .

وقد اعتمد الشاعر على التشبيه في تصوير أحزانه ، ومن ذلك قوله في رثاء أمه :

أَوْيَ إِلَى بُرْدِ الظَّلَالِ كَأَنِّي لِيَحْرُقَنِي أَوْيَ إِلَى الرَّمْضَاءِ
وَأَهْبُ مِنْ طِيبِ الْمَنَامِ نَفْزَعًا فَزَعِ اللَّذِيعِ نَبَاً عَنِ الْإِغْفَاءِ^(٥)

وقد صور الشاعر حالة حزنه كلما عاودته ذكرى عاشوراء ، فقال مخاطباً هذا اليوم :

(١) الديوان ٢ : ٩١ .

(٢) الديوان ١ : ٤٢٠ .

(٣) الديوان ١ : ٧٠ .

(٤) محمدر صالح - رثاء الأئمة في الشعر العربي ١٦٣ .

(٥) الديوان ١ : ٧٥ .

مَا عُدَّتْ إِلَّا عَدَا قَلْبِي غَنَةً حَرَى وَلَوْ بَالِغَتْ فِي إِبْرَادِهَا
مَثَلُ السَّيِّمِ مَضِيطَّةٌ أَنْوَهُ خَرَرُ الْعَيُونِ تَعَوُّدُهُ بَعْدَادِهَا^(١)

وقد صور الشاعر قلبه ينزو لتذكر أحيائه كما تنزو القطاة في شرك الصيد ، يقول :

إِنِّي أَرَى الْقَلْبَ يَنْزُو لِأَذْكَارِهِمْ نَزُو الْقَطَاةِ ، مَدُوا فَوْقَهَا الشُّرَكَ^(٢)

وقد استلهم الشاعر كثيراً من صورته التي عبر فيها عن مدى حزنه ، من البيئة البدوية ، واتكأ في كثير منها على الأساليب التصويرية القديمة ، وخاصة عندما يرثي بدوياً كابن ليلي ، حيث يقول في رثائه :

وَأَنْشُدُهُ وَأَعْلَمُ أَنَّنِ أَمْسَى مَطْطَا لَإِلْبَابِي وَالْيُمُومِ
كَأَدْمَاءِ الْقِرَا نَشَنَتْ طَلَاهَا وَمَا وَجَدَانُ جَارِيَةٍ بَغُومِ
تَطِيعُ الْيَأْسَ ثُمَّ تَعُودُ وَجَدَا إِلَيْهِ بِالمَقْصَصَةِ وَالشِّمِيمِ^(٣)

فالشاعر يصور نفسه وهو ينشد صاحبه المفقود ، بظبية فقدت صغيرها وأخذت تبحث عنه ، فهي حيناً تطيع اليأس ، وحيناً تذهب تتشم وتقصص آثاره ، وهذا وهم يقابل اللحظات الأولى عند الشاعر ، حين يعيش بين مصدق ومكذب لخبر الموت ، كما يقول الرضي كذلك في رثاء ابن ليلي :

أَحِنُّ إِلَيْهِ وَالنَّقِيَّاءُ ضِمَارٌ حَنِينُ الْعَوْدِ لِلْوَطَنِ الْقَدِيمِ^(٤)

فيؤيحن إلى صديقه حنين البعير لوطنه القديم .

كما اعتمد الشاعر على الكناية في تصوير حزنه ، فكفى عن ذلك بشق الجيوب وعض الأنامل وغيرها . ومن ذلك قوله في رثاء الصاحب بن عباد مصوراً حال الناس حين رأوا نعشه ، وهو واحد منهم :

(١) الديوان ١ : ٤١٠ .

(٢) الديوان ٢ : ٩٣ .

(٣) الديوان ٢ : ٢٦٩ .

(٤) الديوان ٢ : ٢٦٩ .

عَضُّ الْأَنَامِلِ يَمْنَةً وَشِمَالًا
إِلَّا أَنَامِلَ ثَلَاثٍ مِنْكَ سَجَالًا^(١)

وَتَبَادَرُوا عَطَّ الْجُيُوبِ ، وَعَاجَلُوا
مَا شَقَقُوا إِلَّا كُتَاكَ ، وَالْمُؤَا

وقوله في رثاء قوم من أصدقائه وأهل بيته :

عَلَيْكُمْ عَصَابُ عَطُوا الْجُيُوبَا^(٢)

فَقُولَا الْحَيَاءُ نَعَطَّ الْقُلُوبَ

ومن ذلك قوله في رثاء ابن جني :

عَلَى ثَامِرٍ مِنْ فَرْعٍ مَجْدٍ وَوَارِقٍ^(٣)

أَعْضُ بَنَانِي إِصْبَعًا ثُمَّ إِصْبَعًا

فقوله : ' أعض بنائي ' كناية عن صفة الندم .

وقوله في رثاء قاضي القضاة ابن معروف :

بِدَمْعٍ يَزِيدُ الْوَجْدَ أَوْ عَضُ إِصْبَعٍ^(٤)

إِذَا انْتَصَرَ الْمُحْزُونُ كَانَ انْتِصَارُهُ

حيث يكتفي عن الندم بقوله : ' أَوْ عَضُ إِصْبَعٍ ' .

وهكذا فإن الشاعر قد اعتمد على التشبيه والكناية في تصوير أحزانه ، أكثر من اعتماده

على الاستعارة ، إذ كانت قليلة ، ومن أمثلتها قوله في رثاء أبي الفتح :

لَمَّا نَعَاكَ الدَّاعِيَانِ مَشَى الْجَوَى^(٥) بَيْنَ الْقُلُوبِ وَضَعَّضَعَ الْأَحْيَاءُ^(٦)

فقد شبه الجوى بالإنسان ، وحذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو المشي ،

على سبيل الاستعارة المكنية .

وقوله في رثاء عمه :

تَمْطَى بِقَلْبِي ضَاقَ عَنْ مَرَّةٍ جُلْدِي^(٧)

زَفِيرًا تَهَادَاهُ الْجَوَانِحُ كُلَّمَا

(١) الديوان ٢ : ١٨١ .

(٢) الديوان ١ : ٢٣٥ .

(٣) الديوان ٢ : ٥٩ .

(٤) الديوان ١ : ٦٤٥ .

(٥) الديوان ١ : ٧٠ .

(٦) الديوان ١ : ٤٢١ .

(٧) الديوان ١ : ٤٢١ .

فقد شبه الزفير هذا بالبعير ، وحذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو
 "تمطى" ، على سبيل الاستعارة المكنية كذلك .

وكما قدم الشاعر صوراً جزئية تعتمد على التصوير والتشخيص في بيت أو أكثر ، فقد
 قدم صوراً كليةً محبوكة ، تحتوي معظم عناصر المشهد التصويري ، وتبرز هذه الصور كثيراً
 في وصف المطر الذي يستقيّه الشاعر لقبر المرثي ، ومن أمثلة ذلك قوله يرثي والدته :

لَا زَالَ مُرْتَجِزُ الرُّعُودِ مُجَلِّجٌ	كَهَرَجُ الْبُورِقِ مُجَلِّبُ الضُّوْضَاءِ
يَرْغُو رَغَاءَ الْعُودِ جَعَّجَعَهُ السُّرَى	وَيَنْوَأُ نَوَاءَ الْمُقَرَّبِ الْعُشْرَاءِ
يَقْتَادُ مُنْقَلَبَةَ الْغَمَامِ كَأَنَّمَا	يَنْهَضُنَ بِالْعَقَدَاتِ وَالْأَنْقَاءِ
يَنْفُو بِهَا جَنَحَ الدُّجَى وَيَسُوقُهَا	سَوَاقَ الْبِطَاءِ بِعَاصِفٍ هَوَّجَاءِ
مُتَحَلِّبًا عَذْرَاءَ كُلِّ سَحَابَةٍ	تَغْذُو الْجَمِيمَ بِرَوْضَةٍ عَذْرَاءِ ^(١)

وهو مشهد غني بالصور والإيحاءات والألوان ، وبرزت فيه بصورة جليلة ، الألفاظ
 الدالة على الحركة والصوت ، التي استعان بها الشاعر على تشكيل صورده . وفي هذه الصورة
 يقوم نمط التصوير على أمرين : أولهما وصف السحابة والمطر ، وثانيهما ذكر الحركة القلقة
 المتعبية المنقلبة ، وهو ظاهر من خلال استخدام الألفاظ : "مرتجز" ، مجلجل ، الضوضاء ،
 يرغو ، جعجعه ، يققاد ، ينهضن ، وهذا ما يثير إلى أن الرضي كان ذا همة عالية ، وعزيمة
 لا تثنين ، يعمل بجد لتحقيق ما يصبو إليه^(٢) .

أمّا البكاء فقد صور بدقة مشاعره وأحاسيسه ، حيث صور الشاعر الدموع صوراً تدل
 على استمرارها وغزارتها، وقد تمثل ذلك في رثاء صديقه ابن ليلى ، حيث صور غزارة دموعه
 وشدة انصبابها ، بمياه القربة التي يخصخضها صاحبها صباح مساء ، كما يقول عن مقتلته :

(١) الديوان ٧٦ : ٧٧ .

(٢) انظر عبد الطيف عمران - شعر الشريف الرضي ومطقاته الفكرية ٣١٠ - ٣١١ .

كَأَنَّ بَيْتَ رَكِيكَةٍ مُسْتَمِيتٍ يُخَضِّضُ بِهَا بُكُورًا وَلَا لَاجًا^(١)

فالشاعر يصور في هذا البيت غزارة دموعه وديمومتها ، ولهذا الديمومة دلالة عند

الشاعر على اتصال البكاء ، حتى يؤخذ بثأر داعيته ابن ليلي من بني تميم . كما صور الشاعر

غزارة دموعه وديمومتها كذلك ، حين شبه عينه بالجرح الذي ينزف أبداً ولا علاج له ، فيقول

في رثاء ابن ليلي كذلك :

كَأَنَّ الْعَيْنَ بَعْدَ الْيَوْمِ جُرْحٌ إِذَا طَبَّوْا لَهُ غَلَبَ الْعِلَاجُ^(٢)

وقد شبه الشاعر في بعض مرثياته غزارة دموعه بفيض الدلو العظيمة ، وهي من أكثر الصور

شيعاً في المراثي الجاهلية وعصر صدر الإسلام^(٣) . ومن ذلك قوله في رثاء صديقه البتي :

وَالدَّمْعُ لَا يَرْقَا لَهُ غَرِبَ كَأَنَّ الْعَيْنَ شَرِبَ^(٤)

كما صور الشاعر دموعه تجري غروبه دون انقطاع ، ومن ذلك قوله في رثاء بعض الناس :

أَنْزَفْتُ دَمْعِي حَتَّى مَا تَرَكْتُ لَهُ غَرِبًا يَفِضُّ عَلَى رُزءٍ إِذَا يَقَعُ^(٥)

وقوله في رثاء قاضي القضاة ابن معروف :

وَلَا عَيْنَ إِلَّا الدَّمْعُ تَجْرِي غُرُوبَهُ فَالْقَاقِ بِهِ الْمَقْدُورُ إِنْ شِئْتَ أَوْدَعُ^(٦)

وقد صور الشاعر غزارة دموعه بالمطر المنهمر الغزير ، كما في قوله :

وَأَذُودٌ عَنْ عَيْنِي الدَّمُوعُ وَلَوْ خَلَّتْ لَجَرَّتْ عَلَيْكَ يَوَابِلُ غَيْثٍ^(٧)

وقوله في رثاء صديقه :

^(١) الديوان ١ : ٣٠١ .

^(٢) الديوان ١ : ٣٠١ .

^(٣) أحمد موسى يعقوب - شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى هبة العصر الأموي . رسالة ماجستير . جامعة اليرموك ، برنس - الأردن ،

١٩٩٦ ، ١٤٧ .

^(٤) الديوان ١ : ٢٣٨ .

^(٥) الديوان ١ : ٦٥١ .

^(٦) الديوان ١ : ٦٤٤ .

^(٧) الديوان ٢ : ٦٨ .

أَحْمَدُ ، كَمْ لِي عَلَيْكَ مِنْ كَمَدٍ بَاقٍ ، وَمِنْ جُودٍ أَدْمَعٍ سَرِبٍ^(١)
حيث يشبه الشاعر غزارة الدموع بالمطر .

ومن المشاهد التصويرية التي عمد إليها الشاعر ، ما صور به حالته عند موت من يحب، وانعكاس المصيبة عليه وعلى سلوكه ، مع ما يرافق ذلك من آفات وانفعالات ، كما يقول في رثاء والدته :

فَارَقْتُ فِيكَ تَمَاسُكِي وَتَجَمُّلِي وَنَسِيتُ فِيكَ تَعَزُّزِي وَإِبَائِي
وَصَنَعْتُ مَا تَلَمَّ الْوَقَارُ صَنِيعُهُ مِمَّا عَرَانِي مِنْ جَوَى الْبُرْحَاءِ^(٢)

وقال في رثاء والده ، مصورا انعكاس هذه المصيبة عليه :

أَعْرَيْتَ ظَهْرِي لِلْعِدَا ، وَلَوْ اتَّقَى بِزُهَاءِ مَزْدَحِمِ الْعَدِيدِ عَرْمُكُمِ
وَكَشَفْتَ لِلْأَيَّامِ عَوْرَةَ مَقْتَلِي حَتَّى رَدَدْنِ عَلَيَّ بَعْدَكَ أَسْهُمِي
قَدْ كُنْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَهَامِهَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْطِئُ شَاكِلَةَ الرَّمِي^(٣)

فموت والده مصيبة كشف للأعداء عورة مقتله ، ولو اتقى بجمع من الأعوان والأنصار ، لأن أباه كان بينه وبين سهام الأعداء كالمجن ، أما وقد ذهب ، فإن السهام لا تخطيء مرماها .

٣. صورة المنية :

اهتم الشريف الرضي في مراثيه بتصوير الموت ، واعتمد في ذلك بشكل خاص على الاستعارة ، " لأنها هي التي تلائم ثورة العاطفة وحدة الوجدان "^(٤) ، فصوره موردا يردده الناس كلهم ، وكأسا يتجرعه الناس جميعهم ، ومن ذلك قوله في رثاء بعض الناس :

وَأَنْتَ وَارِدُ الْعِدِّ الَّذِي وَرَدُوا بِالْكَرْمِ ، أَوْ قَارِعُ الْبَابِ الَّذِي قَرَعُوا^(٥)

(١) الديوان ١ : ٢١٨ . الخود : المنظر .

(٢) الديوان ١ : ٧٤ .

(٣) الديوان ٢ : ٢٥٠ .

(٤) شوقي ضيف - في النقد الأدبي ١٧١ .

(٥) الديوان ١ : ٦٥٠ . العدة : هو مهمل الماء الجاري .

فالشاعر هنا يستعير المنهل للمنية .

وقوله في رثاء الحسين بن علي مصورا له وقد اجتمعوا على ورد الردى :

لَمْ يَذُوقُوا الْمَاءَ حَتَّى اجْتَمَعُوا بِحُدَا السَّيْفِ عَلَى وَرْدِ الرَّدَى^(١)

ومن تصوير الموت بالكأس قوله في رثاء بعض الناس :

أَبْكِيهِمْ وَيَدُ الْإِيَّامِ دَائِبَةً تَدُوفُ لِي فَضْلَةَ الْكَاسِ الَّتِي جَرَعُوا^(٢)

كما اعتمد الشاعر كثيرا عند تصوير المنية على التجسيم بالاستعارة ، لتحريك المتلقي وإيقاظه وإدهاشه ، ومعنى التجسيم : هو جعل المعنوي محسوسا وكأنه ماثل أمامك ، فالرضي أنسك اللامحسوس فجعل له جسما ، وبث فيه الحياة والحركة حيوانا كان أم إنسانا^(٣) . فجعل للموت أيديا وعيوننا ترقب الناس وتقص جمعهم ، وأفواها تأكل أعمارهم وتشربها ، وأمثلة ذلك كثيرة ، منها قوله في رثاء صديق له :

إِلَى أَنْ مَشَى بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الرَّدَى وَقَطَعَ أَقْرَانَ الصَّفَاءِ قَطُوعُ^(٤)

وقوله في تعزية الخليفة الطائع عن عمر بن إسحاق بن المعتذر :

نُؤَمِّلُ أَنْ نَرَوْى مِنَ الْعَيْشِ ، وَالرَّدَى شُرُوبٌ لِأَعْمَارِ الرَّجَالِ أَكُولُ^(٥)

وقوله :

مَا لِلزَّمَانِ يَلْذَّ طَعْمَ مَصَائِبِي فَكَأَنَّهُ يَظْمَأُ لِشَرْبِ أُنْمَعِي^(٦)

وقد جعل للمنية أيديا في قوله يرثي بعض الناس :

مَصَاعِبُ دَعْدَعَتْ أَيْدِي الْمُنُونِ بِهَا فَطَاعَ مُعْتَصِمٌ وَأَنْقَادَ مُمْتَنِعُ^(٧)

وقوله في رثاء السيرافي :

(١) الديوان ١ : ٩٣ .

(٢) الديوان ١ : ٦٥٠ .

(٣) انظر عند الإله الطائع ، الصورة المنية في شعر الشريف الرضي ، دراسات في ذكراء الألفية ٢٦٤ .

(٤) الديوان ١ : ٦٥٣ .

(٥) الديوان ٢ : ١٦٦ .

(٦) الديوان ١ : ٦٣٧ .

(٧) الديوان ١ : ٦٥٠ .

كَيْفَ الْغُرُورُ وَلِلْغَنَاءِ شَيْئَةٌ وَبِذِ الْمُنُونِ تُبِيرُ ثَمَّ الْمَطْلَعُ^(١)

وقال في رثاء بنت صديق له ويعزيه عنها :

تَقْصُرُ الرَّدَى عَرْضًا وَأَمْسَى يَجْأَلُكَ الْمَسِيرَ عَنْ الْمَقَامِ^(٢)

فالشاعر يصور الردى بالصيد الذي يتربقب ويختبئ ليصطاد فريسته ، وكأنه في هذه

الصورة يظهر أن لا جدوى في الهرب من الموت ، فإنه يتربقب الإنسان ويقتنصه .

وهكذا تتعدد صورمنية عند الشريف الرضي ، ويعود هذا إلى نفسية الشاعر وهو

يشكل هذه الصور وغيرها للموت . لذا نرى الشاعر يصورمنية بهيئة الحيوان المفترس حيث

يجسدها في صورة النوحس ذي المخالب والأنياب ، فيمنح هذا بعدا توأصليا بين الفكرة والصورة

والمثقفى . لأن هذه الصورة المرعبة للمنية ، تترك أثرا مرثما في الذهن ، فالشاعر في مثل

هذه الصورة يبين صعوبة الخلاص بعد الإمساك ، ولم يقص إلى الانتهاء ، وكما أن الإنسان لا

يستطيع التعامل مع الحيوان لاستخلاص الفريسة سالمة من بين يديه ، وكذلك حاله معمنية^(٣) ،

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر يرثي صديقا :

كُلُّهُ غَيْرُ هَذَا الْمَوْتِ نَالِكَ ضُفْرُهُ وَوَلَاكَ غَرِيبًا لِلْمَنَابِكَ مُذْلَقًا

لَكَانَ وَرَاءَ النَّارِ مِنَّا ، وَدُونَهُ عَصَائِبُ تَخْتَارُ الْمُنُونُ عَلَى الْبَقَا^(٤)

حيث يثبت الشاعر هنا أنه لا يمكن تخليص الميت من أظفار الردى ، حتى ولو ثار له

بعصائب لا تخاف الموت نفسه . ومن ذلك قوله :

يُؤْلِغُ ضُفْرًا لِلرَّدَى وَنَابًا لَا يَبْكِيَنَّ حَاضِرُنَا مَنْ غَابَا^(٥)

وقوله :

^(١) الديوان ١ : ٦٤٩ .

^(٢) الديوان ٢ : ٣٣٢ .

^(٣) انظر مقول علي - المراتي الشعرية في عصر صدر الإسلام ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، ٢٢٢ .

^(٤) الديوان ٢ : ٦٦ .

^(٥) الديوان ١ : ٢٢٠ .

عَصَتْ بِبَازِلِهَا الْمُنُونُ وَلَمْ تَزَلْ تَقْرُو طَرِيقَ النَّابِ بِالْأُظْفَارِ^(١)

وقوله :

إِذَا قَلَّتْ يَخْضُوهُ الْجِمَامُ هَوَتْ بِهِ نَيُوبٌ رَدَى فِيهَا السَّمَامُ يُقِيعُ^(٢)

وقد جعل الشاعر كذلك الموت قوة مجسمة تضعضع الجموع ، وتشن الغارات ، معبرا عنه باسم الموت ، أو القدر ، أو الدهر ، ومن ذلك قوله يعزي أخاه عن مولودة :

وَقَدْ شُنَّ فِيهَا حَادِثُ الْمَوْتِ غَارَةٌ شُنَّا ، وَلَمْ تَطْلِعِ إِلَيْنَا كَتَائِبًا^(٣)

وقوله :

كَذَا يَهْجُمُ الْقُرُ الْغَالِبُ وَلَا يَمْلِكُ الْبَابُ وَالْحَاجِبُ^(٤)

ولكن هذه الغارة التي يشنها الدهر هي غارة بلا سلاح ، فليس فيها قرع رماح ، ولا غبار معارك كما يقول في رثاء ابن جني :

فَشُنَّ عَلَيْهِمُ الْأَزَلُّ الْعَوْدُ غَارَةٌ بِلا قُرْعٍ أَرْمَاحُ وَلَا نَقْعُ مَازِقٍ^(٥)

هذا وقد شبه الشاعر الردى بسهم مسدد إلى الخلق ، وحبال تقيدهم ، ومن ذلك تصويره قدرة الموت في الوصول إلى جميع الناس ، فجعله كالرمح مرة ، وكالسهم مرة أخرى ، أما الرمح فإنه يسدد نحو الإنسان القريب ، والسهم يسدد نحو البعيد ، ولا يخطيء أحدهما رميته ، فلا مهرب ولا منجى من الموت إذا جاء الأجل ، كما يقول في رثاء بعض أصدقائه :

أَرَادَ مَنَاكَ الْقَرِيبُ مُسَدِّدًا وَسَهْمًا إِلَى النَّأْيِ الْبَعِيدِ مُفَوِّقًا^(٦)

(١) الديوان ١ : ٥٢٠ .

(٢) الديوان ١ : ٦٥٣ .

(٣) الديوان ١ : ٢٢٤ .

(٤) الديوان ١ : ٢٠١ .

(٥) الديوان ٢ : ٦٠ .

(٦) الديوان ٢ : ٦٥ .

وهكذا يترك الشاعر في خيال المتلقي صورة لسيام متطايرة ورماح مسددة ، بعضها يصل هدفه والبعض الآخر لما يصل . ومن ذلك قوله في رثاء أبي طاهر بن ناصر الدولة الحمداني :

أَيُّ سَيِّمٍ رَمَى غَرَضًا فَأَخْطَا وَذِي الْأَقْدَارِ أَسْهَمَهَا أَسَدًا^(١)

وقوله في تعزية أخيه المرتضى عن مولودة :

أَصَابَتْ سِيَامُ الْحَادِثَاتِ قُلُوبَنَا فَكَمْ أَعْقَبَتْ رَوْعًا يَرُوعُ الْعَوَاقِبَا^(٢)

فالدهر سيامه نافذة ، ويقصد الشاعر أن المنية سيامها نافذة ، حتى أنها تدخل ماوى الأفاعي الحصينة ، ومرابط الأسد ، كما يقول :

وَالدَّهْرُ تَدْخُلُ نَافِذَاتُ سِيَامِهِ مَاوَى الصُّلَّالِ وَمَرْبِضُ الْأَسَادِ^(٣)

وصور الشاعر المنية حبلا يقيد المرثي ، كما يقول في رثاء الصابي :

قَالُوا : أَطَاعَ وَفِيهِ فِي شَطْرِ الرَّدَى أَيُّزِي الْمُنُونِ مَكْنَتِ أَيِّ قِيَادِ^(٤)

والمنية تقود الخلق كما تقاد الإبل في البرى حيث يقول :

فَقَادَتِهِمْ قَوْدُ الْأَيْتِقِ فِي الْبُرَى وَزَمَّتِهِمْ زَمُّ الْقُرُومِ الْمَصْدَاعِ^(٥)

هل من عناصر فنية أخرى ؟

ذكرنا في بداية الرسالة أن الشاعر لم يحفل بالبديع شأن شعراء عصره ، وهو هنا لم يعتمد في تشكيل صورته الشعرية على البديع بأنواعه ، إلا ما جاء منه عفو الخاطر دون صنعة أو تكلف ، فيضفي على الصورة الشعرية جمالا خاصا ، وقد ركز قسم من الدراسات البلاغية على الطبيعة الزخرفية والتزيينية للصورة الشعرية منطلقة في ذلك من أن الأسلوب والصورة

(١) الديوان : ١ : ٥١٣ .

(٢) الديوان : ١ : ٢٢٣ .

(٣) الديوان : ١ : ٤٢٦ .

(٤) الديوان : ١ : ٤٢٥ .

(٥) الديوان : ١ : ٢١٢ . والبرى : حلقه نوصع في أمم الناقة تقاد منها .

عنصران خارجيان في العمل الأدبي^(١) . وأكثر الأنواع البديعية شيوعا في مراثي الرضى
الجناس و الطباق ، أما الجناس فمثل قوله :

وَالدَّمْعُ لَا يَرْقَا لَهُ غَرِبُ كَانَ الْعَيْنُ غَرِبُ^(٢)

حيث جناس الشاعر بين غرب الأولى بمعنى : العرق في العين يفيض بالدمع، والثانية بمعنى
الدلو المملئة ماء. وقد استعمل الرضى ألوانا عدة من الجناس، منها الجناس الاشتقاقي، كقوله :

كُلُّ بَاكِ يُبْكِي عَلَيْهِ، وَإِنْ طَا لَ بَقَاءٌ، وَالتَّائِيلُ الْمُتَكُولُ^(٣)

فقد جناس جناسا اشتقاقيا بين (باك وبكى) ، وبين (التائل و المتكول) ومنه قوله :

أَصَابَتْ سِهَامُ الْحَادِثَاتِ قُلُوبَهُمَا فَكُمُ أَعْقَبَتْ رَوْعًا يَرُوعُ الْعَوَاقِبَا^(٤)

ومنه الجناس المحرف ، وهو ما تماثل ركناه في الحروف وتغايرا في الحركات^(٥) ، كقوله :

جَرَّ عَلَى دَارِهِمْ ذُنَابَا وَاتَّبَعَ الْقَوَادِمَ الذَّنَابِي^(٦)

ومنه الجناس اللاحق ، وهو ما أبدل من أحد ركنيه حرف بحرف آخر من غير مخرجه،

ولا قريب منه^(٧) ، كقوله :

نُجُومٌ، إِذَا شَهِدُوا الْأَنْدِيَا رُجُومٌ، إِذَا مَا أَقَامُوا الْحُرُوبَا^(٨)

وقوله :

وَلَا أَسَلُ لَهَا قَرْعٌ وَوَحْزٌ وَلَا قَضَبٌ لَهَا قَطٌّ وَقْدٌ^(٩)

^(١) كمال أبو ديب - حناية الخفاء والتجاني (دراسة سموية في الشعر) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٩ ، ١٩ .

^(٢) الديوان ١ : ٢٣٨ .

^(٣) الديوان ٢ : ١٦٣ .

^(٤) الديوان ١ : ٢٢٣ .

^(٥) انظر ابن معصوم - أنوار الربيع ١ : ١٨٥ .

^(٦) الديوان ١ : ٢٢٠ .

^(٧) انظر ابن معصوم - أنوار الربيع ١ : ١٤٠ .

^(٨) الديوان ١ : ٢٣٢ .

^(٩) الديوان ١ : ٤١٢ .

أما الطباق فيظهر في مراشي الرضي مضافاً على الصورة الشعرية رونقاً وجمالاً ،
وربما يأتي في مراشي الرضي ، من باب حديثه عن الموت ، فهو نقيض الحياة ، فيأتي معبراً
عما طرأ في حياة الشاعر من تحول إلى الضد بعد فقدان أحبيه وخلائه ، ومن أمثلته قوله :

وَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ إِذَا جَاوَزَ الْإِيَّامَ ، وَهُوَ ذَلِيلٌ^(١)

وقوله :

لَأَظْمَأُ مُعَيَّنًا وَأَرْوِي الْمَصْرَبَ وَأَسْخَطُ أَمَلًا وَأَرْضِي نَوَائِبَ^(٢)

ويقول في رثاء بعض أصدقائه من أمراء بني عقيل :

مَنْ كَانَ أَنَسِي أَصْحَى وَحُشْنِي وَغَدَا مَنْ كَانَ يُرْنِي أَسْدَابًا لَأَوْجَاعِي^(٣)

ولم يقف الأمر عند الطباق ، بل تطور أيضاً إلى المقابلة التي تقوم بها المفارقة بين

المعنى والمعنى المضاد ، وبين الصورة والصورة المضادة ، ومثال ذلك قوله :

نُطِيبُ الْمَقَامَ قَبَابَ حَيٍّ وَيُخَفِّرُنَا الْمُنُونُ إِلَى الرَّحَالِ^(٤)

وقوله :

فَلَا يَسُرُّكَ إِكْثَارِي وَلَا جَدْرِي وَلَا يَغْنُكَ إِقْصَارِي وَإِقْلَالِي^(٥)

وقوله :

وَبَيْنَا الْمَرْءُ يَلْبُسُهَا نَعِيمًا تَهْجُرُ ضَاحِيَهُ بَعْدَ الظَّلَالِ^(٦)

وهكذا فإننا لا نجد إفراطاً في ألوان البديع في مراشي الرضي ، فجاءت دون تكلف في

مواقعها ومعانيها ، حتى لا تفقد الغاية التي أنشئ من أجلها الشعر الرثائي .

اللغة والمعجم الشعري :

أهتم النقاد بلغة الشعر ، والمحو إلى وجود لغة شعرية وألفاظ خاصة يستعملها الشاعر

ويصل إليها بالنظر والتأمل وكذا الذهن . وبهذه اللغة يكتب للشاعر النجاح والتوفيق ، فيما يريد

^(١) الديوان ٢ : ١٦٧ .

^(٢) الديوان ١ : ٢٢٢ .

^(٣) الديوان ١ : ٦٣٤ .

^(٤) الديوان ٢ : ١٨٥ .

^(٥) الديوان ٢ : ١٨٨ .

^(٦) الديوان ٢ : ١٨٥ .

أن يوصله من تجربة شعرية مر بها ، وذلك بقدرته على وضع تلك الألفاظ الشعرية في طريقة أو سياق معين ، وتكون مهمته " تعرية اللغة واكتشاف القيمة التعبيرية في كل أجزائها التي تغطيها عادات الاستعمال اليومي ، وإبراز العناصر الجمالية ، حتى في تلك المناطق المحرمة من اللغة ، التي درج الناس على تأثيم من يتعرض لها " (١) ، وقد ألمح ابن رشيق إلى وجود لغة شعرية فقال : " وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يستعمل غيرها " (٢) ، أما شعر الرثاء ، فقد ذكر القرطاجني ما يلائمه من ألفاظ ، فبين أنه يجب أن يكون بالآلفاظ مألوفة سيئة (٣) . والرثاء من الأغراض الشعرية الجادة في العصر العباسي ، فقد سلك فيه الشعراء اللغة الفصيحة البدوية ، فاختاروا الألفاظ الجزلة الفصيحة ، أما الشريف الرضي ، فقد هاجم بالمعجم الشعري القديم فعكست أشعاره حياة البادية ، ووردت في معجمه الكثير من المفردات البدوية التي تعيش في الصحراء بين العرب الأقحاح ، فكانت ألفاظه بدوية جزلة ، أمدته بعناصر القوة ، وما من شك أنها وفدت إليه حين جمع خطب الإمام علي ، في كتاب أسماه: نهج البلاغة ، وحين ألّف كتاباً في أفصح الكلام ، القرآن الكريم ، والحديث الشريف، من أشهرها كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن ، وكتاب المجازات النبوية ، مما أكسبه ثروة لغوية جعلت أشعاره ذات صبغة بدوية ، وكان بارعاً في استعمال هذه الألفاظ في قصائد رثائه ، ليسنّوحي حياتهم البدوية في الصحراء ويستنشق روح العروبة الخالصة . يقول في رثاء الحيرة :

وَعَرَفْتُ بَيْنَ بُيُوتِ آلِ مُحَرَّرٍ مَأْوَى الْقُرَى وَمَوَاقِدِ النَّيرانِ
وَمَنَاطٍ مَا اعْتَقَلُوا مِنَ الْبَيْضِ الضُّبَى وَمَجَرٍّ مَا سَحَبُوا مِنَ الْمَرَّانِ

(١) صلاح فضل - نظرية الساتية في النقد الأدبي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ص ٢٦٧ .

(٢) القيراني - العمدة ١ : ١٢٨ .

(٣) القرطاجني - منهاج السقاء ٣٥١ .

وَرَأَيْتُ مَرْتَبَطَ السَّوَابِقِ لِنَمِّهَا - وَمَعْقِلُ الْأَسَاكِلِ لِلذُّؤْبَانِ^(١)

وهذه النكبة البدوية ، وهذه الروح التي نشتمسها كلما أنعمنا النظر في قصائده ، كانت تعجب أخاه المرتضى ، فاستحسن أنه أبياتا منها قوله :

طُرُقُ الْخَيَالِ يَبْطُنُ وَجَرَّةُ بَعْدَمَا - رَعْدُ الْعَوَالِي أَنَّهُ لَا يَطْرُقُ

فقال المرتضى معقفاً : هذه أبيات ناصعة رائعة ، عليها مسحة من أعرابية ، وعبقة من بدوية^(٢) . ومع أن هذا التبدي كان يصدر عن طبع عند الشريف الرضي دون تكلف ، إلا أنه لا يخلو من المأخذ ، فقد يغرب أحياناً في لفظه وفي معناه إلى حد التكلف الذي يجعل بعض أبياته ثقيلة على السمع^(٣) ، فوفدت إلى معجمله الألفاظ وعرة لم تألفها حياة الحضر في عصره . ومن هذا الإغراب قوله يرثي امرأ يخصه :

وَذِي نَضٍّ لَا يَقْطَعُ الطَّرْفُ عَرْضَهُ - إِذَا قِيلَ لِنَجْدِي الْمُبَاحِ تَغَوَّرَا
تَخَالُ بِدُرُكْنِي أَبَاكَ وَشَابَكَ - أَطْلًا وَرَجْرَاجًا مِنَ الرَّمْرِ أَعْفَرَا
إِذَا أَحْجَ بِالْإِيمَاضِ قُلْتُ ابْنَ كَفَّةٍ - يُضَرِّمُ بِالْغَابِ الْأَبَاءَ الْمُسَعَّرَا
تَسْوُلُ تَسْوُلُ الْبُرُوقِ بِرُقْفَةٍ - وَرَجَعُ قَرْقَارِ الْفَنِيْقِ بِقَرْقَرَا^(٤)

وقد جاءت أمثلة هذه الألفاظ العرة في أراجيزه ، وخاصة أراجوزته التي يرثي بها صديقه أبا العوام ابن ليلى ، ومنها قوله :

مَا هَاجَ مِنْ ذِي طَرْبٍ مِخْصَصٍ - لَيْسَ أُرِي الْعَوَامِ وَالْقِلَاصِ

^(١) الديوان ٣ : ٤٠١ .

^(٢) الشريف المرتضى - طبقات الخيال ، تحقيق ومراجعة محمود حسن أبو ناهي ، دار الشريعة للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ٨١-٨٢ .
والنصر محمد البزعة البدوية ، إحسان عباس - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٣ ، ٣٥٥-٣٥٦ .

^(٣) أحمد الإسكندري ورملاؤه - المنصفي في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، نفسه وحسن إحسان حلاق ، دار بحياة العلوم ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، ٢٥٥ .

^(٤) الديوان ١ : ٥٣٣ . النص من الخيال : حبال على عمتها فوق بعض ، تعور : غابت ، ثمان وشاة : حلال ، الرجراج : المتحرك ،
العود : السن من الإص ، الملا : الصعراء ، أح : عدا ، الأداة : القصب ، تسول : رثع ، البرقة : الأرض العبيطة ، القرقار :
صغير النعير .

أَرْسَلَهَا خُمْصَاءَ فِي خِمَاصٍ زُورَاءَ مِنْ رَعِي الْجَمِيمِ الْوَاصِي
بَعْدَ مَطَالِ الْقَرَبِ الْبَصَّاصِ رَامَ إِلَيَّ غَايَتَهَا الْأَقَاصِي
مُفْتَقَةً مِنْ جَانِبِ النَّشَاصِ تَطَلَّعَ الرُّودُ مِنْ الْخِصَاصِ^(١)

وهكذا ، فإن المعجم البدوي من أهم مصادر لغة الشريف الرضي ، حيث طغت النزعة البدوية على كثير من مراثيه .

وقد كانت اللغة الشعرية عند الشريف الرضي تأتي متلائمة مع موضوع القصيدة دون تكلف ، حيث تكون الألفاظ ملائمة للمعاني ، فاللفظ " جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته " ^(٢) . إذ لكل مقام مقال ، فغالبا ما كانت تأتي هذه الألفاظ البدوية عند رثائه لبدوي كابن ليلى ، أو رثاء الحمدانيين والعقيليين ، كما أشرنا لهذا عند رثائه لأمراء القبائل . كما مال الرضي لاستعمال الألفاظ البدوية الغربية عند رثائه لعلماء اللغة العربية، كأبي علي الفارسي وأستاذه أبي عبد الله بن الإمام المنصوري . كما ظهرت الملائمة بين اللفظ والمعنى جلية في مراثي الرضي ، عندما يرثي خليفة أو ملكا أو وزيرا ، فيأتي بالفاظ فخمة تقوم معانيها على الجلالة والمهابة ، مما يمنح الألفاظ جمالا معنويا يلائم مقام الخليفة أو الملك أو الوزير . وأمثلة ذلك كثيرة في مراثيه ، منها قوله يرثي الخليفة الطائع لله :

وَمُؤَمَّرٍ نَزَلُوا بِهِ فِي سَوْقَةٍ لَا شَكْلَهُ فِيهِمْ وَلَا قُرْنَاؤُهُ
قَدْ كَانَ يَفْرَقُ ظِلَّهُ أَقْرَانُهُ وَيَغْضُ دُونَ جَلَالِهِ أَكْفَاؤُهُ
وَمَحْجَبٍ ضَرَبَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ يَعْشِي الْعَيُونُ بِهِأُوهُ وَضِيَاؤُهُ
نَادَتْهُ مِنْ خَلْفِ الْحَجَابِ مَنِيَّةٌ أُمَمٌ ، فَكَانَ جَوَابُهَا حَوْبَاؤُهُ

(١) الديوان ١ : ٥٨٢ . الحماس : الخانع ، الجميم : أثبت الكثير ، القرب : البئر القريبة الماء . النصاص : التعلل ،

النصاص : السحاب ، الرود : الغناء الحسناء ، الخصاص : جمع حص ، البيت من النصب .

(٢) التتروان - النعمة ١ : ١٢٤ . وانظر العلوي - عبار الشعر ١٢٦ ، والعسكري - الصناعتين ١٧٩ .

شَقَّتْ إِلَيْهِ سَيْوْفُهُ وَرَمَحَتْهُ
وَأَمِيطَ عَنْهُ عَيْدُهُ وَإِمْنَاؤُهُ^(١)

كما بدت هذه الملائمة بين اللفظ والمعنى ، عند رثائه لخيرة كتاب زمانه و علمائه كالصابي ،
والصاحب بن عباد ، وأبي منصور الشيرازي الكاتب ، وغيرهم^(٢) وقد ألمحنا لهذه الملائمة عند
حديثنا عن الرثاء العام في هذه الرسالة .

كما اتسمت الأشعار التي نظمها الرضي في رثاء المرأة بهذا التلاؤم بين الألفاظ
والمعاني فذكر ألفاظ الحسن والجمال والعفة ، ومن ذلك قوله في رثاء شقيقته :

وَدُونَ كُلِّ حِجَابٍ
وَقَبْرِكَ الصَّوْنُ مِنْ قَبِيْهِ
مِنْ الْعَفَافَةِ حُجْبُ
لِ أَنْ يَضُمَّكَ تَرْبُ^(٣)

وقال يرثي بنت صديق له ويعزيه عنها :

أَيَا قَبْرًا تَقْسَمَ كُلُّ صَبْرٍ
أَقَامَتْ فِيكَ مَاجِدَةً حَصَانٌ
وَقَلْقَلُ عِبْرَةَ الْمُقَلِّ الدَّوَامِي
كَمَاءِ الْمَزْنِ مِنْ بَيْضِ الْخِيَامِ^(٤)

وقال في رثاء نقيّة بنت سيف الدولة :

نَعَى النَّاعُونَ وَاضِحَةً مُحِيًّا
أَلُوفِ الْبَيْتِ ذِي الْعَمَدِ الطَّوَالِ^(٥)

وقد استخدم الرضي في معجمه الشعري بعض ألفاظ الهجاء ، عندما أراد أن ينم قتلته

المرثي ، أو عند ذمه للأمويين في القصائد التي رثى بها الحسين بن علي ، ومن هذه الألفاظ :

(كهام ، ذئاب ، علوج ، عبد) ، ومن ذلك قوله في قصيدة يرثي بها الحسين بن علي :

إِنَّ الْخِلَافَةَ أَصْبَحَتْ مَزْوِيَةً
عَنْ شَعْبِيَا بَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا

(١) الديوان ١ : ٧٩-٨٠ .

(٢) انظر الديوان ١ : ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٦٣٧ ، ٢ : ١٧٩ .

(٣) الديوان ١ : ٢٣٠ .

(٤) الديوان ٢ : ٣٣٢ .

(٥) الديوان ٢ : ١٨٥ .

طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عَلُوجُ أُمِّيَّةٍ تَنَزَّوْا ذُنَابَهُمْ عَلَى أَعْوَادِهَا^(١)

وقوله في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة :

فِيهَا أَسَدًا يَصُولُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ^٢ وَيَا مَوْلَى يَطُولُ عَلَيْهِ عَيْدٌ^(٣)

وفي معجمه الكثير من آلات الحرب وأدواته كالسيف ، والرمح ، والسنان ، والدروع ، وفيه أيضا تعلق بالنماذج العليا في ذهنه من الفرسان الخالدين في تاريخ الأمة ، فذكر أسماء فرسان من أبطال العرب الخالدين ، مثل : عتيبة بن الحارث بن سنان ، فارس تميم ، وذؤاب بن زيد بن قارب ، فارس فزارة ، الذي قتلته دريد بن الصمة بأخيه^(٤) وعامر الضحيان أحد فرسان العرب^(٥) . وفي التعبير عن حتمية الموت ومآل كل إنسان إليه ، يضمن الشاعر أسماء الملوك والجبابة ، والأقوام السابقة التي بادت مثل عاد وثمود ، وغيرها . كما كان اهتمامه واضحا بذكر الملوك العرب السابقين مثل التابعة وآل ذي يزن ، وكان اهتمامه شديدا بالنعمان بن المنذر وقومه أصحاب ذي قار ، الذين جسدوا البطولة العربية والإباء العربي ، وحددوا العلاقة بين العرب والفرس . وعبروا عن رفضهم لأي سلطان أجنبي ، فقال وهو يرثي الحيرة :

حُلِّلُ الْمُلُوكِ رَمَى جَنِيمَةٍ بَيْنَهُمَا وَالْمُنْذِرِينَ ، تَغَايِرُ الْأَزْمَانِ
طَرَدَا ، كَدَابِرِ الدَّهْرِ فِي طَرْدِ الْأَلَى وَالِى الْحَفَائِظِ فِي بَنِي الدِّيَانِ
وَكَاكَ جَفَنَةً أَرَعَجَّتْهُمْ نَبْوَةٌ نَقَلَتْ قِيَابَهُمْ عَنِ الْجَوَلَانِ
وَإِلَى ابْنِ ذِي يَزْنَ غَدَتْ مَرْحُولَةٌ نَفَضَتْ حَوِيَّتَهَا عَلَى غَمْدَانِ^(٦)

^(١) الديوان : ٤٠٦ : ١ .

^(٢) الديوان : ٤١٣ : ١ .

^(٣) الديوان : ٢١٤ : ١ .

^(٤) الديوان : ٤٠٣ : ٢ .

^(٥) الديوان : ٤٠٢ : ٢ - ٤٠٣ .

وهكذا فإن لغة الشريف الرضي " تعبر عن نوازع النفس ، ومطالبات العقل ، وتتأوب بين الواقع الذي يعيش والمثال الذي يطلبه " (١) .

أما ألفاظ الرثاء في شعر الشريف الرضي فكلها مألوفة تدور حول الحزن والضيق ، وقد جاءت معظم هذه الألفاظ في قصائد الرثاء عند الشعراء السابقين ، لأن لغة الرثاء واحدة ومفرداته وتعبيره واحدة. ومن تلك المفردات : (العويل ، البكاء ، الدموع ، والحزن ، الألم ، القبر ، الجثث ، اللحد ، الدهر ، العزاء ، المصاب ، الجلل ، الحادثات ، الزمن ، الأيام ، المنون ، الحمام ، الردى ، وقليلًا ما يستعمل لفظة الموت) .

أما الأفعال فمنها : تهافتوا ، تطارحوا ، تطرفه الردى ، مضى ، هوى ، ذهب ، وناثرا ما يستعمل كلمة (مات) ، لأن الإنسان في كل زمان ومكان يحاول " أن يقهر الزمان ، ويصرع الشر ويسحق الموت ، ولكنه لم يلبث أن يتحقق من أن صراعه اليأس ضد هذا الثالوث المارد الجبار ، إن هو إلا جهد ضائع " (٢) .

وبما أننا نؤمن بتطور اللغة ، فإن هناك ألفاظ جديدة ، مما أحدثه الإسلام تدل على العقيدة الإسلامية (كالقضاء والقدر ، الأجر ، الثواب ، الجزاء ، يوم المعاد ، رسول الله ، الإسلام ، أمير المؤمنين ، الخلافة ، البيعة) .
ومن أمثلة ذلك قوله :

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ وَهُوَ لَاحِقٌ بَعَادٍ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ وَتُبَعٌ (٣)

وقوله :

أَلَيْسَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ فَلَا عَطَسَ إِلَّا بِأَجْدَعِ (٤)

وقوله :

(١) أحمد الخناني ، لغة الشريف الرضي - دراسات في ذكره الألفية ٢١٤ .

(٢) زكريا إبراهيم - مشكلة الإنسان ١٤١ .

(٣) الديوان ١ : ٦٤٥ .

(٤) الديوان ١ : ٦٤٦ .

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَضَلُّهُ
يَسْعُ الْوَرَى وَيَجْلُو الْأَحْيَاءُ^(١)

وقد ذكر الشاعر ألفاظ الزهد، والعمل الصالح، والمعروف، ورغد الجنان، وقيام الليل، وصيام أيام القيظ، في مراثيه لأمه^(٢).

أما ألفاظ الشاعر المتصلة بتأبين الفقيد، فتدور حول اليأس والشجاعة والنجدة والسيادة والعفة وغيرها. ومنها ألفاظ تدل على الدعاء مثل (لا تبع) كما في قوله :

أَذْهَبْ وَلَا تَبْعَنَّ مِنْ رَجُلٍ
إِنْ كَرَاهَ الرَّجُلُ قَدْ ذَهَبَ^(٣)

وقد أكثر الشاعر من ذكر كلمة قبر والدعاء له بالسقيا، فالتقبر مشير لأحزان الشاعر ومرتببط بإحساس عميق بالحب، فنرى الشاعر متعلقاً بمن حواه هذا القبر، فيدعو له بالسقيا والتربيع والرياحين، ويسلم عليه. ومن ذلك قوله في رثاء أمه :

يَا قَبْرُ أَمْنَحُ الْهَوَى وَأَوْدُ الْوُ
تَرَفَّتْ عَلَيْهِ دُمُوعُ كُلِّ سَمَاءٍ^(٤)

وقال يرثي خاله ذاكرة قومه وأن قبورهم عصرة قد طويت الثرى :

رَبِّكَ قَبْرٌ أَفْرَغَ الْمَوْتُ تَحْتَهُ
سَجَلُ الْعُصَايَا بَعْدَهُمُ وَالرُّغَائِبُ
وَصَابَ ثَرَاهَا وَالشَّرَى غَيْرُ ضَبْرٍ
وَذَابَ نَدَاهَا وَالنَّدَى غَيْرُ ذَائِبٍ^(٥)

وتكثر جداً عند تأبين الفقيد، ألفاظ تدل على الإيل حين يشبه المرثي بها مثل : (البازل، العود، الذود، الفنيق، الفحل، الإبل، هوجاء) وغيرها. وهناك ألفاظ في مرثي الرضي تدل على اضطلاع به علوم اللغة واشتقاقها وتصريفها، إذ هو تلميذ ابن جني صاحب مدرسة القياس التي تسمى أن اللغة ليست مقدسة، وأنها ملك للناس، لا أن الناس ملكها^(٦)، ومن الأمثلة على براعة الرضي بذلك استعماله : "أخوت السيف" أي اتخذته أخاً، وتثنيته كلمة أب على "أبين" كما في قوله :

(١) الديوان : ١ : ٦٩ .

(٢) الديوان : ١ : ٧٤-٧٧ .

(٣) الديوان : ١ : ٢٣٦ .

(٤) الديوان : ١ : ٧٦ .

(٥) الديوان : ١ : ٢١٥ .

(٦) أحمد أمين - ظهر الإسلام : ٩٣ .

وَرِثْتُ عَنْ الْأَبِينُ قَلْبًا وَيَأْسًا فَانْفَقَتِ الشَّهَادَةُ وَالزَّجَاجُ :
وَمُنْخَرِقٍ أَخْبَرَتِ السُّفْ فِيهِ وَحِينَ السُّبُلُ يَنْدِمُجُ انْدِمَاجًا^(١)

ومن ذلك جمعه قصيرة على " قصائر " ، والمشهور جمعها على " قصار " فقال في

رثاء الصابي :

وَلِيَالِي الصَّبَوَاتِ وَهِيَ قَصِيرٌ خُصِفَ الْوَمِيطُ بِعَارِضٍ مُبْرَاقٍ

كما ورد في معجم الرضي بعض الألفاظ العسرة على اللسان ، وهي قليلة ، ومن أمثلتها :

(يلجوجها ، القعضي ، عشوزنة) وذلك في قوله :

أَوْ أَمَّ مُنْجُوِي يَنْجُو جُهِبًا عَلَى النَّارِ رُطْبُ^(٢)

وقوله وهو يرثي ابن الحجاج الشاعر :

رَسَانٌ هُوَ الْأَزْرَقُ الْقَعْضِي تَمُضُّضٌ مِنْ رِيْفَةِ الْأَفْعُوَانِ^(٣)

وقوله في رثاء قوم من أصدقائه وأهل بيته :

وَأَبْقَى الْعَوَاجِمُ مِنْ صُعْدَتِي عَشُوزَنَةً تَسْتَقِيلُ النُّوبُ^(٤)

وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس تكرار الشريف الرضي لكلمة " القذى " ، وأحصى لذلك

مواضع كثيرة في ديوانه^(٥) . وقد تكررت هذه الكلمة في مراثيه اثنتين وعشرين مرة بتصاريفها

المختلفة ، مع تعدد الحقول الدلالية التي تنتمي إليها ، لتظهر مدى قدرة الشاعر في التعبير عما

في نفسه ، وقد كرر الرضي هذه اللفظة ثلاث مرات في بيت واحد وهو قوله :

تَشْكُو الْقَذَى عَيْنِي فَيَكْثُرُ سُكُوهَا حَتَّى يُعْوِدَ قَذَى بِهَا أَفْدَاءً^(٦)

وهكذا فإن لغة الشريف الرضي تتسم بوضوح العبارة ، وخلو كلامه من الحشو ،

وملائمة لغته لموضوعاته .

^(١) الديوان : ١ : ٣٠١ .

^(٢) الديوان : ١ : ٢٢٦ . والجسج : يعود بضم الجيم .

^(٣) الديوان : ٢ : ٣٧٧ . القعضي : السديد .

^(٤) الديوان : ١ : ٢٣٤ : العشوزنة : العلالة .

^(٥) إحسان عباس - الشريف الرضي ١٥٨ - ١٦٢ .

^(٦) الديوان : ١ : ٨٢ .

الخاتمة :

شعر الرثاء عند الشريف الرضي كشف عن قضيته التي كان يعيشها متمثلة في طموحه . وكانت صداقاته مجالا رحبا لهذا الشعر، دللت عن خبرته بطبائع الناس . فانتسجت مراثيه بوفاء لمن يرثيهم، حيث كان يرثي الفقيد عند الموت، وبعد أن يطول عهده به، مبينا أن صلة الود تعلو عنده على صلة القرى . وجمع في هذه المراثي الذاتية، ذات الحزن العميق ، وخصائص التأبين وذكر صفات المرثي، فكان من أكثر هذه الصفات ورودا في مراثيه صفة الشجاعة والكرم والسيادة .

وخلصت الدراسة إلى أن مراثي الرضي، جاءت على سنن قصيدة الرثاء التي كانت عند سابقيه، فالتغير الذي لحق قصيدة الرثاء على مرّ العصور هو الأقل، قياساً بما لحق أغراض الشعر الأخرى؛ فلا غرابة أن نرى بعض المعاني العامة تتكرر في شعر الرثاء في مختلف العصور، ومن هذه المعاني: ذم الدنيا والزمان، والترهيد في الحياة وأنها ظل زائل، والزعم أنه لو كان من الممكن اتقاء خطر الموت بما يملك الميت من سلطان وقوة، أو علم وغيره لاتقاء، ومنها استسقاء المطر والغمام لجثث المرثي، إطفاء لحر قلبه، والتأسي بهلاك العظماء من الملوك والأمم السابقة.

وقد مثلت هذه المراثي نظرة الرضي للموت، وهي النظرة التي يشوبها الحزن الشديد والعاطفة المفجعة، فلم تقتصر على الندب والبكاء، بل امتدت لتكشف حقيقة الموت والحياة، وقد تمثل ذلك بقصائد العزاء التي تحوي كثيراً من الحكم عن حتمية الموت ، إذ وقف الشاعر مذهولاً ومغلوباً على أمره عند رحيل عزيز عليه ، وكان يرى موته من خلال موت الفقيد ، وأن حاله ستؤول إلى ما آل إليه أمر هذا الميت ، وعندها تختلط الدموع، ويبكي الشاعر نفسه من خلال بكائه على المرثي ، ولهذا جاء رثاء الشريف الرضي صدىً لحزن صادق لا تكلف فيه ولا رياء.

وقد أثبتت الدراسة العلاقة القوية بين الموقف الشعري الرثائي، وصدق التجربة الشعرية، فرثاء الأقارب اتسم بعاطفة صادقة لا تناظرها تلك العاطفة في الرثاء السياسي، حيث تزداد مرثي الرضي حرارة وألماً على قدر علاقته بالمرثي.

كما أثبتت الدراسة العلاقة القوية بين الموضوع الشعري واللغة، حيث طابق الشاعر بين اللفظ والمعنى، وانتقى الألفاظ انتقاءً، فاستخدم المفردات والتراكيب السهلة مع الموضوع الذي يصدر عن بساطة وعفوية في المشاعر والأحاسيس، كرثاء الأقارب والأصدقاء، في حين استلزم رثاء علماء اللغة وأمراء القبائل ألفاظاً خشنة مال الشاعر في كثير منها إلى الإغراب والوعورة. فكانت مرثيه صورة صادقة لشخصية المرثي، وقد اختار الرضي أوزانه بما يحقق لها الموسيقى الداخلية والخارجية، كما صاغ شعره على جميع القوافي، صعباً ودولياً.

وقد أبانت الدراسة أن قصائد الرثاء في تركيبها تؤلف في معظمها وحدة موضوعية، إذ لم يتحدث الشاعر عن موضوعات أخرى خارج نطاق الرثاء، واهتم بجمال المطلع وحسن التخلص من موضوع إلى آخر، وختم قصائده ببراعة فائقة. كما امتاز كثير من هذه المرثي بالوحدة النفسية والشعورية التي تقترب من الوحدة العضوية في شعرنا الحديث، والتي تعد مقوماً أساسياً من مقومات القصيدة الناجحة في نقدنا الحديث.

المصادر والمراجع

أ - المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ) - الكامل في التاريخ، ط ٢، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٠.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ) - المسند، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨.
- الباخري، علي بن الحسن بن علي (ت ٤٦٧هـ) - دمية القصر وعصرة أهل العصر، ط ١، تحقيق ودراسة محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.
- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤هـ) - ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.
- ابن برد، أبو معاذ بشار بن برد (ت ١٦٧هـ) - ديوان بشار بن برد، ط ١، قدم له وشرحه صلاح الدين الهواري، دار الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ) - الفرق بين الفرق، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) - شرح ديوان أبي تمام، ط ٢، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.

- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢ هـ) — شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ط ١، كتب حواشيه غريد الشيخ ووضع فهارسه العامة أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ .
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) — النجوم الزاهرة في أعيان مصر والقاهرة، ط ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٣ .
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ) — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط ١، شرح وتحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ .
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) — أسرار البلاغة في علم البيان، علق حواشيه محمد رشيد رضا، بيروت، لبنان، ١٩٧٨ .
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) — دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط ٣، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة ومطبعة المدني في القاهرة، ١٩٩٢ .
- ابن جعفر، قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي (ت ٣٣٧هـ) — نقد الشعر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ .
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) — المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حققه وقدم له سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥ .
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) — فتح الباري شرح صحيح البخاري، حقق عدة أجزاء منها عبد العزيز بن باز ورقمها محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١ .

- ابن حجة، نقى الدين أبو بكر علي الحموي (ت ٨٣٧هـ) — خزائن الأندلس وغاية الأرب، ط ٨، شرح عصام شعيثو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١ .
- ابن أبي الحديد، عز الدين بن هبة الله (ت ٦٥٥هـ) — شرح نهج البلاغة، ط ١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٧ .
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) — معجم الأندباء، ط ١، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٣ .
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) — معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، لبنان، ١٩٧٩ .
- الخريمي، أبو يعقوب إسحاق بن حسان (ت ٢١٤هـ) — ديوان الخريمي، ط ١، جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعبيد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١ .
- الخزاعي، دعلج بن علي (ت ٢٤٦هـ) — ديوان دعلج الخزاعي، جمعه وحققه محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٢ .
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ) — تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط ١، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد الأزبكي (ت ٦٨١هـ) — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠ .
- أبو دلامة، زند بن الجون الأسدي (ت ١٦١هـ) — ديوان أبي دلامة، ط ١، شرح وتحقيق إميل يعقوب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٤ .
- ديك الجن، عبد السلام بن رغبان (ت ٢٣٦هـ) — ديوان ديك الجن، حققه وأعدَّ تكميلته أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٢ .

- ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج (ت ٢٨٢هـ) — ديوان ابن الرومي، ط ٢، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤.
- السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت ٢٧٥هـ) — شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار العروبة، القاهرة، مصر، ١٩٦٥.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٧٩.
- الشريف الرضي، محمد بن علي بن الحسين (ت ٤٠٦هـ) — ديوان الشريف الرضي، ط ١، شرحه وعلق عليه وضبطه وقدم له محمد مصطفى حلاوي، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩.
- الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦هـ) — طيف الخيال، تحقيق ومراجعة محمود حسن أبو ناجي، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٣.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ) — الملل والنحل، ط ٢، تحقيق محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥.
- الشيرازي، علي صدر الدين ابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) — الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، قدم له محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٢.
- الصابي والشريف الرضي — رسائل الصابي والشريف الرضي، تحقيق محمد يوسف نجم، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦١.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ) — الوافي بالوفيات، ط ٢، باعثناء ديدرينغ، فرانز شتاير، بغسبادن، ١٩٩٢.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد (ت ٣١٠هـ) — تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ط٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، ١٩٦٧ .
- أبو عبدة، معمر بن المثنى البصري (ت ٢٠٩هـ) — شرح نقائض جرير والفرزدق، ط٢، تحقيق محمد حور ووليد خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨ .
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد (ت ٢١٠هـ) — ديوان أبي العتاهية، ط١، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٥ .
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ) — الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٨٦ .
- العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) — عيار الشعر، ط١، شرح وتحقيق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ .
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) — شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ .
- ابن عنبية، أحمد بن علي بن الحسين (ت ٨٢٨هـ) — عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ١٩٩٥ .
- أبو فراس الحمداني، الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان التغلبي (ت ٣٥٧هـ) — ديوان أبي فراس الحمداني، ط١، تحقيق علي العسلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله ابن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) - عيون الأخبار، ط ١، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤.
- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت ١٧٠هـ) - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ط ٢، حققه وعلق عليه وزاد في شرحه محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦.
- القرطاجي، أبو الحسن حازم بن محمد (ت ٦٨٤هـ) - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط ٣، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ) - المحمدون من الشعراء وأشعارهم، حققه وقدم له حسن معمر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٠.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (ت ٤٥٦هـ) - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ط ٥، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨١.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) - البداية والنهاية، ط ١، دقق أصوله وحققه أحمد ملحم وزملاؤه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.
- كشاجم، محمود بن الحسن البغدادي (ت ٣٦٠هـ) - ديوان كشاجم، ط ١، دراسة وشرح وتحقيق، النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ) - التعاوي والمراثي والمواعظ والوصايا، تقديم إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣.

- المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين الكوفي (ت ٣٥٤هـ) — ديوان أبي الطيّب المتنبّي بشرح أبي البقاء العكبري، ط ١، ضبط نصه وصححه كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .
- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) — ديوان ابن المعتز، ط ١، شرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٥ .
- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان (ت ٤٤٩هـ) — ديوان سقط الزند، ط ١، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ .
- ابن معصوم، علي صدر الدين بن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) — أنوار الربيع في أنواع البديع، ط ١، تحقيق شاكِر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، العراق، ١٩٦٨ .
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) — لسان العرب، ط ١، دار صادر، لبنان، ٢٠٠٠ .
- أبو نواس، الحسن بن هانئ بن عبد الأول (ت ١٩٩هـ) — ديوان أبي نواس، ط ١، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ .

ب — المراجع الحديثة :

- ابتسام الصفار، المؤثرات العامة في شعر الشريف الرضي، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥ .
- إبراهيم أنيس — موسيقى الشعر، ط ٦، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨ .
- إحسان عباس — تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٣ .
- إحسان عباس — الشريف الرضي، دار بيروت ودار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٥٩ .

- إحسان عباس - فن الشعر، ط٤، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٨٧.
- أحمد الإسكندري وزملاؤه - المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، ط١، تقديم وضبط إحسان حلاق، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٤.
- أحمد أمين - ظهر الإسلام، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٦٦.
- أحمد الجنايني، لغة الشريف الرضي، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.
- بشري موسى - الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤.
- جابر عصفور - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨١.
- جرجي زيدان - تاريخ أدب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
- جيمس ب. كارس - الموت والوجود (دراسة لتطورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي والعالمي)، ترجمة بدر الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
- حسن أحمد عيسى - الإبداع في الفن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأنب، الكويت، ١٩٧٩.
- حسين عطوان - مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٢.
- حنا الفاخوري - تاريخ الأدب العربي، ط١٢، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.

- الخوانساري — محمد باقر الموسوي — روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان، قم، حيايان أرم، طهران، ١٩٧٠ .
- زكريا إبراهيم — مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٠ .
- زكريا إبراهيم — مشكلة الحياة، ط١، دار مصر للطباعة، الفجالة، مصر، ١٩٧١ .
- زكي مبارك — عبقرية الشريف الرضي، ط٢، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٨ .
- زكي مبارك — المدائح النبوية في الأدب العربي، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٢ .
- سعود عبد الجابر — الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨١ .
- شكري عياد — موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، القاهرة، مصر، ١٩٦٨ .
- شوقي ضيف — الرثاء، ط٤، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨٧ .
- شوقي ضيف — عصر الدول والإمارات، الجزيرة — العراق — إيران، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠ .
- شوقي ضيف — العصر العباسي الثاني، ط٢، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٥ .
- شوقي ضيف — فصول في الشعر ونقده، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٨٨ .
- شوقي ضيف — الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٨ .
- شوقي ضيف — في النقد الأدبي، ط٥، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٧ .
- صلاح فضل — نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط١، دار الشروق القاهرة، ١٩٩٨ .

- الطيب العشاش — ديوان أشعار الشَّيع إلى القرن الثالث، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .
- عادل الفريحات — إضاءات في النقد الأدبي، دار أسامة، دمشق، ١٩٨٥ .
- عبد الآله الصائغ، الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥ .
- عبد الحسين الحلبي — حياة الشريف الرضي، قدم له علي الخاقاني، مطبعة الحرية، بغداد، ١٩٦٨ .
- عبد الرحمن شكري — دراسات في الشعر العربي (مجموعة بحوث نشرت بالرسالة والثقافة والمقتطف والهلل وغيرها)، ط١، جمعها محمد رجب بيومي، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤ .
- عبد الرشيد سالم — شعر الرثاء واستنهاض العزائم، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٢ .
- عبد الفتاح الحلوي — الشريف الرضي حياته ودراسة شعره، دار هجر، مصر، ١٩٨٦ .
- عبد اللطيف عمران — شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية، دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٠ .
- عز الدين إسماعيل — في الشعر العباسي الرؤية والفن، ط١، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤ .
- عزيز جاسم — الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٨٦ .

- عناد غزوان، بناء القصيدة عند الشريف الرضي، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية، دار آفاق عربية بغداد، ١٩٨٥ .
- كمال أبو ديب — جدلية الخفاء والتجلي (دراسة بنيوية في الشعر) ، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧٩ .
- مجيد ناجي — الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ط١، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ١٩٨٤ .
- محمد بن حسن الزير — الحياة والموت في الشعر الأموي، ط١، دار أمية، الرياض ، ١٩٨٩ .
- محمد حور — تربية الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ط١، مكتبة المكتبة، العين، الإمارات، ١٩٨١ .
- محمد حور — رثاء الأم في الشعر العربي من ابن الرومي إلى أبي العلاء المعري، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٦ .
- محمد شلش — الحماسة في شعر الشريف الرضي، المكتبة العالمية، بغداد، ١٩٨٥ .
- محمد عبد الغني حسن — الشريف الرضي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .
- محمد غنيمي هلال — النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٣ .
- محمد مهدي البصير — في الأندلس العباسي، ط٢، مطبعة السعادة، بغداد، ١٩٥٥ .
- محمود عبداش الجادر، الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي، في كتاب الشريف الرضي دراسات في ذكره الألفية، دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٥ .

- محمود غناوي الزهيرى — الألب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، شارع الفجالة، مصر، ١٩٤٩ .
- مخيمر صائح — رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٩٨١ .
- مصطفى سويف — الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، منشورات جماعة علم النفس التكاملي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠ .
- مصطفى الشكعة — الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٥ .
- مصطفى الشورى — شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ .
- مصطفى صادق الرافعي — تاريخ آداب العرب، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٤ .
- مقبول علي — المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ .
- ميشال عاصي — الفن والأدب (بحث جمالي في الألوان والمدارس الأدبية والفنية)، ط٨، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٠ .
- نازك الملائكة — قضايا الشعر المعاصر، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ، ١٩٩٢ .
- نازم رشيد — الألب العربي في العصر العباسي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، ١٩٨٩ .

• نبيل أبو حاتم — اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال يتيمة الدهر، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٩٨٥ .

• نبيل أبو حاتم — الفرق الإسلامية فكراً وشعراً، ط١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٩٠ .

• يوسف بكار — بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ط٢، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ .

ج — الرسائل الجامعية :

• أحمد موسى يعقوب — شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٩٦ .

• إنعام رواقية — الرؤية السياسية والاجتماعية في شعر الشريف الرضي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٨٤ .

د — الدوريات :

• حمودي، أهل البيت عليهم السلام في شعر الشريف الرضي، مجلة تراثنا، عدد (٥) ، خاص بالشريف الرضي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ٢٧٩ — ٢٩٣ .

• عصام عبد علي، الإحساس بالعروبة في شعر الشريف الرضي، مجلة آداب المستنصرية، عدد (٥) ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٠، ٢٩٣ — ٣١٠ .

• محمد بحر العلوم، الشاعر الطموح، مجلة تراثنا، عدد (٥) عدد خاص بالشريف الرضي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ١٩٧ — ٢٤٧ .

• محمد محمود الدش، الشاعر الذي جاء بين المتنبّي وأبي العلاء المعري، مجلة العربي، عدد (٧٢) ، وزارة الإرشاد والأبناء ، الكويت، ١٩٦٤، ٢٨ — ٣٣ .